د. جمال دغيدى

رواية

انتبهوا.. العود يحترق

دار ليلى كيان كورب للنشر والتوزيع

انتبهوا.. العود يحترق

رواية

جمال دغيدي

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

الكتاب:

انتبهوا.. العود يحترق

المؤلف:

جمال دغيدي

★★★

رقم الإيداع:

1422 /2014

الترقيم الدولي:

978.977.5283.05.4

★★★

الغلاف:

محمد محمود

★★★

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042(02)(002) - 23885295(012)(002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

جمال دغيدي

انتبهوا.. العود يحترق





إهداء أول

إلى رفيقة الدرب أيام الصيف وأيام الشتاء

إهداء ثاني

إلى مهدي ولحدي.. إلى قريتي ساقية المنقدي.

جمال دغيدي

الإهداء

إلى بيتي الأصغر.. زوجتي وأولادي

إلى بيتي الأكبر.. مصر والعرب

جمال دغيدي

1

رن جرس التليفون، فانتقلت عيناه من الساعة إلى السماعة، تُرى من يتصل الآن؟ قام متخاذلًا ناحية التليفون، ومد يده بتكاسل، ثم رفع السماعة وألصقها بأذنه: ما رأيك إذا هجمنا عليك الآن؟ طرقت أذنه الكلمات طرقًا مفزعًا، لا سلام ولا تحية! وذهل لأمرين: الأول أن أخاه حامد لم يتصل به من قبل في مثل هذا الموعد، فمن المفترض أنه يعرف أن عوض لم يعد من العمل بعد! فما أدراه أنه حصل على إجازة اليوم؟! والثاني عن الغرض من هذا الهجوم الذي كان من المفترض أن يكون في يوم إجازته الأسبوعية وليس في أيام العمل. رد بتثاؤب: ولكن لا أحد بالمنزل سواي.. تعالَ أنت وحدك.. لا تحرجنا مع زوجتك! فجاء الرد لغزًا آخر: لست وحدي الذي سيأتي بل أنا وأخوك شاكر وأختك سهام، وبالطبع باقي أفراد الأسر. ثم ضحك ضحكة عالية وهو يستطرد قائلا: لن يحضر سوى هؤلاء فقط. لم يضحك عوض، ثم اعتصر عقله ليجد في لحظة ردًا مناسبًا يعتذر به، فهو لا يريد أن يستقبلهم في غياب زوجته حتى لا تظن أن هذا الميعاد مدبر فتتأزم نفسيًا مرة أخرى من ناحيتهم، وأسعفته الإجابة: يا أخي لا تحرجني مع زوجتك وزوجة أخيك وزوج أختك سهام، فلا أحد هنا يقوم على خدمتكم. وجاء رد حامد حاسمًا: هم ليسوا غرباء يا عوض! ولم يجد عوض بدًا من أن يوافق فقال محاولًا إصلاح ما ظن أنه أساء فيه خلال الحوار: مرحبًا بكم يا أخي، لكن لا ذنب لي إذا لم تجدوا

شيئًا يُقدم لأولادكم. وانتهت المكالمة ووُضِعت السماعة وبقيت يده فوق السماعة لفترة وهو شارد بذهنه يبحث عن سبب لهذا الهجوم المفاجئ، وقال في نفسه: نعم هذا هجوم، جيش جرار في مواجهة فرد. ثم عاد فقال: ليس هجومًا بل انقضاض فلا مقدمات ولا مناسبات. ثم قال يفكر: ألم يكن في وسعهم الانتظار حتى الغد فتستقبلهم زوجتي وتقوم على خدمتهم مديحة؟ وفجأة برقت في ذهنه فكرة كانت بمثابة المفتاح الذي أزال الغموض، تذكر حين حكت له مديحة بالأمس الحوار الذي دار بينها وبين سهام أخته في التليفون حين سألت عنه سهام فعلمت أنه ليس بالبيت، ثم سألت عن مدام سحر وأخبرتها مديحة أنها نائمة، ثم سألتها مرة أخرى مستفهمة: هل ستخرجون هذا الأسبوع؟ وعرفتها مديحة أن مدام سحر ستزور أهلها في الغد؛ أي اليوم، وطلبت منها سهام عدم إخبار أحد أنها اتصلت، إذًا هذه الزيارة مدبرة، وما دام تم ترتيبها في غياب سحر إذًا سحر طرف فيها. تململ في جلسته، واستطرد تفكيره: هكذا تكون الأمور قد وضحت، ثم وقف وتحرك في الرسيبشن ذهابًا وإيابًا، وحرك ذراعيه صعودًا وهبوطًا في توافق مع نبرات صوته حيث علا تفكيره وأصبح مسموعًا بعد إدراكه أنه لا أحد معه، قال: لست أول من يمكث ثلاثة عشر عامًا دون إنجاب! بل مثلي الكثير.. وكثير منهم راضون مثلي.. ليس عند سحر مشكلة مرضية تمنعها من الإنجاب وليس عندي أيضًا مرض يمنعني.. وكلانا راض بقضاء الله.. فلماذا إلحاحهم؟! سيقولون نفس الكلام وسأرد نفس الرد.. أما آنَ الأوان ليهمدوا؟! كل ما سيفعلونه هو تكدير صفو

سحر.. لأتحمل أنا عبء إصلاح ما أفسدوه. وبينما هو غارق في التفكير يمسح المكان جيئة وذهابًا سمع جرس الباب ورفع سماعة الجرس المعلقة على الحائط إلى أذنه، فلما عرف أنه الهجوم فتح الباب وخرج لمواجهتهم.

أصم الصخب أذني عوض، وتمنى لو وضع قطعة من القطن في كلتا أذنيه، الأصوات متداخلة لا تكاد تستبين جملة مفيدة.. خليط غير متجانس من أصوات النساء والرجال والأطفال، ومزيج من الهرج والمرج. الأطفال يتقافزون هنا وهناك، يطارد بعضهم بعضا، فيقف هذا فوق كرسي الأنتريه ويختفي ذاك تحت طاولة السفرة، ولفت نظره أن عماد ابن حاتم، وهو ابن أربع سنوات، وهادي ابن شاكر، وهو في الصف الثاني الابتدائي، يرتدي كل منهما بذلة كاملة برباط عنق، فقال لنفسه هذه فكرة سهام بالتأكيد تعرض ما تروج له بصورة تجذب الانتباه، فلأنها تعرف أنني أفضل ارتداء البذلات جعلتها عنوانًا للأطفال تذكرني بأنني ليس لدى أطفال، ولأنها سليطة على من حولها وظَّفت أخويها لأداء المهمة بالإقناع والإلحاح، والحقيقة التي لا أستطيع إنكارها هي حبي للأطفال، تمامًا كما تحبهم سحر زوجتي، ولا أتخيل إنسانًا مهما كان من القسوة يكره رؤية الأطفال والتعامل معهم، كما لا يكره إنسان التعامل مع الفطرة النقية قبل أن تنتقل إليها عدوى الأفكار المعوجة والمنطق المقلوب، ولكن يجب ألا نسخط حين يجيء قضاء الله بما لا نهوى. ومسح المكان بعينيه فلاحظ أن الضجيج بدأ يختفي شيئًا فشيئًا. اتجهت أخته للمطبخ تفسح المجال لأداء الأدوار التي وزعتها واكتفت بالمراقبة من بعيد

لتتدخل عندما يتطلب الأمر ذلك، أما شهيرة فقد ضمت طفلها الصغير هشام إلى صدرها ترضعه من تحت الإيشارب، وميرفت زوجة حامد تجلس إلى جوارها تتهامسان، وتحلَّق الأطفال في حلقة وراحوا يلعبون جالسين.

وبدأ الغزو فجأة، يبدو أن شاكر رأى أن مفاجأة الخصم تشل حركة تفكيره فقال لعوض: إلى متى يا عوض ترفض الزواج بغرض الإنجاب؟ الدين لا يحرم ذلك فهذا من حقك الشرعي. فقطب عوض وقال: أرجوك يا شاكر لا تتحدث في هذا الموضوع من فضلك! وتحركت الميمنة، قال حامد: العمر يجري يا عوض.. الحقْ نفسك قبل أن يجيء يوم تندم فيه وعندها لن ينفع الندم! فرد عوض متضجرًا: أنا سعيد يا عالم بحياتي هكذا ومطاردتكم هي التي تعكر صفو حياتي. ثم قال ضاغطًا على الأحرف: أرجوكم كفاية مطاردة في هذا الموضوع. وأقبلت سهام تحمل إليهم النسكافيه، وضعته أمامهم برفق قائلة: ما هذا الجدل الذي أسمعه؟ فقال شاكر يخاطبها: أخوكِ عوض رافض الزواج. وأشار إليها بيده قائلا: قولي له انت حاجة يا سهام! بالتأكيد هي تعرف كيف دار الحوار، وانتظرت حتى يحين دورها فجاءت بالنسكافيه، وأعطاها شاكر إشارة البدء فقالت من باب المشاركة: يا عوض يا حبيبي نحن لا نقصد ولا نرضى أن تظلم زوجتك، فقط نقول زوجة أخرى وسحر معك معززة مكرَّمة. فقال: يا جماعة أعصابي لم تعد تتحمل هذا النقاش. ثم قال في توسل: أرجوكم الرحمة! وشعر بصداع شديد، وتذكر سؤال الطبيب عن ارتفاع ضغط الدم، وعلا صوت سهام: هذا حرام يا عوض! يبدو أن هذه البنت التي اسمها

سحر عاملة لك «عمل»؟! وهنا هب عوض واقفًا وقد أوقف الغضب تفكيره وقال حاسمًا: يا جماعة من أراد أن يزورني لأجل الزيارة والود وصلة الرحم فأهلا به، وإن كان لفتح هذا الموضوع فأنا لا أرحب به، لم أعد أطيق هذا الكلام. فرد شاكر بعصبية: تطردنا يا عوض من أجل زوجتك؟! تطرد إخوتك؟! وقام واقفًا ينادي: هيًّا بنا يا شهيرة! خيرًا تعمل شرًّا تلقى! ومحمود الذي لم ينبس بكلمة واكتفى بما قالته زوجته سهام بان عليه الغضب وخرج يقول: منك لله يا سهام! وعم الحرج الموجودين جميعًا، وتسللوا خارجين مهزومين وهو يقف لا ينبس ببنت شفة، وظل واقفًا لا يتحرك له ساكن حتى خيم الصمت من جديد على المكان، فاستلقى على ظهره فوق كنبة الأنتريه واتجهت عيناه للنجفة المتلألئة.

2

في اليوم نفسه الذي هجم إخوة عوض عليه مدججين بأسرهم دونما مقدمات كانت سحر وللمرة الأولى ذاهبة إلى أهلها دون زوجها، فقد كان دائمًا حريصًا على مصاحبتها، ولكن يبدو أنه مرهق بالفعل هذا اليوم، وإلا فما الذي دفعه إلى طلب إجازة عارضة، فقد ظل طوال الليلة الماضية يتململ في فراشه، وكانت سحر تشعر به، سألها عن أقراص الصداع.. فسحبت شريط الـ«ريفو» من رف السرير أعلى رأسها، وناولته إياه، ثم قامت تتمطى وأحضرت له كوب ماء، وأخذها النوم وهي تقول له بتثاؤب: لازم تروح لدكتور يا عوض!

اقتربت السيارة من جامع البنات بشارع بورسعيد، واكتشفت سحر أنها في أقصى اليسار وكان ينبغي أن تكون في أقصى اليمين، لتنحدر يمينا بزاوية عمودية إلى شارع الأزهر، أنارت الإشارة اليمنى وأبطأت السير ثم أدارت عجلة القيادة رويدًا رويدًا ناحية اليمين، وأخيرًا تمكنت من الدخول إلى الشارع: أنت شردتِ يا ست سحر؟! سألتها مديحة وهي تبتسم، فردت موافقة بصوت منغوم: يعني! ثم لامتها: لكنك لم تنبهيني يا مديحة! فقالت مديحة: أنا أيضًا شردت. وضحكت بصوت رقيق.. هذه الفتاة الرقيقة لا تذكر أن ناداها الأستاذ عوض أو الست سحر بكلمة خادمة منذ أن جاءت إليهما، حتى حين يسأل عنها أحد ممن لا يعرفونها من أصحابه، بل لم يسمح لإخوته بذكر هذه اللفظة، وعندما جاءت بها سحر

لتعيش معهما، قال عوض لمن سأل عنها إنها جارة سحر وسحر تحبها. عاملاها برفق وحنت عليها سحر وعلى أمها وأختيها الصغيرتين.

كانت مديحة في أول الأمر تساعد أم سحر في البيت طوال اليوم وفي المساء ينادي عليها الحاج فتحي أبو سحر فيدس في يدها بحنو نقودًا فتطبق عليها كفها وتذهب إلى بيتها منشرحة الصدر، لم يكن حضورها لشقة الحاج فتحي منتظمًا ولا بصورة يومية، بل كانت تأتي أيامًا وتغيب أخرى ولكنها لا تتأخر إذا ما طلبتها الحاجة فكرية أم سحر، لم يدرِ أحد كم كان يعطيها الحاج فتحي، وحين تجرأت الحاجة فكرية وسألت زوجها عن ذلك لم يجبها، وخشيت ألا يكون ما يعطيه الحاج لهذه الطفلة كافيًا، ولهذا كانت تغمزها من وقت لآخر بلفافة من النقود الورقية من وراء زوجها. كانت تفعل ذلك خلسة من أبنائها. ولما تزوجت سحر هذا الثري أخذتها معها.

عادت سحر بذهنها للوراء فشعرت بمتعة وشجن، كان عوض يأتي إلى هنا قاصدًا جامع الأزهر الشريف، فيعرج على بقالة الحاج فتحي ليشتري أشياء لم يكن يريدها، كان يأتي ليرمقها ويختلس نظرة إليها، وبدا له أنها أعجبت به هي الأخرى، فكانت ابتسامتها وهي تنفلت من الدكان ذاهبة إلى بيتها تجعله لا ينام الليل، وشكا من الأرق مثلما شكا بالأمس، وذات مرة تبعها بعد خروجها من الدكان ولحقها على قمة درب الأتراك، عرف ساعتها أنها تميل إليه منذ النظرة الأولى، وخفق قلبه وقلبها، وتواعدا، عرف كل منهما الآخر بعد ذلك، كانت طالبة

في السنة الأخيرة من كلية الآداب، وكان هو قد أنهى تعليمه بكلية التجارة.

يا الله السيارة تكاد لا تتحرك، والزحام لا ينتهي، ولكن الحمد الله لم يبقَ سوى القليل. وبعد فترة تحرك الطريق فدلفت بالسيارة يمينًا من أمام باب الأزهر، وبعد قليل مالت يمينًا ثم أوقفت السيارة قبل سوق الخضار أمام بقالة الحاج فتحي. سبقتها مديحة في النزول واندفعت ناحية رجل عجوز سلم عليها وهو يقول: أهلًا يا بنتي.. أهلًا أهلًا. كانت تغمرها السعادة حين تراه، فهو الأب بعد أن مات أبوها، وحتى الآن لم يزل الأب الحاني لأختيها والراعي لأمها، ثم نزلت سحر من السيارة وراحت ترقبه بإشفاق من بعيد وهو يصافح مديحة، فقد داهمته علامات الشيخوخة فجأة على مدى العام المنقضي فاستعمرت التجاعيد أنحاء وجهه وحل الذبول محل النضارة، لكن صورته وهو في عنفوان رجولته ما زالت تملأ ذاكرتها، مالت على يده وقبلتها، ووقفت تحادثه ساعة ثم قبضت على يد مديحة وجذبتها ذاهبتين إلى المنزل.

سارتا على مهل عن يسارهما جامع الأزهر وعن اليمين محلات صغيرة متلاصقة معلق على بعضها مسابح مختلفة الأشكال والألوان وقوارير المسك الصغيرة وأعواد البخور، وعلى واجهة أحد المحلات كتب «بازار الأزهر» بالأحرف الذهبية البارزة، وكانت المعروضات من علب صدفية وصوان نحاسية مشغولة برسومات فرعونية وتماثيل مصنوعة من العظام وأخرى من الأخشاب كلها تراصت داخل الفاترينة بصورة تجذب الانتباه، وعلى سطح المكتب أمام الواقف داخل

المحل كان يقف سرب من الفيلة مرصوص خلف بعضه البعض على هيئة قوس بأحجام تتضاءل تدريجيًّا للوراء، كان مصنوعًا من سن الفيل، وكان السائحون يرتادون الطريق ذهابًا وإيابًا، ومرقتا من أمام محل الفول والطعمية فدارت في ذهن كل منهما عجلة الذكريات سريعة وتحسرتا على سنوات الطفولة والصبا. داعبت مديحة بعض الوجوه التي لم تكن تعرفها سحر رغم أنها عاشت في الدرب نفسه مثلها. وعندما وصلتا البيت تقدمت مديحة ودقت الجرس ففتح الباب في التو طفل في العاشرة من عمره كأنه كان يقف من ورائه منتظرًا، احتضنته سحر فأطالت احتضانه ثم قبلته من جبهته قائلة: كيف حالك يا فتحي؟ ثم التفتت حولها تبحث عن ناصر أخيها، لكنها لم تعثر عليه، فقالت أمها وهي تطبع على خديها قبلات كثيرة متتالية: ناصر أخوك أحضر فتحي بالأمس وأخبرنا أنه سيجيء اليوم. ثم تذكرت قائلة: والله سأل عليكِ وقال لي: خلي سحر عندك حتى أجيء. وأردفت الأم: أخوك حبيبك يريد أن يراكِ يا حبة عيني. لم ترد سحر لعدم تأكدها إن كان أخوها سيحضر في أثناء وجودها أم سيتأخر ناويا المبيت هنا في بيت والده، ثم أقبلت الحاجة فكرية على مديحة تقبلها وهي تقول لها: ربنا يعطيكِ ويراضيكِ يا مديحة يا بنت سعدية! وعمت السعادة أنحاء الشقة، وجاءت الجارات ممن سمعن صوت سحر وضجيج الترحاب، وكان الباب ما زال مفتوحًا وأسرعن يصافحنها هاشّات باشّات، ووضعت مديحة الأكياس على طاولة في الصالة وخرجت مستأذنة، ذهبت إلى أمها وأختيها في المنزل المجاور وبقيت معهن ساعات حتى

طلبتها مدام سحر عائدة، فأسرعت وهي تقول لأمها بتلهف: ميعادنا كما هو إن شاء الله.

وعادت سحر قبل أن تكتمل سعادتها برؤية أخيها ناصر الذي لم تره منذ فترة طويلة، رغم إلحاح أمها بالبقاء حتى يحضر، حتى قالت تطمئنها أنها ستتصل بعوض تستأذنه، لكنها كانت حادة وحاسمة، فهي منذ زواجها حتى الآن قد راضت نفسها على الالتزام بما اتفقت عليه مع زوجها مهما كانت الأسباب. وقالت لأمها تهدئ من نفسها المشتاقة إلى جمع الأخوين معها لتعيد للبيت بهجته القديمة ولو لساعات: إن شاء الله يا ماما سأتفق معه على يوم نقضيه جميعًا هنا وسيكون معي عوض.

وفي المساء عادت سحر لتجد زوجها على غير طبيعته البشوشة! بدا كأنه يحمل هموم الدنيا كلها! سألته عن السبب ولكنها لم تجد إجابة شافية، سألته عمن حضر اليوم ولكنه أنكر مجيء أحد، فقد اجتهد في إعادة المكان إلى ما كان عليه قبل أن تغادر البيت، ولكنها كانت قد دخلت المطبخ أولًا ومعها مديحة ونظرت كل واحدة للأخرى، وجال في رأسيهما ظن واحد ولم يذهب ظنهما إلى غير ما حدث بالفعل، فأضمرت ذلك في نفسها ولم تعقب على حديث زوجها حين قال: لم يأتِ أحد.

3

الشمس وقفت هناك بعيدًا في الأفق، قبل أن تسقط في هوة سحيقة، وقفت تنفث آخر أنفاسها، والكون يودعها مرتديًا ثوبه الذهبي، وهو يغالب شعورًا حانيًا شجيًّا تجاه تلك الشمس التي طالما منحته الدفء وأشعرته بالحياة، ووقف سيد أمام باب الفيلا يضغط زرًّا بجوار الباب فسمع صوتًا أنثويًّا رقيقًا انبعث من سماعة أسفل الزر: وعليكم السلام.. أهلًا بك يا أستاذ سيد تفضل! وانفتح الباب تلقائيًّا، فدخل وأغلقه وراءه كالمعتاد، ثم عبر الطريق المزدان بصفين من الزهور على الجانبين، وهو يستنشق أريج الريحان الذي يعبق المكان، ثم أرسل بصره إلى شجرتي النخيل والكمثرى، وقال كما تعود أن يقول كلما رآهما: ما شاء الله. واستقبلته فتاة حسناء لا تفارق الابتسامة وجهها، فلما اقترب أفسحت له الطريق وحياها مارقًا إلى الداخل: ما أجمل هذه الفتاة! همَّ بأن يسألها عن الأستاذ عوض لكنه فوجئ به يهبط الدرج. جلس الاثنان على كرسيين متقابلين بالأنتريه المجاور للباب، وبدآ يتناولان أطراف الحديث إلا أن شيئًا غريبًا جذب انتباه عوض، فقد لاحظ غرابة في تصرفات سيد لم يلحظها عليه من قبل، كان سيد يقترب بعينيه من وجهه شيئًا فشيئًا حتى يكاد يلامسه، ثم يدقق النظر، وكرر ذلك عدة مرات، ولم يستطع عوض كتم ابتسامه، فقال مازحًا: أخلع لك وجهي تراه على راحتك؟! لعله يكون قد أعجبك هذا اليوم! أو ربما تبحث فيه عن واحد تائه من

أصاحبك! فانفجر سيد ضاحكًا وضحك عوض واستمرا هكذا لفترة، وما إن تمالكا للحظات حتى انفجرا من جديد غارقين في الضحك، وأقبلت مدام سحر وهما على هذا الحال، وجاءت على أثرها مديحة.. تلك الفتاة الحسناء.. وهي تسوق أمامها طاولة عليها صينية كبيرة فوقها أطباق «كريم كراميل» وأكواب كريستال فارغة وزجاجة ماء بارد.

رحبت مدام سحر بالضيف وسألته عن عامر وأم عامر، فرد السلام على عجالة مما أثار دهشتها، ونظرت إليه دون أن يلحظ فوجدته يقترب من وجه زوجها وهو ما زال يغالب الضحك وقال لعوض: وجهك اليوم غير طبيعي، لكني لا أستطيع أن أحدد ماذا به. فرد عوض على الفور: تغيب لمدة أسبوع وحين تهل علينا لا يعجبك وجهي؟! ثم يستغرق في الضحك مرة أخرى.

دققت مدام سحر في وجه زوجها تمامًا كما فعل سيد لعلها تجد السبب الذي جعل سيد يستغرب، فاقتربت بعينيها من وجهه تمامًا كما فعل حتى كادت تلامسه، فلم يتمالك عوض نفسه وسقط على الأرض في نوبة هستيرية من الضحك، واستطاعت أن تتبين بعض الكلمات التي أطلقها في ثنايا الضحك: حتى أنتِ؟! حتى أنت يا سحر؟! ماذا جرى لكما اليوم؟ ثم قال سيد جادًا بعد أن تمالك نفسه موجهًا كلامه لمدام سحر: أنا طلعت بملحوظتين: الأولى لون وجهه الشاحب، والثانية الانتفاخ الموجود أسفل عينيه. ثم وجه حديثه لعوض مبتسمًا: هذا الانتفاخ حول العينين لا أراه إلا في مدمني الخمر! فرد عوض: حرام عليك يا رجل! ثم

سأله باستغراب: وهاتان الملحوظتان لماذا لم تلحظهما في المدرسة؟! ألم نكن معًا هناك؟! فرد سيد: في المدرسة نكون مشغولين دائمًا، أنا في الفصل وأنت في الحسابات، وحين نجتمع يكون موضوع الاجتماع هو همنا، وقالت مدام سحر مقاطعة: المهم أنا أوافق سيد على الملحوظتين. ولكن عوض كان له تفسير آخر إذ قال: ولماذا لا تفكران في الأمر ببساطة؟! فقلة النوم هي السبب يا أذكياء. ثم طرح عليهما لغزا وانتظر الإجابة؛ قال: هناك ملحوظة ثالثة من منكما يستطيع معرفتها؟! وجعلا يبحثان في وجهه يقلبانه يمينًا ويسارًا ويدققان النظر في رقبته ثم في قفاه وهو يطاوعهما في كل ذلك، لكنهما لم يجدا شيئًا، فقال سيد يائسًا: غُلب حمارنا.. عرّفنا انت. فقال وقد أغرق في الضحك ثانية: الملحوظة الثالثة هي الصداع! فضحكا حتى بانت نواجذهما، وقال سيد مقهقهًا ومعقبًّا: حلوة.. حلوة.. يبقى لك واحدة. وأنهى سيد الهزل لتظهر على قسمات وجهه أمارات الجد فجأة وخاطب عوض قائلًا: لي طلب عندك يا عوض فهل تنفذه لي؟ فنظر عوض إلى زوجته وقد انحسرت عنه الابتسامة المتبقية من توابع الضحكة السابقة، وقال بصوت خفيض: تسألني يا سيد إن كنت أنفذ طلبك أم لا؟! فقال سيد مؤكدًا: لن أطلب إلا إذا وعدتني، بل وأقسمت لي. فلفحت وجه عوض سحابة من الغضب ونظر إلى زوجته الذاهلة مثله، ولكن سيد لم يمهلهما وتوسل قائلًا: أقسمْ هذه المرة فقط.. فتكون هذه هي المرة الوحيدة التي تقسم فيها لإنسان. فقال عوض بضيق: أقسم يا سيد أن أنفذ لك طلبك إن كان في مقدوري. فقال سيد: إنه في مقدورك. فقال:

إذًا اطلب! فقال سيد: طلبي هو أن تأتي معي إلى طبيب يكشف عليك. فقال عوض مستنكرًا: نعم؟! ويضحك سيد وهو يقول: لقد أقسمت يا صاحبي! ويعود الدم فيتدفق من جديد في وجه الزوجة، وتنفرج أساريرها، ويردف سيد: لن تستطيع الإفلات! كان لك واحدة وهذه لي.. نبقى خالصين! ولم يستطع عوض الفكاك بعد أن أقسم. وقالت سحر بسعادة: والله عملت خيرًا يا أستاذ سيد، لو طلبت أنا منه هذا ما كان ليسمع كلامي. وابتسم عوض فجأة وقال ناظرًا إلى سيد بزاوية عينيه تحديًا وهو يضغط على الحروف: وأنت يا سيد أفندي.. لماذا لم تذهب إلى طبيب حين ألححت عليك من قبل، وتركْت حرقان صدرك الذي عاودك بكثرة هذه الأيام بلا علاج؟! فرد سيد: حرقان صدري أمره سهل.. كيس فوار كفاية عليه، وإن شاء الله بعد ما نخلص منك أبدأ أنا. ونهضت سحر قائلة: سأعد لك الملابس يا عوض..

وما إن ركبا السيارة حتى انشقت الأرض عن صبي يحمل في يده فوطة صفراء راح يحركها فوق زجاج السيارة الأمامي متظاهرًا بمسحه، فدس عوض في يده نصف جنيه، وتراجع الفتى للخلف يدعو له: ربنا يسترها معك يا أستاذ! وتحرك عوض بالسيارة حتى وصل إلى شارع القلعة ثم دلف فيه يسارًا، وخاضت السيارة الطريق ببطء، وسيد يتطلع من خلال النافذة إلى محلات الموبيليا عن اليمين والطريق المنحدر المؤدي إلى سينما الحلمية، أو بالأحرى أطلال سينما الحلمية على اليسار، وعبرت السيارة ميدان باب الخلق إلى شارع حسن الأكبر تتحرك قليلًا وتقف كثيرًا، بل أحيانًا ما يهم عوض بالحركة حين تهم السيارة التي أمامه ثم

يضغط الفرامل فجأة بقدمه، فيقول سيد متنفسًا الصعداء: الحمد لله.. أكيد الذي يفصلنا عن هذه السيارة – ناظرًا إلى الأمام – هو مقدار شعرة، وتواصل السيارة السير والتوقف حتى يصل إلى باب اللوق حيث العيادة.

كانت العيادة مكتظة بالمرضى، دفع «الفيزيتا» ثم مسح المكان بعينيه لعله يجد موضعًا يجلسان فيه، ولكن دون جدوى، المكان الوحيد الخالي هو التراس الذي تفتح عليه الصالة، وهو خال من الكراسي: لا بأس! اتجها إليه ووقفا هناك، قال سيد: يبدو أن القاعدة العامة هم المرضى، والشواذ هم الأصحاء، وقد يكون الإنسان الصحيح هو الذي لم يكتشف مرضه بعد، فقال عوض: يبدو أنك تصبرني بطريقة ذكية بعد أن أوهمتني أني مريض. قال ذلك وضحك ثم تابع: يا أخي الناس تحسد الطبيب على عمله وحياته، ولو تفكرت قليلا لوجدت أن الطبيب إنسان مسكين تعس.. فهو يقضي حياته متنقلا من سجن إلى سجن.. فمن غرفة الكشف صباحًا في المستشفى إلى غرفة الكشف مساءً في عيادته الخاصة.. لا وقت لديه يهنأ فيه مع أبنائه.. أو يقضيه في رحلة مسلية.. أو مصيف في شرم الشيخ مثلًا.. وإذا وضعناه مع الآخرين في جدول مقارنة نراه يسمع أزيزًا في الصدر أو لغطًا في القلب حين يسمع الناس أم كلثوم وعبد الوهاب في الراديو ساعة العصاري، ويرى مرضى شاحبين وأورامًا وانتفاخًا بالعينين – يبتسم سيد – حين يرى الناس مسلسلًا شائقًا أو فيلمًا رائعًا أو برنامجًا مفيدًا وينام حين ينام ساعاتٍ قلائل حين يتمطى الناس في أسرَّتهم من كثرة النوم. فرد سيد قائلا: لكن تبقى السعادة شعورًا نسبيًّا، فقد

يشعر الطبيب وهو يتنقل من هذا السجن إلى ذاك – كما نراه نحن – بسعادة لا يشعر بها أمثالنا.. وربما تعادل السعادة التي يحسها حين يرى ابتسامة مريض بعد الشفاء ما يشعر به المصيِّف في شرم الشيخ أو مرسى مطروح أو ربما تزيد.

اقتنع عوض بوجهة النظر هذه وقال مداعبًا: أنت دارس تربية وتعليم أم فلسفة وعلم نفس؟! ثم أردف قائلًا: إذًا نستخلص حقيقة ثابتة وهي أن كل مخلص في عمله حين يحقق نجاحًا يشعر بسعادة حقيقية ليست كالسعادة التي نطاردها هنا وهناك في الملاهي والمصايف وغيرها، ويصبح دور هذه الأماكن مقصورًا في كونها استراحات نفسية لا غير.

رقم ثلاثة عشر؟! رقم ثلاثة عشر؟! ظل يكررها الرجل الجالس خلف الطاولة الصغيرة، ولكن أحدًا لم يرد، واتجهت الأنظار إلى الواقفين هناك في التراس: يا أستاذ يا أبو بذلة رمادي! يا بيه! انتبه الواقفان في التراس فنظر عوض مائلًا برأسه لأسفل ينظر إلى بذلته، وقال لسيد مبتسمًا: يقصدونني أنا! ثم اتجها إلى حجرة الطبيب، وفي الداخل ظلا واقفين أمام المكتب والطبيب منكب على دفتر أمامه يسجل شيئًا. اجلس.. قالها الطبيب دون أن ينظر لأحد، فجلسا، ولما انتهى حدق فيهما واحدًا تلو الآخر من فوق العدسات السميكة المثبتة فوق عينيه، وقال: من المريض؟ كلاكما يصلح أن يسمى مريضًا! لم يبتسم كما ابتسما، وراح عوض يقص عليه ما حدث ويشكو له من الصداع، ولا شيء سوى ذلك، فقام الطبيب وفحصه بدقة، وضغط بأصبعه على الساق ثم رفعها فتركت أثرًا. أومأ عوض لسيد قائلا وهو

يخفي ابتسامة: الملحوظة الثالثة! وعاد الطبيب إلى مكتبه وسأل عوض: هل تعاطيت علاجًا لارتفاع ضغط الدم من قبل؟ فأجاب عوض بالنفي، فسأل الطبيب: هل أصبت بحمى خلال شهر أو شهرين؟ فأجاب بالنفي، ثم أعطاه الطبيب طلب تحليل وطلب أشعة مقطعية وحدد له الأماكن المقرر التوجه إليها لعمل ذلك.

خرجا من عنده ساهمَيْن، لم يعقبا على ما قاله، وانطلقا بالسيارة قاصدين المطبعة والمكتبة الملحقة بها، فمرا بميدان عابدين، ثم اتجها يسارًا حتى بلغت السيارة شارع بورسعيد فعبرته إلى شارع راتب باشا وانحدرت يسارًا، ونظر عوض يمينًا وقد أبطأ من سرعته باحثًا عن مكان يركن فيه السيارة، كانت واجهة المكتبة العريضة تقابل مستشفى أحمد ماهر. دخلا من باب المكتبة وقابلهما سمير مرحبًا ومفسحًا لهما الطريق إلى أقصى اليمين، فولجا من باب يؤدي إلى المطبعة، وألقى عوض السلام مشيرًا بيده إلى العمال الذين تهللوا مرحبين به، ثم جلس هو على الكرسي الدَّوَّار أمام المكتب، وجلس سيد أمامه على كرسي فوتيل، وطلب عوض من أحد العمال أن يحضر كوبين من الشاي. كانت الأمور تسير على قدم وساق، فقد أخبره الأستاذ خيري أنهم انتهوا لتوهم من الطلبيات التي كان قد أوصى بها، وأنها أصبحت جاهزة للتسليم، فطلب منه عوض مباشرة التسليم بنفسه وتسجيل ملحوظاتهم إن وجدت، وابتسم ينظر إلى سيد عند ذكر لفظة ملحوظاتهم، فقال سيد ضاحكًا: إذًا لستُ وحدي الذي يستخرج ملحوظات. ومكثا ساعة يتحادثان في أمور الدنيا ماضيها وحاضرها، ثم خرجا عائذين من باب المطبعة الرئيسي الذي يفضي إلى الدرج ومنه إلى مدخل العمارة.

4

حضر سيد حسب ميعاده، واستقبلته مدام سحر مرحبة، قالت له وقد بان عليها التأثر: والله أنت تعبان معنا على طول يا أستاذ سيد.. يبدو أن التعب ضريبة الصداقة. رد مبتسمًا: أين هذا التعب الذي تتحدثين عنه؟! فردت قائلة: كفاية القلق الذي نسببه لك كل ساعة. وأسرعت إلى المطبخ ثم عادت فقدمت كأسًا من شراب المانجو وهي تنادي على عوض تستعجله: هو أنت رايح تقابل عروسة؟! كان عوض قد سمع صوتها ولكنه واصل ارتداء ملابسه بهدوء، ثم نثر البارفان تحت أذنيه وعلى ملابسه وهبط إليهما، ولاحظ سيد عدم وجود مديحة، تلك الفتاة الحسناء، فسأل عنها وعرف أنها في زيارة لوالدتها وأختيها، كان عوض يحمل مظروفًا كبيرًا أصفر وآخر صغيرًا أبيض، وخرجا معًا بنتائج التحاليل والأشعة إلى عيادة الطبيب، وتحركت السيارة، وفي شارع القلعة كانت السيارات واقفة لا تتحرك، تملأ الطريق على امتداد البصر، أدار عوض المفتاح وأوقف الموتور، وجد نفسه أمام مقهى الحلمية، مقهاه المختار في أثناء الدراسة، شده الحنين إليه فطالما جلس هنا هو وزملاء الدراسة، كان يحلو لهم وضع الكراسي خارج المقهى فوق الرصيف العريض هناك! ووثبت عيناه إلى مكانهم المفضل وبدا وكأنه يشاهد زملاءه، أما سيد فراح يتطلع إلى التلفاز المعلق على رف كبير فوق الحائط، وأفاق عوض من ذكرياته على «كلاكسات» السيارات، وبدأ السير من جديد، وفجأة تذكر

سيد صاحب البيت الذي يقطن فيه فقال لعوض: لم أخبرك أن صاحب البيت رفع قضية إزالة! فقال عوض مطمئنًا: هذه القضايا لا يحكم فيها بهذه السهولة. فرد سيد قائلًا: والله بعد زلزال 92 كل شيء بقى ممكنا. فقال عوض ببساطة: ولا يهمّك رقبتي سدادة! وأشار إلى رقبته. فقال سيد: لم أتخيل نفسي في مكان آخر غير شارع السد. وطمأنه عوض قائلًا ببساطة: أعتقد أن القاضي سيرفض دعوته.

من حسن الحظ أن العيادة لم تكن مكتظة بالمرضى كما كانت في المرة السابقة، لم يمكثا طويلا حتى جاء الدور، نظر الطبيب إلى عوض من فوق العدسات وتناول منه المظروفين وراح يدرس ما بهما بدقة، وهما صامتان مصغيان كطالبين ينتظران نتيجة الامتحان التي حان وقت إعلانها، فقد طوى الطبيب المظروفين ثم انكب على دفتر «الروجتات» وراح يكتب حتى ملأ «الروجتة» ثم ناولها مع المظروفين لعوض، واتكأ للخلف فنظرا إليه مصغيين، وحدَّث عوض فأخبره أنه يعاني من مرض التهاب الكلى، وأن وظائف الكلى تأثرت بدرجة ما زالت متوسطة، وأنه يجب أن يستمر على هذا العلاج مع المتابعة كل أسبوعين مبدئيًّا، وهم عوض قائمًا فقال له الطبيب بغضب: لم أنتهِ من الكلام. ثم مد يده بورقتين أخريين؛ إحداهما للتحليل الذي سيقوم بإجرائه قبل حضوره كل مرة، والثانية بها نصائح غذائية والأطعمة الممنوعة. جال في خاطر سيد أن يسأله عن مدى خطورة المرض، لكنه خاف من رد غاضب أو سخيف، فهذه السحنة لا يُنتظر منها غير ذلك، ولكنه استجمع شجاعته وسأله هذا السؤال دفعة واحدة. كتم الدكتور

ابتسامة ثم قال لهما برقة غير متوقعة: لا أخفي عليكما أن هذا النوع من الالتهاب غير مضمون العواقب، فقد يتطور الأمر مستقبلاً ويصبح العلاج بالغسيل الكلوي هو الحل.

يا الله.. الرقة المصطنعة التي تحدث بها كانت فقط في طريقة عرض الإجابة، لكن المحتوى مخيف. أذهلتهما المفاجأة فوقفا ساهمين للحظة، هذا ما لم يكن في الحسبان، خرجا محزونين من حجرة الطبيب، لا ينظر أحدهما إلى الآخر، وفي صالة الانتظار شعر عوض بالأرض تدور به، وكاد يهوي على الأرض لولا ذراع صاحبه التي التفت بسرعة حول خصره، ثم أجلسه برفق على كرسي قريب، وأسرع الرجل الجالس خلف الطاولة فأحضر كوبًا من الماء، احتسى عوض منه ثم طمأن صاحبه سيد الذي شحب وجهه من القلق: أنا بخير لا تقلق! هذا من أثر المفاجأة فقط يا سيد. أصلح سيد من هندام صديقه المكروب، ثم سار به خطوة خطوة خارجين حتى وصلا إلى الشارع، أراد عوض أن يتجه إلى السيارة ولكن سيد منعه، ثم أشار إلى تاكسي وقال له سيد: الحلمية الجديدة.

حاول سيد التخفيف عن صاحبه معترضًا على أسلوب الطبيب فقال: من الممكن أن يشخص الطبيب المرض ولكنه يجب أن لا يتكهن بما سيحدث مستقبلاً، لأن فوق العلم عالم قدير يُسيِّر الأمور كيف يشاء. ثم قال له يواسيه: حتى وإن كان كلامه صحيحًا، فهل تقابل قضاء الله هكذا؟! واستطرد قائلاً: حتى لو حدث هذا مستقبلا – لا قدر الله – فالفشل الكلوي في هذه الأيام أصبح مثل أي مرض له علاج،

فها هم المرضى يذهبون إلى وحدات الغسيل الكلوي كما لو كانوا ذاهبين إلى السينما أو المسرح، يجلسون متصلين بماكينة الغسيل أمام التلفاز لساعات معدودة ثم يخرجون ليواصلوا حياتهم.

كان سيد يريد أن يهيأه نفسيًا لتقبل الخبر، وبعد ذلك عاد يطمئنه فقال: هذا يا عوض على أسوأ الفروض، ولكني أشعر إن شاء الله أن كل هذا سيكون كالوهم وسينزاح قريبًا، إن شاء الله. ثم قطب سيد وهو يشد من أزر صاحبه قائلاً: يا أخي نحن قربنا من الحلمية أرجوك! ! هذه الصورة التي أنت عليها ستزعج زوجتك. ثم أمره: امسح هذا الهم عن وجهك واستبشر خيرًا وثق بقضاء الله. ويرد عوض بعد صمت طويل: لا حول ولا قوة إلا بالله، نحمد الله على كل حال. والحقيقة أن وقع المفاجأة أذهل سيد بقدر ما أذهل عوض، حتى إنه قال في سره: ما هذا اليوم المشؤوم؟! الفشل الكلوي؟! هذا المرض اللعين يداهم أعز أصدقائي! ولكنه لم ينطقها بلسانه حتى لا ينزعج صاحبه. نظر إلى الساعة في يده بحركة لا إرادية.

وصلا إلى الفيللا، وانزعجت مدام سحر بمرآهما، فقد كان الوجوم باديًا عليهما وهما يجلسان، لكنها طمأنت نفسها: بالتأكيد هما يمثلان الآن! يريدان مازحين أن يقلقانها ثم يفاجئنها بالخبر السعيد قائلين: لم يجد الطبيب به علة. ولكن الوجوم لم ينقشع ولم تحتل مكانه الابتسامة كما كانت تنتظر، لم تستطع الصبر أكثر من ذلك، سألتهما: ما الخبر؟ تمالك سيد وقال لها: وجد الطبيب التهابًا بالكلى وكتب هذا العلاج - وأظهر «الروجتة» - وطلب المتابعة. مستحيل أن

يكون هذا كل ما هنالك، ثم علا صوتها قليلاً واتسعت عيناها قائلة: من فضلكما قولا الحقيقة وبسرعة، ماذا وجدتما من فضلكما، لا أتحمل الانتظار. فقال عوض وقد اغرورقت عيناه بالدموع فلم يرَ زوجته بوضوح: التهاب بالكلى قد يؤدي إلى فشل كلوي. فصرخت الزوجة: ماذا تقصد بقد يؤدي؟! هل فعلًا حدث فشل كلوي؟ فأجابها سيد: أبدًا لم يحدث.. قال الطبيب قصور وليس فشلاً.. وكتب «روجتة».. لو كان فشلاً لأحاله إلى وحدة الغسيل الكلوي. تنفست الزوجة الصعداء ورجعت بجسمها للوراء، ثم سحبت «الروجتة» تنظر إليها.. قرأت بعض الأدوية، «وان ألفا.. كالسيمات»! مد سيد يده وتناول «الروجتة» منها ليحضر ما بها من الصيدلية، وأخبرها عن وجود السيارة بجوار عيادة الطبيب، وقال ناصحًا: اتصلي بحامد يحضرها. ووصف لها المكان وخرج. وما كاد يخرج سيد حتى انكبت على زوجها تقبله وتضمه إلى صدرها، وراحت الدموع تسح من عينيهما فترة من الزمن دون أن ينبسا بكلمة، ثم خرجت الألفاظ من فمها واهنة: لا تقلق يا حبيبي، لن يحدث ما تخاف منه إن شاء الله، ربنا سيحفظك.. سيحفظك إن شاء الله بعملك الطيب. ثم تابعت: لم تؤذِ أحدًا وتحرص دائمًا على عمل الخير. ثم قالت وقد اعتدلت في جلستها: لن نكتفي بهذا الطبيب، سنذهب لغيره حتى نتأكد. فقال لها وهو يجفف الدموع: إنه الدكتور عبد المجيد زهران يا سحر! أستاذ كبير بجامعة القاهرة! يا سحر أنا مؤمن بقضاء الله وقدره.. ربنا يقدم لنا ما فيه الخير. ثم أمسكت منديلاً من العلبة الصدفية أمامهما ومسحت به على خديه برفق وحنو، ثم

قالت له: دقيقة واحدة أكلم حامد في التليفون. فشدد قبضته على ذراعها وهي تهم بالقيام قائلًا: لا داعي لإخبار أحد بما حدث. ولكنها ردت بهدوء: حامد ليس أي أحد يا عوض! ثم من سيحضر السيارة؟ فقال بغضب: لا.. لا داعي يا سحر. لم تجد سببًا يجعل زوجها يرفض حضور أخيه حامد، كانت مندهشة من داخلها، ولكن الوقت لا يحتمل النقاش في مثل هذا الموضوع، قالت لعوض بابتسامة خفيفة: ليس مثلك يا عوض من يتعدى الأصول.. لا بد من إبلاغهم بحالتك وأيضًا لإعطاء حامد مفتاح السيارة لإحضارها. ثم رفعت سماعة التليفون واتصلت بحامد.

في المساء بعد صلاة العشاء، كان الرسيبشن يعج بالحاضرين، كل الإخوة حضروا، وسيد لم يغادر الفيللا إلا ليتفقد أسرته الصغيرة وعاد، حتى مديحة قطعت إجازتها وعادت راضية، وساد جو من المشاعر المفعمة بالحب الخالص، واستطاعت سحر بما وفرته من جو عائلي حميم أن تعيد إلى زوجها الابتسامة من جديد.

5

قبل أن يخرج عوض وسيد إلى الطبيب كانت مديحة قد خرجت قاصدة زيارة أمها، لم تركب تاكسي هذه المرة، وقررت السير على الأقدام، وكان من الضروري ما دامت ستمشي على قدميها أن تسلك طريق المغربلين مارة بسوق المغربلين بازدحامه الذي لا ينقطع، ثم تمرق عابرة طريق الخيامية بسقفه المكون من مشربيات خشبية غاية في الروعة، وفي نهايته تعبر التقاطع وتلج من بوابة المتولي ذات الارتفاع الشاهق، وقبل أن ينحني الطريق إلى اليمين قليلًا تلقي نظرة بحركة لا إرادية إلى جامع المؤيد الأثري عن يسارها، وتواصل السير في شارع الغورية متسلية بالنظر إلى المحلات على الجانبين، فترى الملابس المعلقة داخل الفاترينات، والأحذية المرصوصة بدقة، وتتردد في أذنيها أغنية «يا رايحين الغورية هاتوا لحبيبي هدية». ووجدت مديحة نفسها تمر فوق الرصيف الآخر المقابل لعربة الفول المدمس، وبالكاد لمحت المعلم فوزي من خلال فرجة في الزحام، ذلك المعلم الذي ذاعت شهرته في الحي كله، ونقلت عينيها بين المتكدسين حوله، هذا يمسك رغيفًا وهذا يقضم رأس بصلة خضراء في تلذذ والمعلم يمسك بيده مغرفة طويلة الذراع صغيرة الكف، وكوعه أعلى من ساعده، وراح يتحرك بالمغرفة في حركات سريعة داخل وخارج القدر.

في النهاية وصلت إلى آخر الغورية لتجد سلم قصر ثقافة الغوري عن

يمينها، واتجهت بعد ذلك يمينًا إلى أن وصلت إلى سوق الخضار.. أخيرًا وصلت إلى منطقتها، فاستهواها أن تشتري بعض الخضار وكيلو من اللحم البتلو، ومرت على بائع الفاكهة حدقت فيه للحظة قبل أن يفطن لها، وتذكرت لعبهما معًا صغيرين في درب الأتراك فشعرت بحنين، كان يكبرها بعامين، ولكنه كجار في المسكن القديم كان يلعب معها هي وغيرها من أولاد الدرب، إلا أنه كان يوليها اهتمامًا خاصًا، فكان يحميها إذا ما حاول أحد إيذاءها، تشاجر من أجلها أكثر من مرة، قالت له بدلال: هات اثنين كيلو خوخ يا عرفة! فنظر إليها مأخوذًا ولم يتحرك، كأنما تسمر في مكانه، فاستغرب المعلم خضر وهو يرى ابنه لا يتحرك، فاستدار ينظر إلى الزبون، فاكتشف وجود مديحة فقال مُرَحِّبا وقد تفاجأ: مديحة بنت المرحوم سعد! كيف حالك يا بنتي؟ فردت بضحكة رقيقة واستحياء أنثوي: الحمد لله.. بخير يا معلم! وسألها مستطردًا: وكيف حال الست سحر؟ ولم ينتظر الإجابة، نظر إلى ابنه الذي ما زال واقفًا يحثه على الإسراع، فتحرك الابن يجهز ما طلبت مديحة مرتبكًا، قد تغيرت كثيرًا وبدت أجمل، كانت طفلة جميلة والآن أنثى رائعة الجمال، ناولها الكيس بيد ترتعش وقد تركزت عيناه في عينيها وتبادلا حديثًا حلوًا لم يسمعه أحد.. حتى المعلم خضر الجالس بينهما.

لم تشعر مديحة بالوقت الذي قطعته من بائع الفاكهة حتى منزلها، ومرت بالشارع الذي سجل ذكريات طفولتها وصباها، ولم تلتفت كما تعودت إلى المحلات المفتوحة على الجانبين، ولم تداعب من تمر به ضاحكة مسترسلة كما

كانت تفعل من قبل. وحين فتحت أختها الباب قفزت شيرين فتعلقت بعنقها وهي تصرخ سعيدة، فمالت مديحة للأمام وهي تقول لها ضاحكة: لم تعودي صغيرة يا شيرين ولم يعد باستطاعتي حملك! والتصقت بها هدى تمسكها من «جيبتها» وكأنها تخشى بُعْدها مرة أخرى. ما شاء الله بقيتِ طولي يا هدى.. قالتها مديحة وهي تميل عليها بقبلة.

سحبت الأم طرف الثوب تحت إبرة الماكينة دفعة واحدة، ثم طوته فوق ماكينة الخياطة وهبت تعانق ابنتها الكبيرة، وساد جو من السعادة والمرح، وعبقت الشقة بالروائح الشهية المنبعثة من المطبخ، وسال اللعاب، واطمأنت الأم على ابنتها وهما يطهوان الطعام، معاملة الست سحر والأستاذ عوض لم تتغير، بل تتغير ولكن للأحسن. كانت السعادة والفرحة تبدو على وجه الأم وهي تسمع من إبنتها هذا الكلام، وتعقب عليها قائلة: أبوك كان رجلًا طيبًا.. إلناس كلها كانت تحبه. ثم ترحَّمت عليه: الله يرحمك يا سعد! كان المرحوم سعد هذا يبيع الخضراوات على عربة «كارو» يسوقها بيديه، وحظي بحب الناس في الدرب كله، بل امتد حب الناس له خارج الدرب حتى وصل إلى سوق الخضار، واستطردت الأم قائلة: وأنا داعية لك يا حبة عيني يا رب يسترك ويحبب فيك خلقه! ولم تنسَ أن تدعو للأستاذ عوض: الله يبارك له. ما زالت ممتنة له بما فعله حين توفي زوجها، لم تنسَ أنه شارك الحاج فتحي في التكفل بمصاريف وفاة زوجها من كفن ومأكل وشيوخ. وبينما هما ينصبان الطبلية ويرصان عليها ما لذ وطاب إذا بصبي صغير

يطرق الباب ويدخل، عرفته مديحة في الحال وتوقعت ما جاء من أجله، فهو صبي الحاج مبروك صاحب ورشة الصَدَف أسفل البيت، جاء ليخبرها أن الحاجة فكرية أم سحر تريدها، ونزلت في التو وذهبت إلى الحاجة فكرية التي قبَّلتها وربَّتت على كتفها وسألت عن حالها، وأخبرتها الحاجة أن سحر اتصلت تريدها، فجلست مديحة وتناولت التليفون واتصلت بالمدام، تأسفت لها مدام سحر وهي تطلبها للعودة للضرورة، فردت عليها قائلة: سأتناول الغداء فقط وسآتي. وأكدت عليها سحر عدم التأخر. فردت حاسمة: إن شاء الله بعد العصر مباشرة سأكون عندك. وعلمت أمها فتضايقت، فهي كانت تود أن تبقى ابنتها معها اليوم بأكمله، ولكن لا أحد يتأخر عن الست سحر، الله يبارك لها ويعوض عليها. وبعد تناول الغداء أعطت مديحة أمها سعدية، الشهيرة بسعدية الخياطة، لفافة من النقود، وأخرى قالت لها إنها من مدام سحر، ثم قبَّلت أمها وأختيها وخرجت مسرعة.

6

بدأت أغصان الأشجار تتعرى من الأوراق، وبدأت أذرع الزبائن تستتر تحت الأكمام الطويلة، والخريف فصل المشاعر الجياشة، بدأ ينثر الشجن في النفوس، ويضفي على الكائنات شاعرية وبهاءً، ووقف عرفة يعبئ ويوزع أكياس الفاكهة ساهمًا حزينًا، يداعبه هذا فيرد على غير عادته بفتور وضحكة مصطنعة، ويمازحه ذاك فيبقى واجمًا لا يرد حتى يفيق على صوته وهو يقول له: ما لك يا عرفة؟! من أخذ عقلك يهنأ به! واستمر عرفة على هذا الحال لا تعرف الابتسامة وجهه حتى فاجأه أبوه المعلم خضر ذات مرة قائلًا: ما الذي يحزنك هكذا يا بني؟ ثم تابع معاتبًا ابنه الوحيد: بالأمس كسرت بخاطر عطيات أختك، واليوم حزين وشارد.. ماذا جرى لك؟! فقاطعه قائلًا باستنكار: أنا؟! فَعَلا صوت الوالد قليلًا وهو يقول: نعم أنت! واستطرد: كانت تريد أن تمكث معنا طوال اليوم! فقاطعه عرفة مرة أخرى بغضب قائلًا: وهل قالت لك إنني طردتها؟! فرد الأب بعصبية: وهل تقدر أن تطردها وأنا موجود على وجه الدنيا؟! فأدرك عرفه خطأه، لم يرفع صوته أمام والده من قبل، ماذا دهاه اليوم فطأطأ رأسه وقال باسمًا: ما عاش من يفعل ذلك يا معلم! ثم أردف: لكن قصدي أنني لم أضايقها وهي التي استأذنت فجأة وذهبت. فقال الوالد وقد هدأ غضبه: يا عرفة يا بني أنت الرجل الوحيد لأخواتك البنات. فقال عرفة معترضًا: أنت الخير والبركة لنا كلنا يا معلم خضر.. وربنا يعطيك

الصحة. فتابع المعلم خضر وكأنه لم يسمع كلمة مما قاله عرفة: لو كشرت في وجه واحدة فستفهم أنك تطردها، لن تنتظر حتى تقولها مباشرة. فقال عرفة بهدوء زائد: هل هي فعلا اشتكت لك؟ ثم أكد: أنا أريد أن أفهم فقط. فأخبره والده أن سهير أخته الكبيرة هي التي أخبرته، لأن عطيات حين تركت البيت لم تذهب إلى بيتها، بل ذهبت إلى سهير أختها التي تقيم على مقربة منها في أول الباطنية من ناحية الأزهر. وهنا أقسم عرفة والدموع تكاد تحجب عينيه عن الرؤية: والله ما قصدت شيئًا من ذلك يا أبي! فقال والده بحسم: أنا واثق من ذلك يا عرفة! لكن طريقتك حتى مع الزبائن تغيرت يا بني.. ليس هذا طبعك يا عرفة. ثم قال برجاء: أخبرني هل من شيء تخفيه عني يا بني؟ فرد عرفة وهو يجفف دموعه: لا شيء.. لا شيء.

الحقيقة أن عرفة لم يقصد قط أن يضايق أخته، ولكن هناك شيئًا ما بداخله جعله يفقد توازنه، وجعل من وجهه، دون أن يفطن، مأوى للعبوس والحزن، ولم يشأ أن يخبر أباه بهذا الشيء، خشية أن يقع في نفس المأزق الذي وقعت فيه عطيات من قبل، فيعاني كما عانت، ويتألم كما تألمت، وأزمع بينه وبين نفسه أن يذهب إليها يطيب خاطرها من جهة ويطلب نصيحتها، والأيام دول. وعقد العزم على أن يبدأ بعتابها أن فكرت مثل هذا التفكير، وكان أحرى بها أن تسأل أخاها عما ألمَّ به، ولو فعلت ذلك ساعتها ما كان ليخفي عنها شيئًا، فهو لم يعد يحتمل من فرط ما ألم به، وأصبح أحوج ما يكون لمن يبثه همومه، وقال لنفسه مستغربًا:

عطيات تفكر هكذا؟! أنا أطردها؟! هي بالذات تعرف كم أحبها! وانتظر حتى انقضى النهار، فاستأذن والده ولم يخبره عن وجهته، وذهب إلى أخته يصالحها، وكان قلبه طوال الطريق يعتصر وجدًا وهيامًا بمن طعنته بنظرة فأصابته في مقتل وراحت غير آسفة عليه. وتعجب من نفسه كيف ينقلب حاله هكذا بين عشية وضحاها، فهي ليست جديدة عليه بل شاركته سنوات الطفولة، فكيف تسلبه نظرة من عينيها الراحة وهو الذي كانت الحياة بالنسبة له لم تتعدَ أن تكون قفشة أو نكتة أو قافية! وتذكر قوله ذات مرة يمازح زميله الذي أقبل على الزواج: الزواج كالبرميل على سطحه طبقة رقيقة من العسل والباقي لا مؤاخذة...، فرد صاحبه يبادله المزاح: من أجل ذلك يسعد المتزوجون قليلاً في بادئ الأمر ثم يجدون المتاعب بعد ذلك حتى النهاية. فرد آخر متسائلاً: لكن لماذا لم أجد أنا أي سعادة لا في الأول ولا في الآخر؟! فقال له عرفة: لأنك فتحت البرميل من الناحية الأخرى! فانفجروا ضاحكين. وكانت تحلو له كما كانت تحلو لزبائنه هذه القفشات أو القافيات أيما حلاوة، وتراقصت في ذهنه بعضها، فتذكر عندما جاءه صابر الحلاق يشتري عنبًا، فلما وزن له العنب قال الحلاق معترضًا: الميزان ناقص يا عرفة! فرد عليه بتلقائية قائلاً: ولا شعرة. فقهقه صابر الحلاق وهو يقول: يا أخي حط حبتين يا بارد! فضحك عوض قائلاً: موس ممكن! فقال الحلاق وهو يهم ماشيًا: فوطتك بالعافية. ورد عرفة: لماذا مشيت والله أنت كنت مزيِّن المنطقة كلها. ثم ضحكوا جميعًا.

ضحك عرفة ونظر حوله لئلا يكون أحد قد رآه وظن أنه مجنون، ثم تـذكر الشاب المرح الذي قال له وهو يشتري التين: نقّي التين واحدة واحـدة لأنــه زيـارة لناس في شارع محمد علي. وكان هـذا الـشارع يـشتهر في ذلـك الوقـت ببيـع الآلات الموسيقية كما أشتهر قديمًا بمساكن الراقصات. فقال عرفة وهو ينظر إليه من أعلـى إلى أسفل: أتاري عودك حلو. فرد الشاب يجاريه: صوتك خـرم طبلـة أذنـي. فـرد عرفة: رق يا صوتي رق! فرد الشاب: هـز طولـك وخلصني! فـرد عرفـة: وسـكي واجعني. فقال الشاب لصاحبه وهو يتناول الكيس من عرفة: ياللا بيرة يا حمدي.

كان عرفة يعرف جيدًا ماذا به وماذا يريد، غير أنه لم يجرؤ علـى النطـق به أمام والده، لأنه كان يتوقع أن آماله ستصطدم بالرفض منه هـو بالـذات، وربمـا أيضًا من أخواته، فعلى الرغم من أن والده كان متوسط الحال فإنه كان يمتلـك قـدرًا كافيًا من الصلف، يجعل من فكرة الارتباط ببنـت تعمـل في منـزل مرفوضـة رفـضًا قطعيًّا، وهو ليس من أقاربها لتشفع له هذه القرابة عند الأهل، وتوجس خيفـة لما ينتظر هذا القلب الذي لم يرفرف إلا لهذه الفتاة، التي جاءت محملة بعبق الطفولة فكانت بمثابة خيوط البرق التي أشعلت سمـاءه ضـياءً، فبـددت الظـلام الـذي كـان ممتدًا حوله بلا نهاية، وهو يؤمن الآن ويسلم أن من النظرات ما هي أشد فتكًـا مـن البارود، وتساءل بينه وبين نفسه إن كانت هي قد أصابها ما أصابه، أم أن المـسدس الذي يصيب الآخرين لا يكتوي بنفس النار التي يحرقهم بها.

ومر قبل أن يصعد الدرج على ورشة النجارة فقابله ممدوح بترحـاب جـم،

وقال يبادر ممدوح: كيف حالك الآن؟ هل ما زالت ذراعك فيها نشْر؟ فرد ممدوح يسايره: لا لم يعد في ذراعي نشر، ولكن دماغي فيها دق شديد! فرد عليه عرفة: أنا جئت اليوم وجسمي بدون شك فيه تنغيز مثل تنغيز المسامير! فرد ممدوح مطوحًا رأسه في دلال قائلا: يا حُبيْبي! فتصايح العمال ضحكًا، فقال عرفة ناظرًا إلى الشباك: مِين شار عليك تفتح شباك هنا؟ فانفجروا ضاحكين مرة أخرى. ثم وقف يحادثه بجدية لساعة ثم استأذنه في عطيات فأذن له وخرج مرتقيًا السلم.

قابلته أخته عطيات بابتسامة عريضة وقابلها باللوم والعتاب، وأراد أن يخفف عن نفسه ما ينوء بحمله وحده وأيضًا ليظهر لأخته ما جعله يعبس حين جاءته تلتمس حضن الأخ الدافئ، فقرر أن يبوح لها بمكنون نفسه وآلام قلبه، وأصر أن يصطحبها معه قائلًا لها: أبوك حزين وغاضب مني لأنك مشيتِ بسببي. فقالت لائمة: لم تأتِ من نفسك إذًا! فقال على الفور: وكيف آتي من نفسي وأنا لم أدرك ما صدر مني؟! فقالت بدلال: لماذا جئت إذًا؟ فقال: قلت لكِ إن والدك أخبرني أنك زعلانة مني، وضايقني ما قاله لأنه كان يجب عليكِ أن تسألي عما بي. وأراد أن ينهي العتاب فسألها بخبث: ألا تريدين أن تزيلي عن والدك الغضب والحزن؟! فابتسمت قائلة: يا لئيم! فبادرها: أنت أقرب الأخوات لي يا عطيات وعندي كلام كثير أريد أن آخذ رأيك فيه. وسألها ثانية بخبث أيضًا: ألا تريدين أن تعرفي سبب ضيقي وعبوسي عندما أتيتِ وذهبتِ غاضبة؟! فقالت له: ليس عندي مانع، ولكن عليك أن تنزل إلى الورشة لتخبر زوجي أولًا. فقال لها باسمًا: مررت

عليه قبل أن آتي إليك وأخذت لك الإذن مسبقًا، حتى إنني لا أريد أن أقول لكِ ما قاله. فابتسمت قائلة: ماذا قال يا فالح؟ فرد بسرعة: قال لي خذها وخليها عندك على طول! وضحك عاليًا، فقالت له وهي ترتب الشقة قبل النزول: يا سوسة، لن تستطيع أن تفسد ما بيني وبين زوجي. لم يعرف لماذا تخيل مديحة مكان عطيات وهي تقول ما قالته بالحرف الواحد! وخرجا معًا مشيًا على الأقدام فالمسافة بين الدراسة والأزهر تسمح لهما بمناقشة موضوع مديحة.

وعلى الجانب الآخر، بدت مديحة متوترة، لم تستقر في مكان، وهي تشعر بالوحدة للمرة الأولى رغم أن الأستاذ عوض وزوجته كثيرًا ما خرجا معًا وتركاها في الفيللا وحدها، نقلت أصبعها فوق أزرار الريموت، لكن كل القنوات بما في ذلك قنوات الأفلام لم تَرُقْها، أغلقت التلفاز ثم ضغطت على زر الكاسيت فانبعثت الموسيقى التي طالما رقصت على نغماتها كلما سنحت لها الفرصة، حاولت الرقص لكنها لم تستطع، يبدو أن شيئًا ما أفقدها شهيتها للأشياء، لاحظت ذلك صباحًا حين وضعت طعام الفطور ولم تتناول منه شيئًا، والآن ها هي لا تستطيع الرقص، شيء آخر شغلها، شيء أعظم من الفطور والرقص، وتقافزت إلى المرآة المثبتة بالباب، قلدت سحر وهي تعدل من هيئتها أمام هذه المرآة قبل خروجها، ثم تباطأت في حركاتها وراحت تدقق النظر، كانت السعادة تغمرها، جمال لا بأس به، وقوام فرنساوي يناسب موضة هذه الأيام، فالمرأة السمينة لم تعد مرغوبة، واستحضرت عين عرفة وهي تلتهمها التهاما، ورأت كيف تصلبت نظرته وهو

ينظر لعينيها، ما أجمل هاتين العينين.. قالتها لنفسها وهي تمسح بطرف أصبعها على رموشها، وقالت ببشاشة: محظوظ الذي ستكونين من نصيبه يا مديحة! سأملأ عليه الدنيا سعادة ومرحًا. وقطبت وهي تتخيل غير عرفة يجلس بجوارها في الكوشة، تخيلته في البداية دميمًا جدًّا وفزعت لهذا التخيل، ثم تخيلته أجمل من عرفة ولم تطرب كثيرًا، ولكنها حين جلس عرفة في الكوشة بجوارها تفجرت سعادةً وسرورًا، تركت المرآة وعادت فاستلقت على كنبة الأنتريه وضمت «تكَّاية» صغيرة إلى حضنها وهي تتذكر عرفة وهو يضرب أحد الأولاد حين ضايقها ثم ربَّت على ظهرها، وانتابتها فرحة غامرة وهي تتخيل نفس الموقف يتكرر الآن وهما كبيران، ثم جنح بها التخيل إلى فكرة مجنونة، تخيلت نفسها وهي تذهب إلى زوجها عرفة لتقف بجواره في محل الفاكهة فيعنفها ويطلب منها الرجوع إلى البيت حتى لا ينظر إليها كل من هب ودب، وترفض فيقذفها بحبة عنب فتقذفه ببرقوقة فيقذفها ببرتقالة فتقذفه بخوخة وتشتد المعركة حتى تأتي على كل الفاكهة، ولم تفق من تخيلها إلا حين حمل بيديه القويتين بطيخة كبيرة ليقذفها بها فهمت جالسة. وتحركت مرة أخرى داخل الرسيبشن ذهابًا وإيابًا، وظلت على هذا الحال حتى سمعت أصواتًا تأتي من وراء الباب، أدركت منها قدوم الست سحر وزوجها، فأسرعت واستقبلتهما ضاحكين سعيدين. ما أبرع هذه المرأة! لديها أشياء أخرى كثيرة لتعطيها لزوجها حين عجزت عن إسعاده بالأولاد، فهي من أخصب النساء حنانًا وإخلاصًا، من قبل استدعت إخوته، رغم مضايقاتهم لها التي لا

تنتهي، استدعتهم من أجل التخفيف من قلقه وحزنه حين علم بحالتـه المرضـية، وها هي الآن قد اصطحبته في زيارة لأخيها ناصر فضربت بذلك عصفورين بحجـر، ساعدت على التواصل بينه وبين من حوله من أقاربها، وأيـضًا أخرجتـه مـن حالـة الضيق التي كادت تسيطر عليه.

7

الكراسي الخشبية التي يحمل بعضها اسم المقهى المجاور - أبو دومة - على مسندها الخلفي، ويحمل بعضها الآخر رسومات فرعونية، وقليل من الكراسي البلاستيكية الزرقاء والبيضاء كانت موزعة داخل الشقة الرطبة على جانبي الصالة والحجرة التي تفتح عليها، وكانت في مجملها شبه شاغرة.

منذ اليوم الأول لم يرَ ذلك الزحام الذي كان يجده في مثل هذه المواقف، قال يحدث نفسه وهو يحرك رأسه في استغراب: إذا كان هذا هو اليوم الأول فما بال اليوم الثاني والثالث. وتذكر يوم ذهب مع أمه في مثل هذا الظرف من قبل عند زميله علي بكر منذ سنوات، كان الزحام ساعتها يعوق التحرك بحرية داخل الشقة، وعند الحاج عبيد جارهم مع أبيه، فما كانت الكراسي لتخلو إلا لتمتلئ من جديد، وظلت كذلك منذ اليوم الأول حتى الثالث، ثم عاد يرضي نفسه الموجوعة: أنا لست صغيرًا الآن ولم أعد في حاجة إلى أن يضمني أحد مثل ما حدث مع علي بكر، كل الجيران حضروا، وبعض الأقارب فماذا أريد بعد ذلك؟!

مر اليوم الثاني والكراسي ما زالت شاغرة، اللهم إلا من بعض الجيران ممن حضروا بالأمس، ومر اليوم الثالث على نفس الوتيرة فقررت أم عامر إنهاء العزاء، فإذا برجل طويل القامة يظهر أمام الباب المفتوح، في بذلة صوفية أضفت

عليه بلونها الكحلي مع رباط العنق النبيذي هيبة ووقارًا، وكان في صحبته امرأة ترتدي عباءة سوداء فاخرة مطرزة عند الأكمام والذيل، ويتدلى على الصدر مصحف ذهبي كبير، تقدم الرجل إلى الست أم عامر الجالسة كالقوقعة في ركن الصالة الأيمن وشد على يدها بحرارة، وفعلت المرأة مثله ثم قبلتها بحنو، وما إن جلس الاثنان في مواجهتها حتى انفجرت باكية رغم أنه كان موجودًا أمس وأول أمس من بعد العصر حتى نهاية العزاء، فهي تعلم قوة العلاقة التي كانت بين هذا الرجل وزوجها، وكانت تقف على الحب والاحترام الذي يحمله كل منهما للآخر رغم الفارق الكبير بينهما، فالأستاذ عوض ذو ثراء واسع وزوجها كان يتعثر في ضيق العيش، لكنها كانت تعلم أيضًا جانب الثراء عند زوجها، ذلك الجانب الذي لم يره إلا قليل من الناس من أمثال الأستاذ عوض، كان ثريًا بثقافته الواسعة، وبعفة نفسه، ونقاء سريرته، وبقناعته، لم ينظر قط إلى ما في يد غيره، حتى صديقه هذا الثري لم يمد يده إليه في أصعب المواقف، فلم يلجأ إليه حين طغى عليها المرض، كان يقول دائمًا: إذا أردتُ الاقتراض فلأقترض ممن هم في مثل حالي. إلا أن المرض الأخير لم يتح له فرصة الاختيار. وبادر الرجل يعتذر عن تأخر مجيئه في هذا اليوم، قال: كنت في زيارة للطبيب اليوم. فقالت على الفور: ألف سلامة لك يا أستاذ عوض، أتعبناك معنا كثيرًا. ثم تابعت وهي تجفف دموعها: أنت لم تترك المرحوم لحظة واحدة في شدته وكلفت نفسك الكثير معنا. ثم أردفت: ما فعلته كثير.. كثير والله يا أستاذ عوض. فرد بملء فيه وبتلقائية: أفضال المرحوم على من

حوله أكثر. وساد الصمت من جديد، فحاول أن يمزقه فتحرك في مكانه وقال وهو ينظر إلى عامر: قرّب مني يا عامر! فاقترب منه عامر مطأطأ الرأس، فوضع الرجل راحته أسفل ذقنه ثم رفع رأسه وهو يقول: ارفع رأسك.. والدك الله يرحمه كان رأسه دائمًا مرفوعًا. ثم راح يحدثه عن الدراسة قائلا: وخليك متفوق على طول الخط حتى تسعد أباك المرحوم في قبره. ثم ضمه إلى صدره ضمة شعر عامر بدفئها، وقبّله من جبهته، أحس عامر بقلبه يتفتح كزهرة، وشعر بحب لهذا الرجل يتغلغل في خلاياه، بالأمس القريب لم يترك أباه لحظة خلال اليومين العصيبين اللذين قضاهما في الرعاية المركزة، والآن لم يتركهم في شدتهم، وقال في نفسه وهو ينظر إلى أمه بعد أن انفلت من حضن الرجل وجلس بجواره: لم يأتِ مثل الآخرين الذين يجلسون يتحدثون مع بعضهم البعض عن أمور حياتهم ولا يأبهون بنا، هؤلاء الذين يتصيدون كلمة من كلمات العزاء التقليدية كل حين، البقاء لله! كلنا لها! شدّي حيلك يا أم عامر! فيلقونها في وجه أمي كما تلقى للجائع كسرة خبز.. وحين تشرع أمي في الرد باهتمام يكونون قد أداروا وجوههم يكملون أحاديثهم الخاصة، كانت عين عامر خلال الثلاثة أيام تتنقل مثل رادار تلتقط حتى الإشارات الدقيقة ويقوم ذهنه الذكي بتحليلها، كانت صدمته كبيرة في هذه الفترة القصيرة، كان يعوّل على كثير من الأقارب الذين أنزلهم من نفسه مكانة كبيرة، ولكنه لم يجدهم حيث أنزلهم، حضروا دقائق معدودات، ثم تعللوا بعلل تافهة وذهبوا، لماذا لم يدرك هؤلاء أن التعلل بأسباب تافهة أسوأ من تركها، آه لو علموا أن بعض

المبررات التافهة توغر الصدر وتكدر النفس، ثم عاد فقال في نفسه: ربما يدركون أثرها في تكدير النفس، ولكنهم لا يكترثون بمن يحدثونه ولا يهمهم إن كانت مبرراتهم تقنعه أم لا، بل ربما يكون مجيئهم نوعًا من استكمال الدور الاجتماعي، فلا يكون عزاؤهم خالصًا لله ولتخفيف أحزان صاحب العزاء، وإنما من أجل من يحيطونهم هم من الناس.

هذا الرجل يختلف، فعل مع أبي ما لم يفعله أحد، وحتى بعد أن مات أبي ها هو يأتي ويفعل ما لم يفعله أحد, حتى الكلمات التي تخرج من بين شفتيه تخرج مفعمة بالمشاعر الصادقة، إن كلمة مما قاله تزن كل ما قيل خلال الثلاثة أيام المنقضية.. بل تزيد. أشعره هذا الرجل بالفخر حين قال عن أبيه المرحوم إنه كان عزيز النفس نقي القلب، انتشله هذا الرجل من الإحباط الذي كاد يصيبه بسبب عدم اهتمام الآخرين، وأشعره بقيمة والده المرحوم، وشعر عامر بدوره بحب يجرفه إلى هذا الرجل الذي عوَّضه عما حدث في الأيام الثلاثة، رغم أنه لا يمت إلى أبيه بصلة قرابة، لم يكن حبه لهذا الرجل بسبب ما لمسه من مساعدة والده في مرضه الأخير، ومساعدته لهم بعد وفاته فحسب، بل أيضًا لما لمسه فيه من قلب رقيق يمتلئ حبًّا ورحمة لكل من حوله.

ذهب الأستاذ عوض، وانفض العزاء، وحضر الأطفال والشباب يلتقطون الكراسي، كل يعرف ما يخصه، كان الحزن يملأ عيني عامر وهم يتسارعون مبتسمين لالتقاط الكراسي كأنهم في سباق، وكانت الأم المسكينة الواهنة تقول لكل

منهم: بلغ أبوك الشكر وقل له كتر خيرك. وأخيرًا وجد عامر نفسه وأمه المتعبة وحدهما في حضن الشقة الرطبة التي ذهب عنها الدفء بموت أبيه. جلست أمه على الأرض وجلس هو على الكنبة، لم يصدق أن والده مات، ربما يزور أحدًا ويعود، ربما في العمل وسيأتي بعد قليل فتهب الأم مجاهدة المرض تستقبله سعيدة، تحمل عنه ما أحضر وتحمل له الملابس النظيفة.. ثم نلتف ثلاثتنا حول الطبلية نتناول الطعام بسعادة، وبعد الطعام سيحكي لنا ما حدث خلال اليوم، وقد يتكئ ليسرد علينا ما قاله له ناظر المدرسة: أصيل يا أبو عامر. تململ عامر في جلسته، الحجرة تبدو حزينة ولو كانت تستطيع البكاء لبكت هي الأخرى، ثم قال يحدث نفسه: كان أبي يجلس هنا، بل هنا، لا بل هنا. آه يا أبي، حين رحت راح الاطمئنان وتسرب الخوف إلى داخلي، أين ذلك الشعور الذي زرعته في عقلي فنما؟! حين جعلتني أشعر رغم الفقر بأنني أفضل من كل زملائي، بل كنت أشعر أنني أكبر منهم سنًّا، كانوا ينهارون إذا لم تتحقق لهم رغباتهم التافهة، كالحصول على بنطال جديد أو قميص موضة أو حقيبة أعجبتهم، كانت الدنيا تسود أمام أعينهم، ويبيتون في حزن، وكنت أرى أن هذه الأشياء تافهة، فهي وسيلة وليست غاية، ولا يجوز أن نهتز لعدم تحققها، بعضهم اتهمني بالبرود، والبعض وصفني بأنني أحاول تقليد الرجال، فكنت أرد عليهم ساخرًا: أولستم رجالًا؟! فيقول الواحد منهم مغتاظًا: بل أرجل من أي أحد! لم يكن يعنيني ما يقولون فأنا أعرف نفسي جيدًا وأعرفهم أيضًا.

نظر عامر إلى أمه الجالسة على الأرض فوجدها شاردة، فعاد يفكر متذكرًا زميليه في المدرسة: عصام وبهجت، ليس له غيرهما من أصدقاء، هما اللذان يحترمانه ويقدرانه، وهو يحبهما، وهم جميعًا مجتهدون، يتطلعون لدخول كليات مرموقة، كان يقول لهما إن تعب سنتين فقط، يقصد الثانوية العامة، يؤدي إلى راحة العمر كله، وها هم حققوا درجات عالية في السنة الأولى من سنتي الثانوية العامة ولم يبقَ إلا هذه السنة، ولكن هل يستطيع أن يواصل الدراسة وأمه المريضة في حاجة لكل قرش من أجل شراء الدواء، ومن أجل لقمة العيش التي باتت عزيزة؟! المعطيات تغيرت يا عامر وحتمًا ستتغير النتائج، أليس هذا من بديهيات المسائل الحسابية؟! نظر إلى أمه مرة أخرى، ما زالت شاردة، ربما يدور في ذهنها ما يدور في ذهنه، يبدو أن ألمها أكبر، فهي ترمقه بين الحين والحين حزينة دامعة.

الحقيقة أن أم عامر كان ذهولها أشد، وحزنها كبير كبر السنين التي أمضتها مع المرحوم، وكبر آمال زوجها تجاه ابنه، كانت تتذكر قوله: هذا الولد سيصبح ذا شأن عظيم. ولم يخيِّبْ عامر ظنه، كان متفوقًا دائما، تُرى هل سيستمر في تفوقه؟ بل هل سيستمر في التعليم أصلًا؟ وظهر الغضب على وجهها فجأة وهي تتخيل عدم استمراره في التعليم، ثم حدثت نفسها بأنها ستفعل المستحيل من أجل إتمام تعليمه، ستعمل في الخياطة، بل في أي عمل، ولكن هل سيتركها داء الكبد على حالها حتى تتم رسالتها؟ نظرت إلى أعلى وقالت: يا رب. ثم عادت لتتخيل

عامر وهو يطلب كتابًا خارجيًّا أو درسًا خصوصيًّا في فرع ما مما يجد صعوبة في فهمه، فيزداد الحزن على وجهها، وتفعل كما فعل عامر؛ تنقل بصرها داخل الحجرة كأنها تتحسس وجود العائل. انتابها شعور أن زوجها لم يمت، ربما سيقوم من فوق «الشلتة» هذه وافقًا فيقول لها: أعمل لك معي شاي يا أم عامر؟ وربما ينادي عامر ويسأله عن المدرسين، الأستاذ أحمد والأستاذ خليفة، سيرد عليه عامر قائلًا: آه يا بابا لو جئت ورأيتني وأنا أجيب عن الأسئلة التي يعجز عنها باقي الطلاب! بل ربما يدخل الآن من الباب فـ...

فجأة سمعا طرقًا على الباب، فنظر كل منهما إلى الآخر، ثم أسرع عامر وفتح الباب. كان يقف بالباب رجل ضخم يرتدي جلبابًا زيتي اللون، ووقفت جانبه سيدة في عباءة وطرحة سوداوين. لم ينتظرا كثيرًا فقد هبَّت أم عامر تستقبلهما مرحبة: خطوة عزيزة يا حاج علي. فرد الرجل: البقية في حياتك يا أم عامر. واتجهت أم عامر للمرأة: شرفتِ يا حاجة بثينة. وردت المرأة: الله يشرف مقدارك ويصبرك يا أم عامر. علامات الحزن كانت بادية على وجه الحاج علي وهو يجلس على الكنبة بجوار زوجته، قال وهو ينظر إلى عامر: البركة في عامر الله يخليه لك ويبارك لك فيه. ثم قال: الدائم هو الله. ردت أم عامر: لا نطلب منه إلا الصبر والستر. وقالت الحاجة بثينة: الله لا ينسى أحدًا، يرزق الطيور في أعشاشها. وطال الجلوس وطال الصمت، وبدأت ترتسم علامات مختلطة من الجد والحرج على وجه الحاج علي وهو يقول: والله يا أم عامر أنا محرج لكن لا مفر من الكلام، فهو في دار

الحق ونحن في دار الباطل.. المرحوم أخذ مني في يوم قرضًا قيمته ألف جنيه.. قال إنه سيردها بعد عام.. كان ذالك أيام مرضك. واتسعت عينا أم عامر وهي تنظر إليه: ألف جنيه؟! يبدو أن الهموم والمصائب لا تأتي فرادى، كما يقولون، فمن أين لها هذا المبلغ الكبير، إنها بالكاد مشغولة باللقيمات التي ستسد بها رمق ابنها، وبثمن الأدوية لمعايشة هذا الداء اللعين، لم تكذِّب الرجل، وهي تكن له كثيرًا من الاحترام، كانت تراه أيام مرضها برفقة زوجها كثيرًا، وهي لا تنسى ما طلبه الطبيب قبل أن يكتب لها العلاج، وهي تعلم أن الأشعة المقطعية التي أجرتها على البطن كلفتهم وحدها خمسمائة جنيه، وتذكرت السرعة التي كان زوجها يحضر بها الأدوية، فلم يشكُ كما كان يفعل من قبل، ولم يسأل ماذا نفعل. لم تشكك في الرجل، ولكن من أين لها هذا المال؟! واستشعرت حنان المرحوم، كيف أنه لم يُرِدْ أن يحملها عبء همِّ الديْن فوق ما تحمل من عبء المرض، لم يذكر لها شيئًا عن هذا الديْن، قالت لنفسها: كان يريدِ أن يسدده يا حبة عيني دون أن يخبرني به، لكن الموت لم يمهله. وانزلقت على خديها دمعتان، وسألت نفسها: ولكن ما العمل الآن؟!

أدرك الحاج علي ما تعانيه المرأة بسبب ما أخبرها به فقال لها: جئت أعزيك يا أم عامر ولم أجئ لطلب الدين، فالميعاد الذي حدده لي المرحوم بعد عام ولم يمر من هذا العام سوى ثلاثة أشهر، وعلى أقل من مهلك. ثم بلع ريقه وقال: أنا أردت إخبارك فقط. فقالت في نفسها: ثلاثة أشهر مرت على الدين والأشعة كانت

من حوالي ثلاثة أشهر.

واستأذن الحاج علي لأن المسافة كبيرة بين السيدة زينب وعين شمس، وودعتهما قائلة: تسلم رجلك يا حاج وتسلم رجلك يا حاجة بثينة نجيء لكما في الأفراح. ورافقهما عامر ثم ودعهما مصافحًا وعاد إلى الحجرة التي ازدادت رطوبتها فوجد أمه وقد ازداد الحزن على قسمات وجهها، فقال لها: تصبحين على خير يا أمي. ودفن وجهه في المخدة التي طواها على رأسه، راح يبكي في حين ظنت أمه أنه نام، فجلست وحدها تجتر الأيام الخالية. الحاج علي ابن عمة زوجها، رجل متوسط الحال، ولم يكن يربطهما سوى زيارات صلة الرحم بسبب بعد المسافة، وكانوا يقومون بهذه الزيارات في المناسبات فقط. كان الاحترام والثقة التي حظي بهما زوجها هي الرابط بينه وبين الأقارب وغير الأقارب، وحدقت تجاه عامر فوجدته ينتفض، قالت في نفسها وهي تنهض مسرعة: يا ضناي! وأحضرت بطانية متآكلة الأطراف وطوتها نصفين ثم لفته بها، كان يقظًا يدرك ما تفعله أمه، ولكن لم يشأ أن يزيد حزنها بحزنه وبكائه.

8

لازم نتصرف يا عوض يا حبيبي.. قالتها مدام سحر بصوت انفعالي منغوم وهي تحرك رأسها كأنها تعزف على آلة موسيقية، ثـم ركـزت عينيهـا في عـيني زوجها، وما إن لمح عوض اللؤلؤتين المنزلقتين على خدي زوجته حتى غَشيتْ عينيه سحابة من الدموع، قال لها: يا سحر أنا مثلك مهتم بأمر هذه الأسرة وحـريص أن لا يحدث لها مكروه. ثم اعتدل قليلًا وقال: الـذي لا تعرفينـه أنـني مـشغول بـأمر عامر وأمه منذ اليوم الأول لوفاة سيد، بل شُغلت بأمرهمـا في أثنـاء مرضـه، يعـني قبل الموت، ولكني كنت آمل في الشفاء وكنت أقول لنفسي هذه وساوس شيطان.

كان شعور سحر تجاه المرحوم سيد شـعورًا مختلطًـا لم تـستطع تحديـده، رأت فيه الأخ القريب لها، ورأت فيه لزوجها الصديق المخلص الـوفي، ولم تـستطع تحديد ما إذا كانت قد أحبته لهذا أم لذاك، ومن جهة أخرى رأت فيه الضُرَّة الـتي شاركتها في زوجها فحظيت منه بمعظم وقته، ولكن ما لا ينكره أحد: حتى إخـوة عوض أنفسهم، أنه كان المحرك الفعال لزوجها في كل خـير، والـصاد لـه عـن كـل شر، ولكن الموت هذا الزائر بلا ميعاد، غير المراعي لوقت وغير المقدر لظروف، هذا الموت جاء حين جاء لسيد فدس في شريانه التاجي جلطة، بقي على أثرها في وحـدة الرعاية المركزة يومين، وفي النهاية لم تُجْدِ معـه الأدويـة الـتي مـلأت أوردتـه ولا الصدمات الكهربية، لم يصدق عوض ما حدث في أول الأمر، قال لنفسه وقد أجهش

بالبكاء: أبمثل هذه البساطة يفقد الإنسان أعز أحبابه وأخلص أصدقائه؟! ووقفت سحر من ورائه تخفف عنه حتى إنها من فرط حزنه خافت عليه من ارتفاع ضغط الدم المصاحب لداء الكلى. أما الآن وبعد أن تأكدت من زوال الخطر عن زوجها من الانفعال بعودة السكينة إليه، أو عودته إلى السكينة، جاء دور الوفاء، فقالت تذكره: لم يدعك الرجل يا عوض في مرضك. دمعت عيناها وهي تنظر إليه تتفحص تعبيراته وتقول: لم تكن لتهتم بنفسك يا عوض وتكتشف مرضك هذا لولا إلحاحه وقلقه عليك! فقال متأثرًا ومستنكرًا: تُعرِّفينني يا سحر بمن كان أعز أصدقائي؟! فقالت في الحال: أعرف أنك تعرفه أكثر مني، ولكن يا عوض ماذا فعلت له بعد موته؟ فقال باستغراب: هل ترين أنني لم أفعل شيئًا له يا سحر؟ فقالت بانفعال وتأثر: إياك أن تعتبر ما قمت بسداده من مصاريف المستشفى عملًا كافيًا تجاه صديق كان يخلص لك دون أن ينتظر منك مقابلًا! وأجهشت بالبكاء وبكى هو الآخر بحرارة وهو يقول: هذا ما تعرفينه عني يا سحر؟! هل أنا قليل الأصل أو منَّان؟! وعلى من؟ سيد الذي لم يُضَر أحد بموته مثلما أضرت أنا؟! ثم تظاهر بالتماسك وقال لها: أنت لا تعرفين شيئًا، لا تعرفين فيما أفكر، يا ليتك تقبلين ما فكرت فيه. فقالت سحر كأنها تتوسل: فيم فكرت يا عوض؟ هيا أخبرني. فقال عوض وقد تمالك قليلًا: أنت تعلمين أن معاش مدرس إعدادي لن يكفي هذه الأسرة من معيشة وأدوية وتعليم لعامر، ولهذا فكرت أن أحضرهما هنا ليعيشا معنا، فأطبقت شفتيها باكية وهي تقول: ما أغباني! ثم دفنت رأسها في صدره منتحبة تسأل: فكرتَ في

إحضارهما ليعيشا معنا يا عوض؟! كم أنت وفيٌّ وكم أنا سيئة الظن! تخيل يا عوض أنني ظننت أنك اكتفيت بالحزن عليهما. ثم رفعت وجهها تقبله وقد ذابت الابتسامة في دموعها التي فاضت على خديها. وقال لها بشغف: إذًا أنت توافقين يا سحر.. أليس كذلك؟! ثم قال وقد اطمأن لصمتها: نعم أنت توافقين. قالها بسعادة.

لم تَرُد سحر وارتفع صوتها ينادي مديحة، فجاءت مشمرة عن ذراعيها، فبادرتها سحر: تعال يا مديحة. وأشارت إلى صينية فضية كبيرة تتوسط طاولة مستطيلة في مستوى الركبتين مصنوعة من الخشب المطعَّم بالصدف قائلة: خذي هذه الصينية، وأحضري كوبين من الليمون. وجعلت تخطط فقالت والسعادة تغمرها: ربنا موسع علينا بالمال والحمد لله ورضينا بما قسمه لنا من عدم إنجاب، فلنملأ حياتنا بعمل خير مثل رعاية هذه الأسرة. كان عوض قد استلقى على ظهره فوق كنبة الأنتريه ينظر إلى النجفة الكبيرة ذات السبع طبقات وقد جلست سحر القرفصاء على الأرض ورأسها بمحاذاة رأسه، ويدها تعبث في شعره الحريري، قالت له مستطردة: الدور الأرضي لا نريد منه سوى الرسيبشن والمطبخ. يمكنهما البقاء فيه. وشرد عوض: هل سحر أحبتهما هي الأخرى إلى هذا الحد أم أنها ما زالت قلقة من عواقب عدم الإنجاب رغم علمها بأنها ليست السبب ولا أنا أيضًا ولكن إرادة الله، وفكر في مبعث قلقها إن صدق هذا الظن وراح يخمن، ربما تكون مضايقات أخته سهام التي لا تنتهي رغم تهديده لها أكثر من مرة، وربما لخوفها من زواجه بأخرى رغم معرفتها برضاه بقضاء الله، وانتابه شعور بالإشفاق على

سحر فأدار رأسه ناحيتها ولصق قبلة على جبهتها.

ورغم أنه هو الذي فكر في إحضار هذه الأسرة لتعيش في كنفه وفي رعايته، فإن ثمة شيئًا جعل سعادته بهذه الفكرة غير كاملة، فعامر ليس صغيرًا، بل شاب في الثانوية العامة، ورغم معرفته به وبأخلاقه الدمثة وثقته العظيمة في زوجته فإن العُرف يقف حائلًا أمام مثل هذا التصرف، فهما لن يمكثا عنده شهرًا أو سنة، بل سيقيمان معه يرعاهما حتى النهاية. لم يشأ عوض أن ينقل شعوره هذا إلى سحر الجالسة بجواره لئلا يخدش حياءها، وحتى لا يبدو في صورة المرتاب، وأفاق على قول سحر: ومديحة أنا واثقة أنها لن تمل من خدمة الجميع.

كانت مديحة ترقبهما من بعيد وعوض مستلقيًا على ظهره وسحر تكاد تحتضن رأسه، لمحتهما من بعد ولم تسمع حديثهما، وتعمدت التأخر في إحضار الليمون حتى لا تقطع عليهما هذه اللحظات التي بدت لها مفعمة بالمشاعر الرقيقة الصادقة، والآن وقد اعتدلا في جلوسهما فقد حضرت ولاحظت آثار الدموع على خديهما، فقالت مازحة وهي تهز الصينية: أحلى ليمون لأحلى زوجين. فقالت سحر فاردة كفها في وجهها وهي تضحك: الله أكبر!

طلبت سحر من مديحة تشغيل التلفاز، لكن مديحة ناولتها الريموت وقالت لها ضاحكة: خذي واختاري القناة أنتِ.. أنا لا أعرف مزاجك الآن. فقال عوض: هاتِ القناة الإخبارية أولًا نعرف ماذا يجري في الدنيا ثم اختاري بعد ذلك ما شئتِ. واعتدل في جلسته منتبهًا وقد أزعجته الأخبار، كانت الصورة واضحة؛

شارون يسير وسط زحام، وصوت المذيع يرن في أذنه: اقتحم شارون المسجد الأقصى تحت حراسة ثلاثة آلاف جندي، وباراك يستخدم العنف لقمع الغضب الفلسطيني. قالت سحر غاضبة تسأل عوض: لماذا يدخل شارون المسجد الأقصى؟! فرد عوض: استفزاز! فقالت سحر: هذا الاسم «شارون» مرتبط في ذهني بالشر، لكن لا أذكر أحداثًا معينة له! فقال لها: تاريخه كله دموي، فقد قام بمجازر من قبل، ولكن هذه المرة لا أعتقد أنها ستمر ببساطة. فقالت باستنكار: وأين السلام الذي يتحدثون عنه؟!

9

خيَّم الصمت على الشقة والوجوم على المتوجهين بعيونهم ناحيــة التلفـاز، واعتصرت قلوب الجميع ألمًا وحزنًا، وبكت النساء بكاءً مرًّا، حتـى الرجـال كـانوا يجاهدون دموعهم متجهمين وعيونهم مصوبة تجاه التلفاز لا تحيـد عنـه يتـابعون الأخبار، فقد مرت أيام وما زالت الانتفاضة مشتعلة تتسع دائرتها وتشتد حميتهـا حتى بلغ الأمر مداه، لم يصدقوا ما رأته أعينهم: أعداد لا حـصر لهـا مـن الجنـود الإسـرائيليين يمـلأون الـشوارع، يقتلـون الأطفـال والرجـال بـلا تمييـز، وشـباب فلسطينيون يحملون قطعًا من الحجارة يقذفونهم بها تعبيرًا عـن احتجـاجهم علـى دخول شارون المسجد الأقصى. وغطت مدام شهيرة وجهها براحتيها تتقي رؤية ما لا تتحمل من الأطفال المضرجين في دمـائهم، يـا للـهول! حتـى عربـات الإسـعاف نفسها تعرَّض لها الجنود بالقذائف، فسقط من سقط وجرح من جرح.

وترك الأطفال فجأة لعـبهم واقتربـوا مـن التلفـاز نـاظرين بدهـشة، وكـان ضجيج طلقات النار وسـارينات الإسـعاف قـد صـنع دويًّـا جـذب انتبـاههم فهبـوا باحثين عن مصدر هذا الضجيج الـذي أزعجهـم، سـأل مـراد والـده وهـو ينظـر إلى التلفاز بعيون متسعة: لماذا يحدث هذا يا أبي؟! فلم يرد محمود لشدة انشغاله بمـا يرى، حتى سهام لم ترد هي الأخرى على ابنها، واندهش مراد مـن أمـه الـتي لم تعره اهتمامًا الآن وهي التي كانت تهب لمجرد إشارة منه، فكم عنفت سُـها الـتي

هي في الصف الثاني الإعدادي من أجله هو قائلة لها: كفي عن الضجيج يا سها.. أخوكِ في شهادة! ولكن سها كانت تسخر قائلة: هي الابتدائية شهادة؟!

لم يرد أحد على الأطفال الذين سألوا: ماذا يحدث ولماذا؟! وتابع مراد التلفاز وهو ينظر إلى أمه باستغراب، لعله يتمكن من العثور على إجابة بنفسه، وقال حامد مغتاظاً: أين السلام ومحادثات السلام؟! أم أن هذا كله وهم وسراب؟! ثم نظر إلى شاكر وهو يقول: يبقى كلام نيكسون حقيقة لما قال في كتابه «السلام الحقيقي» إن السلام الحقيقي لن يحدث إلا في مكانين لا ثالث لهما؛ الأول هو الكتاب والثاني هو القبر. واستطرد حامد يقول: أما هذا السلام الذي ينشده العرب وتلوِّح به إسرائيل من حين لآخر ما هو إلا مخدر مؤقت تعيد خلاله إسرائيل ترتيب أوضاعها لتبدأ عدوانها من جديد.. قتل ونهب وسلب! وأبدى محمود دهشته قائلاً: كيف يسمح رئيس الوزراء لجيشه باستعمال دبابات وأسلحة حروب ضد أفراد عُزَّل ما ثاروا إلا للتعبير عن الغضب لا للإصابة. ثم قال شاكر بتعقل: يبدو أنهم يجرُّون الفلسطينيين لنقطة البداية، والواضح أنهم سيهدمون كل اتفاقات السلام حتى اتفاقات أوسلو التي لم يمر عليها إلا حوالي سبع سنوات، وأما سهام فظلت ذاهلة حين سمعت من زوجها محمود أن أكثر من أربعمائة شهيد ماتوا في بضعة أيام، وضرب حامد كفاً بكف وهو يقول: أين المسلمون؟! أين العرب مما يحدث؟! وقالت مدام ميرفت لزوجها حامد تهدئ من غضبه وتمني نفسها: لا تتعجل يا حامد سيكون لهذا ردة فعل قوية! وانتهت النشرة وأغلق شاكر التلفاز،

وقال مشيرًا إلى الطاولة: الأخبار الحزينة أنستنا ما اجتمعنا من أجله. وأشار إلى طاولة مستديرة، ووقعت عينا سهام على «التورتة» والشمعة الواحدة المرشوقة في مركزها ثم إلى الأطباق المرصوصة حولها، ولم تندهش وهي تقرأ التاريخ البارز على جانب «التورتة» والملون باللون الأحمر. وكانت تعلم السبب في تأجيله مرتين، ففي المرة الأولى وافق اكتشاف مرض أخيهم عوض وذهابهم إليه، وفي المرة الثانية وافق وفاة سيد صديق عوض الحميم. ثم قالت مازحة وهي تتناول هشام من أمه شهيرة تداعبه: ما رأيك يا حبيبي؟! الفروض نؤجل عيد ميلادك هذا اليوم أيضًا! أليست أحداث اليوم محزنة يا ولد يا شرارة؟! وكانت كلمة شرارة دارجة لورودها في تمثيلية منذ فترة، واستمر استعمالها وكانت ترمز للشؤم، فأقبلت شهيرة ضاحكة تلتقط ابنها وهي تقول وقد مالت برأسها تقبل الطفل: ما للجميل هذا وما يصنعه الكبار، حظه أنه جاء في أيام عصيبة، ربما يحلها هو لما يكبر. وهزته في يديها يمينًا ويسارًا وهي تقول: أليس كذلك يا هشام؟ وقال شاكر لحامد متطلعًا إليه باهتمام: قلبي يحدثني أن عوض سيحضر رغم اعتذاره. فقال حامد معترضًا: لن يحضر.. لم يزل متأثرا بموت صديقه. وجاء قول محمود مباغتًا: هل نحن نجلس في صحراء؟! أليس هناك من ساندويتش هامبرجر أو شاورما؟! أو حتى نصف دجاجة مشوية على الفحم؟! فقالت مدام شهيرة مازحة: يبدو أنك جئت على طمع. فقهقهت سهام محذرة: إذا لم تقومي لإحضار ما أمر به أبو مراد فسأذهب بنفسي إلى المطبخ. فهبت شهيرة واقفة تقول: لا.. خليكِ أنت مكانك.. أنا لست

مستغنية عن المطبخ كله. ونظرت إلى محمود تسأله مازحة: ربع عصفورة كفايـة؟! فقال بتلقائية: وأنا أسأل نفسي لماذا ظل شاكر نحيلًا ولم يـزد وزنـه بعـد الـزواج مثلي؟! وغابت شهيرة في المطبخ فدخلت سهام وميرفت إليها واحدة تلـو الأخـرى. وتحدثن في المطبخ عن عوض ورفضه الزواج ثانية، وأيدت زوجة حامد إصرار عوض على عدم الزواج، ولكن سهام كانت شرسة في رأيها فشبهت المرأة بالحذاء، وأنه لا مانع أن يمتلك الرجل حذاءين ما دام يقدر على ذلك. وقالت لها شهيرة إنها تقـول ذلك لأن يدها في الماء، ومن يده في الماء ليس كمن يده في النار. وقالت سهام: لو كنت أنا مكانها لبادرت أنا بتزويجه بأخرى لأحقق له السعادة بالأطفال، حتى لو كانوا من غيري. فقالت ميرفت: أنت لا تقولين الحقيقة يا سهام وتخدعين نفسك، لستِ حيادية لأنك تنظرين إلى أخيك دون النظر إلى الزوجة المسكينة. وبينمـا هـن كـذلك حتى سمعن جرس الباب يرن ثم سمعن صوت الأستاذ عوض. التقت ابتسامة واسعة على وجه شهيرة بدمعتين انزلقتا من عينيها لم تستطع تحديد سببهما إن كان مـن شرائح البصل التي زينت به طبـق الخـضرة مـع شـرائح الطمـاطم والفلفـل الأخـضر والجزر الأصفر، أم من شعورها بنبل هذا الرجل الذي حضر يشاركهم الفرحة رغم ما به من حزن على صاحبه ومن هم المرض. شاكر أخـوه يعرفـه جيـدًا وتـصدق كـل توقعاته فيه، أما هي فكل توقعاتها كانت تخيب، ربما لم يكن لديها تجاهـه قـدر كافٍ من حسن الظن في الأيام الأولى من زواجها بشاكر كانطباع أولـي حـين تعرفـت عليه لأول مرة، ولكن الأيام تثبت لها رجولته وشهامته وإخلاصه يومًا بعـد يـوم،

هذه الصفات التي كادت تنقرض في هذا العصر الملعون وحلت محلها المنفعة والمصالح. لم يترك صديقه المرحوم ولم يبخل في الإنفاق عليه، رغم تذمر أخويه وأخته هذه الواقفة بلا قلب، إن كانت تحبه وتخاف عليه فعلا كما ادعت فلماذا لم تهتم بمرضه؟ بل لم تنزعج كما انزعجت سحر زوجته التي تساويها بحذاء، وهي التي لم ترقَ حتى لدرجة حذاء.

تناول هادي شاكر الهدية من يد «تانت» سحر وجرى بها إلى المطبخ ولم يلتفت إلى أخته الكبيرة هويدا التي وقفت مع زميلتها وابنة عمتها سها حين أشارت له بعينها أن يضعها على الطاولة، ووثب وراءه عماد حامد وهو يتلعثم بكلمات حادة كالصراخ، وأقبلت النساء من المطبخ يضحكن وهن يحملن ألوانًا شهية من الطعام يضعنها على طاولة السفرة، أما الطاولة المستديرة الأخرى فقد نقلت منها «التورتة» إلى الثلاجة لما طلب محمود وزوجته الطعام، وأشرق وجه شاكر وهو يرمق زوجته بطرف عينه مذكرًا إياها بما قال منذ قليل، وأدركت ما انطوت عليه نظرته فابتسمت، ووقفت سحر وقبلت النساء قائلة: مبروك وعُقْبَى لمائة سنة. ثم شعرت بالأرض تدور بها، وكادت تهوي على الأرض من أثر الدوار لولا أن وجدت المقعد أسفلها بالصدفة، فهبطت جالسة. غمزت سهام بعينها ناظرة إلى شهيرة، فلم تُبدِ شهيرة استجابة لها، بل على العكس كانت قلقةً على سحر إذ سألتها برقة: ما لكِ يا حبيبتي؟! أما عوض فقد بان عليه الفزع وواجهته أخته بنظرة خبيثة قائلة: لا تقلق هكذا.. صحتك يا أخي بالدنيا! وتبادلت ميرفت وشهيرة نظرتي

استنكار مما تفعله سهام، لم يُعِر عوض أخته اهتمامًا، وطوق زوجته بذراعه وأحاطها بنظرة ودية، نظرة شدت من أزرها وأشعرتها بقوة وسعادة غامرتين، واستطاعت أن تستعيد توازنها، ولم تسقط في هوة اليأس التي تسحبها إليها سهام باستمرار. تنفست بعمق وقامت تعتذر وهي تقول: آسفة على القلق الذي سببته. ثم أردفت: هيا إلى الطعام قبل أن يبرد.

والحقيقة أن آخر السهرة كان على النقيض من بدايتها؛ نمت روح السعادة والمرح شيئًا فشيئًا حتى غمرت في النهاية الجميع، فراحوا يضحكون ويتبادلون النكات، وبدت للطعام نكهة تفوق ما تذوقوه من نفس الأصناف في بيوتهم، ما أحلى الجماعة واللمة! شرعوا يسرقون الأطباق وقطع الخبز وشرائح الكبدة المقلية من أمام بعضهم، يتظاهر الواحد منهم بالكلام مع جاره على السفرة في حين تتسلل يده لتأخذ ما أمامه فيدركه الآخر في خبث فيقبض على يده وتتعالى الضحكات وتعم السعادة الجميع، حتى الأطفال كانوا يستغرقون في الضحك وهم يشاهدون ما يحدث من الكبار، ثم يجيء دور «التورتة» وتنطفئ الأنوار لتشتعل الضحكات وليتبين الجميع ما حدث من اعتداء خفي على قرص «التورتة» المتهتك من جوانبه وتتطلع العيون إلى الوجوه تستكشف الفاعل فيرتجون طربًا مقهقهين وقد فضح «الكريم شانتيه» حامد ومحمود بما رسمه من خط أبيض أسفل أنفيهما، وكانت ليلة رائعة أخرجت عوض من الجو النفسي الكئيب الذي بقي فيه ابتداءً من اكتشاف مرضه حتى موت صاحبه.

10

الدكان الرطب الصغير ذو الأرضية الهابطة عن مستوى الشارع بنصف متر لا يتعدى عرضه المترين ونصف المتر ويتقدمه صندوق ذو واجهة زجاجية تكشف للواقف أمامه بعض حلوى الأطفال من لبان و«تُوفِي» وبسكويت و«مصاصة»، وفي الداخل عن يمين الحاج علي وقفت ثلاجة مشروبات غازية وبعض الأرفف على الحائطين الجانبيين، وأمام الدكان على اليسار جردل بلاستيكي كبير وقفت بداخله المكانس والمساحات البلاستيكية وأيضًا الفُرَش وبعض الأدوات المنزلية الأخرى.

مرقت الحاجة بثينة للداخل رافعة الرف الخشبي المتصل بالصندوق بثلاث مفصلات، فأزاح الحاج علي الكرسي الآخر ناحية زوجته لتجلس أمامه، الكرسي بلا مسند ولهذا سحبته الحاجة للوراء قليلًا لتتخذ من الحائط مسندًا، قالت للزوج مستعطفة: ماذا قررت في موضوع وداد يا حاج؟ فقال مقطبًا: ربنا يدبرها! ثم لوَّح بيده في الهواء غاضبًا: هي بنتك تتركه نائمًا حتى الظهر ونحن نصرف عليه وعلى أولاده؟! فتقول الأم: والله يا حاج قلت لها تنغص عليه نومته الصبح بغسالة تشغلها أو صريخ الأولاد أو خلاط صوته عالٍ.. أي حاجة تجعله يترك البيت ويروح الشغل. فقال ساخرًا: وهل تظنين أن بنتك تقدر تنغص عليه؟! محروس ينغص على بلد. فقالت بأسى: زوجتها عشان تتَّأخر راحت وجابته هو الآخر!

وقال الحاج متأثرًا: ولد خسارة في يده صنعة عال. وصمت قليلاً ثم عاد فقال: أمثاله عملوا دهب. ثم تساءل بدهشة: هل هو مدرك أن وراءه ثلاثة أولاد في التعليم محتاجين مصاريف؟! فقاطعته الحاجة بثينة: يا حاج ما انت عارف.. إنت نسيت أنه كان عاوز يطلعهم من التعليم ويشغلهم؟! ثم أردفت بحزن: هي بنتك وداد يا عين أمها بختها مال إلا من يوم ما تزوجته؟! وضرب الرجل كفًا بكف وهو يقول: أهله ناس عال وعداهم العيب، عملوا المستحيل معه، لكن الطبع غلاب، ولما يئسوا قالوا لي: يا حاج غلبنا معه ومحرجين منك، كلنا نؤيدك فيما تفعله معه. لم يكن في وسعهم أن يفعلوا شيئًا آخر معه، أعطوا له المال، واستأجروا له محلًا ليفتحه «استورجي موبيليا»، نومه وعدم مبالاته فض الزبائن من حوله، لم يقدر على سداد الإيجار وفقد المحل. وقال الحاج وقد تملك منه الغضب بعض الشيء: لم يبقَ من بنتك غير إنها تمسك اللقمة وتحطها في فمه. ثم اشتد غضبه قائلا: وممكن يطلب منها تحط له «قصرية» على السرير! فكتمت الحاجة بثينة ضحكة قائلة: الله يخيبك يا محروس جعلت الحاج يقول مثل هذا الكلام. ثم قالت: «قصرية» يا حاج على السرير؟! ويضحك الحاج ملء شدقيه وقال معاتبًا: أنت التي فتحتِ هذا الموضوع. ثم قال ضاحكًا وهو يتذكر كلمة «القصرية»: الله يجازيكِ يا وداد أنت والمحروس زوجك. ووجدت الحاجة بثينة انفراجة في الحوار فتسللت منها قائلة: أنا عندي اقتراح يا حاج لو أعجبك يبقى خير ما نعمل. فقال لها: قولي يا أم عثمان وخلصينا. ورفع يده داعيًا: يا رب يكون خير. فقالت: خير إن شاء الله.

وشرعت تشرح له إمكانية استغلال الألف جنيه التي اقترضها المرحوم سيد في شراء ماكينة «تريكو» تشتغل عليها وداد تعيش منها هي وأولادها. وبدأت توضح التفاصيل: فوداد لما تشتري مثلا بمائة جنيه صوف سيكون مكسبها...

الحقيقة أن الحاجة بثينة لم تستطع إكمال حديثها لأن الغضب الذي بدأت علاماته تظهر على وجه الحاج لم تستطع إدراكه في أول الأمر، ولما تمكن هذا الغضب منه انفجر صارخًا في وجهها: يا حاجة حرام عليكِ، ألا يوجد عندك رحمة؟! ظللت تلحين عليَّ في الأول حتى جعلتِني أتصرف تصرفًا غير لائق برجل مثلي.. قلتِ لي عرِّف أم عامر بالديْن الذي أخذه زوجها المرحوم.. غيَّبتِ عقلي وجعلتِني أكلم الست عن هذا الدين في نفس يوم العزاء! ثم ازداد انفعاله فقال: والله ما أنا آخذه منهم أبدًا، حتى وإن جاءت به إلى هنا. ثم لوَّح بيده لأعلى وأسفل بحركة عصبية قائلًا: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. فقالت له تخفف من حدة ثورته: هو أنا قلت لك رُحْ الآن يا رجل؟! وحاولت تغيير الموضوع قبل أن ينفجر غاضبًا مرة أخرى فتكون غضبته أشد ويقول كلامًا ينكد عليهم أكثر من شهر قدام فاستطردت قائلة: المظاهرات تملأ الشوارع اليوم في كل المحافظات، والشباب ثائر في كل مكان. لم يرد عليها الحاج ولم يتقبل محاولتها في تغيير الموضوع، لكن ما أنقذها هو مجيء الأستاذ عصام، فهبت قائمة في طريقها إلى المنزل، وأفسحت المكان للأستاذ عصام الذي فاجأه الحاج بسؤاله: ما حكاية المظاهرات الحاصلة في البلد؟ فرد عصام ضاحكاً: هيَ في البلد فقط يا حاج؟! العالم

كله فيه مظاهرات ضد ما يفعله الإسرائيليون في فلسطين. ورفع يده ونظر إلى الساعة ثم عاد يقول: حتى الرئيس حسني مبارك سحب سفيرنا من إسرائيل. فرد الحاج مستهزئًا: وهل سحب السفير حل؟! المفروض مصر تعمل حاجة. فرد عصام هازًّا رأسه في يأس: خلاص يا حاج مصر قيَّدوها بمعاهدة كامب ديفيد.. لو حاولت تعمل حاجة أمريكا هي التي ستحاربها وليس إسرائيل. فقال الحاج مستنكرًا: هل هذا يعني أن الفلسطينيين يموتون ولا يتحرك أحد؟! فقال عصام: مصر تتدخل سياسيًّا فقط، يعني بالبلدي يا حاج بالكلام فقط. فقال الحاج: لا حول ولا قوة إلا بالله.

11

من سكة الشابوري مرقت السيارة يمينًا إلى شارع راتب باشا، ثم انعطفت يسارًا عند التقاطع مع شارع بورسعيد متجهة إلى ميدان السيدة زينب واستقرت أخيرًا أمام منزل عتيق، كان عوض دائمًا ما يتعجب: كيف تجاوز هذا البيت زلزال 1992 وما زال قائمًا حتى الآن؟!

صادف انفلات مدام سحر والأستاذ عوض من باب السيارة دخول عامر عائدًا إلى المنزل وفي يده كيس تنبعث منه رائحة الخبز الطازج، اتسعت عينا عامر من المفاجأة بمرآهما، واندفع سعيدًا يصافح مدام سحر بحرارة، ثم رمى بنفسه في حضن الأستاذ عوض وانزوى فيه للحظات، ثم رفع رأسه يقبله قبلات ظامئة إلى حنان الأبوة. ووقع ما فعله عامر وقع السحر من قلبيهما.

كان يفيض حيوية ونضارة بعد أن تجاوز المحنة، ما أبهى هذه الطلعة وما أنداها! قالها عوض في نفسه وهو يصعد الدرج إلى شقة المرحوم، وقد سبقه عامر، وكالعادة ركز عوض بصره على الحوائط وسمكها، كان الطراز القديم الذي صُمم عليه البيت يثير الدهشة، فهو أفضل صحيًا من المباني الحديثة التي خضعت مثل باقي الأشياء لطغيان المادة، الأسقف خشبية عالية والشبابيك التي تفوق في ارتفاعها الأبواب الحديثة، والجدران سميكة، كل هذا يجعلها أكثر صحية من المباني الحديثة. وما إن علمت أم عامر بقدومهما حتى نهضت تستقبلهما بحرارة وهي

تقاوم المرض، فأسعفتها سحر مقبلة عليها وضمتها إلى صدرها تربّت على ظهرها وتقبّلها، ثم صافحها عوض وهو ينحني تواضعًا، وسألها عن صحتها باهتمام فقالت متنهدة: نحمده على كل حال. فاستشعر من ردها غموضًا حاول تفسيره بسؤالها: متى كانت زيارتك الأخيرة للطبيب يا أم عامر؟ فقالت بعد صمت لم يدم طويلًا: والله ما رحت لدكتور من قبل وفاة المرحوم بثلاثة شهور. ثم تابعت: مرضي معروف ودواء تليف الكبد معروف، كل الأطباء كانوا يطلبون مني الاستمرار عليه، لكن المشكلة في سعره الذي يزيد يومًا بعد يوم. ورمقها عامر بنظرة محذرة والتقطتها بفهم فاستطردت قائلة: لكن الحمد لله مستورة. وبادرتها سحر قائلة: الحقيقة يا أم عامر أننا جئنا لنأخذكما معنا. فتغير وجه عامر وقال محركًا رأسه في دهشة: تأخذاننا؟! إلى أين؟! فرد عوض بابتسامة: تعيشان معنا. فكررها عامر بتعجب: نعيش معكما؟! وقال عوض مستنكرًا بابتسامة: يبدو أنكما تجهلان منزلتكما عندنا. ثم وجه حديثه لأم عامر: الظاهر أن عامر لم يعرف أن المرحوم وأنا كنا أكثر من أخوين! عرِّفيه يا أم عامر. فردت أم عامر: عامر كبير وعارف إن المرحوم كانت روحه فيك.. لكن يا أستاذ عوض البني آدم ثقيل. ثم أردفت ذاهلة: هو الأخ يطيقه أخوه هذه الأيام؟! واستطردت بأسى: ربنا يعيننا على رد دينك، أنا عرفت أن تكاليف المستشفى كانت كبيرة. لم يقاطعها عوض وانتظر حتى انتهت وقال مقطبًا وقد أغشت الدموع عينيه: أنتِ التي تقولين هذا يا أم عامر؟! لم يكن هذا عشمي. تقولين ديْن وتقولين الأخ لا يطيقه أخوه؟! ما هذا الكلام الغريب يا أم

عامر؟! وتابع وقد انزلقت دمعتان على خديه: كنت أنتظر أن تقولي له إن الود والوفاء والإخلاص أعظم من المال. فقالت أم عامر تعدل من مسار الحديث: من الذي أخبرك يا أستاذ عوض؟! وقال عامر لأمه مطمئنًا: لقد سجلوا اسمي وقالوا قريبًا سنحصل على واحدة. ونظر عوض وسحر كل منهما إلى الآخر غير فاهمين، وسأل عوض مستوضحًا: عم تتحدثان؟ فسألت أم عامر: أليس مجيئكم بسبب القضية؟! فرد عوض: قضية ماذا؟! فقالت: القضية التي حكمت لصالح صاحب البيت وحصوله على أمر إزالة للبيت؟! فقال عوض مندهشًا: أمر إزالة؟! واستطرد قائلا: لا.. لم أعرف بهذا الحكم وليس عندي علم به، اللهم إلا خبرًا قاله لي المرحوم منذ فترة طويلة أن صاحب البيت رفع قضية إزالة، ونسينا هذا الموضوع من ساعتها. فقال عامر يشرح: صاحب البيت رفع قضية من فترة طويلة فعلًا ومنذ ثلاثة أيام حكمت له، ووعدت الحكومة السكان بشقق. شعرت سحر بسعادة فها هو القدر قد تدخل فهيأ لهما الظروف ويسَّر المهمة وكانت قد أوشكت أن تفقد الأمل من كلام أم عامر، لكن سعادتها لم تدم طويلا فقد اصطدمت برفض عامر الذي قال بأدب: أنا والله يا أستاذ عوض أعتبرك مثل أبي يرحمه الله، لكن وجودنا عند حضرتك سيكون غريبًا. ثم قال: بأي صفة سنقيم معك؟! ومن ناحية أخرى ودك لنا بزيارتنا من فترة لأخرى أكرم لنا، وأنا شخصيًا أمقت الإشفاق. فرد عوض معترضًا: لماذا تسميه إشفاقًا؟! هذا ليس من باب الشفقة يا عامر وأنت تعلم ذلك، ولو كان كذلك لكنا ذهبنا إلى مئات آخرين ممن هم في حال أسوأ. وقاطعت سحر زوجها قائلة لعامر:

عوض يحبك يا عامر وحبه لك من حبه لأبيك الله يرحمه. ثم قالت لـه مـستعطفة: بالله عليك لا تحرمه من هذا الحب. ثم قالت لأم عامر: قولي له حاجة يـا أم عـامر من فضلك. فردت أم عامر قائلة: أنتما أفـضل مـن عرفنـا، ونحـن نحمـل لكمـا كـل الحب، لكن كيف نعيش معكما في نفس المكـان؟! سـيكون وجودنـا يـا ست سـحر مدعاة للقيل والقال.

واهتدى عوض للفكرة التي كان قد فكر فيها في وقت سـابق ثـم نـسيها، لم يكن يتوقع الرفض بهذه القوة، يبدو أن الإرث الوحيد الذي تركه المرحـوم سيد لم يكن إلا حزمة من المبـادئ والقـيم وعـزة الـنفس، قـال عـوض موضـحًا لهمـا: أولـًا مجيئكما لن يكون غريبًا، وذلك بعد حكم إزالة البيت، فهذه ضرورة، و«الضرورات تبيح المحظورات»، ثانيًا لن تعيشا معنا في نفس المكان فـالفيللا طابقـان، وسنفـصل لكما في الطابق السفلي منها حجرتين وحمامًا وصالة بمـدخل مـستقل. ثـم نظـر إلى عامر وسأله: ثم ما رأيك يا عامر لو باشرت أنت العمل في المكتبة والمطبعة وأرحْـتَ عمك عوض؟ ألا تريد أن تريح عمك عوض من هذا العمل، وبخاصة بعد أن داهمـني مرض الكلى؟ فقال عامر: ليس عندي أدنى خبرة بهذا العمل، ثم إنني... قاطعـت الأم ابنـها قائلة لعوض: أنت عارف يا أستاذ عـوض أن والـده كـان يتمنـى أن يـتم تـعليمه. فرد عليها: ومن قال إنه سيترك التعليم؟! إن ما سيقوم به هو الإشراف في وقت فراغه فقط. واستطرد: وفي الصيف إن شاء الله بعد امتحـان الثانويـة سيحـصل على دورة تدريبية في الكمبيوتر وفي الإدارة. وقالت سحر تضع الرتـوش الأخـيرة:

لم تعد هناك حجة للرفض. ثم وجهت الحديث لأم عامر: أنت تعرفين أننا حرمنا من الأولاد فلا تحرمينا من شعورنا بأن عامر ابننا.

لم يكن عوض بحاجة إلى موظف كما أخبر، وليس في حاجة إلى ولد يتبناه، وكان من الممكن أن يتبنى طفلًا صغيرًا إذا رغب في ذلك، ولكنه كان يرى أن من الوفاء رعاية أسرة صديقه الذي طالما أخلص له وأحبه.

شعرت سحر بدوار وتكررت النوبة التي حدثت لها عند شاكر ولكنها كانت هذه المرة أشد، فأسرعت إلى دورة المياه يرافقها زوجها المذعور تقاوم الغثيان براحتيها، انتظرت أن ينتهي الغثيان بقيء، ولكنه تلاشى شيئًا فشيئًا، وعادت تشعر بالإعياء، وبقي عامر واقفًا مفزوعًا بشفاه بيضاء ووجه شاحب حتى جلست على الكنبة، ولاحظت سحر قلقه فراحت تطمئنه قائلة: أنا بخير يا عامر.. سأكون بخير إن شاء الله. وقال عامر بتأثر: سأحضر لكِ طبيبًا، لكن عوض أخبره بأنه سيذهب بها إلى طبيب يعرفانه. وقالت أم عامر: لا تسكتي على نفسك يا ست سحر، لا بد أن تذهبي لطبيب. فأكد عوض لها أنه سيفعل.

رأي عوض أن من الحكمة أن يترك عامر وأمه يتدبران الفكرة ثم يعودان إليهما في وقت لاحق، فقام هو وزوجته مستأذنين، وكانت قد استعادت قوتها من جديد، قال عوض لعامر وهو يربِّت على كتفه: لا تشغل بالك بشيء هذه الأيام سوى المذاكرة، وسأعود لكما قريبًا إن شاء الله.

في طريق العودة قررا أن يذهبا لطبيب في المساء. قال عوض لزوجته معلقًا:

تخيلي لو كان هذا العرض الذي عرضناه لناس آخرين، بالطبع لن يترددوا لحظة، ولكن المرحوم لم يجعل المكاسب المادية هي غاية أسرته. وقالت سحر: أنا كنت قد يئست وصرت متأكدة من رجوعنا بلا فائدة لولا هذه الفكرة التي عرضتها. ثم سألته مندهشة: كيف جاءتك هذه الفكرة التي أنقذت الموقف؟! لم تنتظر إجابة وقالت لنفسها: يا لها من فكرة رائعة تريح كل الأطراف.

أما عامر الذي عاد من مرافقة الأستاذ عوض وزوجته حتى السيارة كانت آثار القلق ما زالت بادية على قسماته مما حدث لمدام سحر، ولكنه لم يرَ أثرًا للقلق على وجه أمه فسألها: هل مدام سحر مريضة؟ فأجابته مطمئنة: لعله خير إن شاء الله. لم يجد في رد أمه جوابًا لسؤاله اللهم إلا إذا كانت تقصد وجود مرض بالفعل لا تريد الإفصاح عنه على اعتبار أن كل ما يجيء من عند الله خير. ثم عاد فسألها عن رأيها في عرضهما، فقالت: المشكلة يا بني أننا ليس أمامنا حل آخر، فالبيت لا مفر سيزال، وشقق الحكومة «موت يا حمار». ورد عامر: الغريب أنهما جاءا دون أن يعلما بهذا القرار! فقالت الأم: ناس فيهم الخير. وابتسمت قائلة: أبوك كانت روحه في هذه الأسرة وفي الأول كنت أغار من ذهابه لهما، وبعد ذلك عرفت قيمتهما. وقال عامر بحسم: ليس عندي اعتراض على هذا العرض ما دمت سأعمل، وأردف: لن تكون هناك مشكلة في الحصول على الدواء. وردت الأم بغضب: مذاكرتك الأهم يا عامر.. بها ستحقق لأبيك أمنيته.

12

رأت سحر أن تذهب لعيادة أخصائي الباطنية لقربها، فليس ثمة داع للذهاب إلى استشاري، والدكتور عصمت إضافة إلى ما يتمتع به من سمعة طيبة في تخصصه تمتد من مستشفى أحمد ماهر الذي يعمل به حتى عيادته الخاصة بجوار «أجزاخانة قيسون»، فهو يشتهر بروحه المرحة وخفة ظله. حكت لها جارتها ذات مرة أن زوجها كشف عنده وطلب له تحليلًا، وحين حضر الزوج بنتائج التحليل نظر إليها الدكتور وقال له إن نتائج التحليل طبيعية، ولما رأى السعادة على وجه زوجها عبس وقال له: ليس معنى هذا - التحليل السليم - أنك في مأمن من الموت، فالموت يأتي لأسباب أخرى.

تذكرت سحر ذلك وابتسمت، ثم تذكرت جارتها هذه أيضًا حين أخبرتها أن هذا الطبيب ذهب مع أخيها، وكانت تجمعهما صداقة أيام المرحلة الثانوية، إلى الدكتور فؤاد طبيب التحاليل في معمل المستشفى ليوصيه بأخيها، فمد ذراعيه قائلًا يداعبه: تحاليلي يا بطة. فما كان من الطبيب إلا العبوس، لم يكن مستعدًا للمزاح في هذا الوقت فتراجع الدكتور عصمت للوراء قائلًا وهو يتظاهر بالخوف: تحاليلي يا امه. فانفجر الدكتور فؤاد ضاحكًا، ولم يتمالك نفسه من الضحك وحرك الدكتور عصمت يديه هاتفًا: بالبول بالدم نفديك يا فؤاد. وساد جو من المرح شمل العاملين في المعمل جميعًا.

ذكرت سحر ذلك لزوجها وهما يسيران ذاهبين إلى العيادة، فضحك عوض مقهقهًا ولازمته الابتسامة حتى وصل إلى العيادة. دفع قيمة الكشف ثلاثين جنيهًا وتناول بطاقة عليها رقم 62، فقال معترضًا لمن ناوله البطاقة: لن أنتظر حتى يفحص الطبيب واحدًا وستين مريضًا يا عاطف. وكان قد سمع أحد الجالسين يناديه بهذا الاسم، وقال له هامسًا وهو يمد يده بورقة فئة خمسة جنيهات: لا بد أن تجد لنا حلًّا. فابتسم عاطف وهو يقبض عليها ويقول: ربع ساعة بالضبط. فقال عوض متعجبًا: ربع ساعة؟! واستدار عاطف يحدث نفسه بسعادة: هذه الفكرة أفادتني مثلما أفادت الطبيب، فكوننا نبدأ البطاقات برقم ستين بدلًا من واحد يوهم المرضى بكثرة المترددين على العيادة، ويفسر الناس هذا كدليل على مهارة الطبيب. وصمت هنيهة ثم قال: وهو ماهر فعلا. ثم استطرد: وأيضًا يفيدني بأن الجميع يريد أن يعجل بالدخول فينالني عطاؤهم.

قابلهما الطبيب هاشًّا باشًّا: تفضلا بالجلوس. وبدأ بالسؤال عن عمل الأستاذ عوض فقاطعته سحر قائلة: أنا المريضة وليس هو. فابتسم عوض، لكن الطبيب واصل الحديث إلى عوض قائلًا لها: ربما أجد سبب مرضك عنده فأعالجه هو. فضحك عوض وابتسم الطبيب وبدأت سحر تسرد شكواها، وبعد الكشف أشار عليها بإجراء تحليل بسيط في المعمل المجاور.

انقضت ساعة منذ خروجهما حتى عادا بنتيجة التحليل متهللين لا تسعهما الأرض من السعادة، ولم يصدقا طبيب التحاليل وطلبا منه التأكد، لكنه

كان حاسما ينظر إليهما متفكرًا في المفارقات التي يراها كل يوم، يا الله كم من عيون بكت من هول نتيجة التحليل، وقليلة هي العيون التي بكت من فرط السعادة بنتيجة التحليل كهذه! ! وأدرك طبيب التحاليل ظروفهما فسأل: كم مر على زواجكما؟ فقال عوض: حوالي ثلاثة عشر عامًا. فقال مازحًا: إذًا ليس لي أجر التحليل فحسب، بل لي الحلاوة أيضًا. فقالت له سحر وقد أضمرت في نفسها قرارًا بشراء هدية ثمينة له: الله يبشرك بالخير. وانعقد لسان عوض على قول: الحمد لله.. اللهم لك الحمد والشكر. فراح يكررها ثم استأذن ونزع ورقة من التقويم الموجود أمام الطبيب ليحفظ تاريخ هذه البشرى 2000/10/17م، وهو يقول للطبيب: لا مؤاخذة يا دكتور.

ولم يلتفت عوض إلى خبر اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام الذي كان حديث المنتظرين بالعيادة، قال بعضهم يصف الفلسطينيين: أبطال. وقال آخر: خلِّهم يذوقوا بعض ما زرعوه، فكل يوم يقتلون الأطفال والنساء والعجائز. وقال ثالث: ربنا يسترها، أخشى ألا تمر هذه الأيام بسلام، فرد آخر: وأين الأيام أصلًا التي تمر بسلام؟!

أقبلا على الدكتور عصمت ضاحكين متهللين وحولهما هالة من السعادة، وقال عوض: دكتور عصمت زكريا عبد السلام لن يمحو اسمه من ذاكرتنا إلا الموت. فأدرك نتيجة التحليل وبادرهما: مبروك. ولكن مشروع الحمل هذا لن يتابعه غير الدكتورة صفاء زوجتي. وقال مهددًا: فاهمين؟! كانا يعرفان عيادتها، ولكن لم

يعرفا أنها زوجته، فأكدا أنهما سيتابعان معها إن شاء الله، وقرر عوض في نفسه المتابعة أيضًا مع أستاذ نساء وولادة إضافة إلى متابعة الأخصائية صفاء.

ورجعا مترددين هل يكتمان الخبر حتى يتمه الله على خير، أم يعلنانه فتعم السعادة، والحقيقة أنهما لم يستطيعا كتمانه، فاتصلت سحر بأمها تزف إليها الخبر، ثم اتصل عوض بإخوته وشاع الخبر ولم تتوقف اتصالات المهنئين من الأقارب والجيران، وعرف عوض أن الغد سيشهد هجومًا لا قبل لهم به، سيأتي الأقارب جميعهم مدججين بأولادهم، لا للحرب كالمرة السابقة ولكن للاحتفال بهذا الخبر السعيد، ولهذا رأى أنه من الأحوط أن يتحصن بذبح عظيم، فاتصل بالجزار وأمره أن يجهز له عجلًا متوسطًا في صباح الغد، لا بد أن تكون المائدة كبيرة كبر الفرحة التي هطلت عليهما من السماء، ومديحة لم تطق نفسها من السعادة فراحت ترقص سعيدة أمامهما وهما يضحكان من جرأتها، فقد أخرجتها السعادة عن تحفظها في وجود الأستاذ عوض.

استثمرت مديحة الجو البهيج، وما إن خلت بسحر حتى أفضت إليها بما يعتمل في قلبها من حب عرفة، وأخبرتها أنه لم يتقدم إليها ولم يطلبها حتى الآن، ولكنها تشعر بقلبها يرتجف كلما فكرت فيه، وتشعر أيضًا به وهو ينتفض كمحموم حين يراها، وتعجبت سحر قائلة: هل تحبين هذا الولد الصغير ابن المعلم خضر؟! فقالت مديحة مؤنبة بدلال: لم يعد صغيرًا يا ست سحر، بل رجل ملء هدومه.. رجل قد الدنيا.

وردت سحر ضاحكة: يبدو أننا كبرنا دون أن نـدري! ودعـت لهـا: ربنـا يسهل لك يا مديحة يا بنت سعدية، ويهدي لك المعلـم خـضر. ثـم أضـافت: نحـن نتمنى لك الخير. وتابعت مديحة: أنا لن أسعى للحمل إلا بعد خمس سنوات علـى الأقل، لما نشبع من بعض. فضحكت سحر عاليًا: تقولين هذا الكلام وهـو لم يطلـب يدك بعد؟! كم أنت مضحكة يا مديحة!!

13

بدأ إقبال المهنئين عند الساعة الحادية عشرة، وظلت مديحة مترددة بين الباب والمطبخ حتى كلت قدماها، كانت السعادة لا تدعها تستقر في مكان، قابلت كل الحاضرين بابتسامتها العريضة التي لا تفارق وجهها، وكثيرًا ما كانت تداعب الحاضرين بخفة، وبخاصة كبار السن منهم، قالت لوالدة شهيرة التي حضرت مع ابنتها مهنئة وكانت عجوزًا: عقبى لك! فنظرت إليها العجوز بطرف عينها ضاحكة، وردت شهيرة مقهقهة: إن شاالله أنتِ بعد الزواج. وقالت توشوش أم محمود حماة سهام وهي تستقبلها بابتسامة: عقبال ما نجيء لكِ. لم تقلها واضحة أو مباشرة كما فعلت مع أم شهيرة اتقاءً للسان سهام المسلول دائمًا، ولأن سهام لم تتبين ما قالته مديحة دفعتها من كتفها بغباوة متظاهرة بالمزاح وقالت: وسّعِي يا بنت أنتِ. لم يخفَ على مديحة ما حملته الدفعة من غباوة وقسوة، إلا أنها لا تريد أن تفسد الفرحة على أصحابها، وقابلت الحاجة فكرية بفرحة عارمة وهنأتها قائلة: مبروك لسحر. وضمت الحاجة فكرية مديحة إلى حضنها وقبّلتها، وبدا هذا لافتًا للنظر، فهي الوحيدة التي تقبل مديحة الخادمة. وعمت السعادة وتهلل وجه سحر وهي ترى ناصر أخاها يدخل من الباب تتأبطه زوجته مروة وتسبقهما بسنت وأخوها فتحي.

كانت سحر تجلس هناك على مقعد وثير يواجه الجميع، تسلم على

المهنئين جالسة، وترحب بهذا أو ذاك بإيماءة من رأسها أو يدها، مالت عليها سهام فقبَّلتها وتركتها مفسحة لغيرها، وانتحت جانبًا مع ميرفت وحامد، وبدت شاذة وهي تمط رقبتها إليهما، قالت لهما موشوشة: ربنا يسترها ولا تأتي بعد هذه المدة المملة ببنت.

لم يرد عليها أحد وغيَّر حامد مجرى الحوار فقال: أين عوض؟! فردت سهام: سألت عليه وعرفت أنه عند الجزار. فنهض وهو ينظر هنا وهناك للجميع وقد دبت الحوارات الجانبية والضحكات في المكان، وعم المرح والسرور، وخرج قاصدًا الجزار، وجعلت مديحة تتنقل من مجموعة إلى أخرى تقدم المشروبات والجاتوه، وكانت أختاها هدى وشيرين قد حضرتا مبكرًا كما طلبت منهما الحاجة فكرية.

وعند الجزار كان عوض يجلس على كرسي من سعف النخيل يتابع عملية الذبح، وتقطيع اللحم، وتناول من الجزار الكيس الذي يحتوي على اللفافات الخاصة بالعاملين في المطبعة والمكتبة، وكيسًا آخر به اللفافات التي جعلها لبعض الفقراء من الجيران، ولمح أخاه حامد قادمًا فقام فرحًا متهللًا. قبَّله حامد مباركًا، ثم استأذن عوض طالبًا من حامد البقاء مع الجزار حتى ينتهي من الإعداد ثم يأخذ اللحم إلى البيت لأنه سيمر على المطبعة وبعدها مشوار آخر مهم، وتركه وسار متجهًا إلى السيارة، وشق طريقه في اتجاه مستشفى أحمد ماهر حيث ناول الكيس للأستاذ خيري يوزعه على العاملين، ثم تركهم قاصدًا السيدة زينب. وبعد ما يقرب

من ساعة عاد إلى البيت، وفتح الباب، فتطلعت إليه الوجوه مباركة وهي تنظر إلى من يرافقه. ألقت سهام نظرة إلى أخيها ثم حملقت في الشاب الذي وقف إلى جواره وقالت تحدث ميرفت دون أن تنظر إليها وهي تزم على جانب فمها ساخرة: واحد يروح وواحد يجيء! الأب مات والابن حل محله! وتطلعت ميرفت إلى الشاب بإعجاب قائلة: ما شاء الله.. مثل القمر. ورمتها سهام بنظرة ساخطة وقامت لأخيها متثاقلة صافحته قائلة: ألف مبروك يا حبيبي. ثم نظرت إلى عامر وقالت بخبث: كيف حالك يا ضناي؟ لماذا لم تحضر والدتك معك؟! فرد الشاب ببراءة: الله يسلمك يا «تانت» أمي اعتذرت لأنها مريضة والحركة تتعبها. وصافح عوض الحاضرين يتبعه عامر يفعل مثله على استحياء، وجعل شاكر يرمق عامر بين الحين والآخر، وشهيرة تميل جانبًا لتمسح دمعة غلبتها، وهي تتخيل سيد يقف إلى جوار عوض بدلًا من عامر، والحاجة فكرية تتابع فتحي الصغير وهو يربض أمام عمته سحر في سكون، وناصر يجلس موجهًا حديثه إلى حامد، وكان النقاش حول عدم جدوى الاستثمار في هذه الأيام في مجال العمران، قال إن قانون الإسكان الصادر في 1996 جعل الملاك يطرحون ما أخفوه من شقق لعرضها للإيجار المؤقت لمدة سنة أو اثنتين أو أكثر دون خوف. وقال له مؤكدًا أن الشقة الآن لم تعد تمثل مشكلة عند المقبلين على الزواج كما كان في الماضي، وأيده حامد قائلًا: لا شك أن العرض زاد عن الطلب بالنسبة للشقق، والمشروعات التي تفلح الآن هي المتعلقة بالأكل والشرب.

انضم عوض إلى مجلس ناصر وحامد واشترك في الحوار، وبعد قليل قام حامد مستجيبًا لإشارة من يد ميرفت وهو يهز رأسه مستفهمًا، وانتهزها عوض فرصة لعرض ما أزمع عليه من تجهيز وفصل مكان من حجرتين وصالة وحمام بمدخل خارجي مستقل في الطابق السفلي من الفيللا، فنظر إليه ناصر باستغراب قائلًا: لماذا؟! فأشار عوض بعينه إلى الشاب الجالس أمام شاكر وقال: سيأتي عامر وأمه للإقامة معنا. فرد ناصر مندهشًا: نعم؟! وهل سحر تعرف ذلك؟! فرد عوض قائلًا: بل هي التي شجعتني عليه. وقال ناصر مستفهمًا: وإخوتك؟! فرد عوض بحسم: لا يهمني رأيهم. وقال ناصر ناصحًا: يمكنك مساعدتهم وهم هناك في بيتهم. فرد عوض محاولًا إنهاء الحوار بإقناعه: منزلهم صدر بخصوصه أمر إزالة. قالها عوض للدخول في مناقشة ما يمكن عمله مباشرة، وتمتم ناصر بكلمات كأنما يحدث نفسه: لكن سحر بعد أن حملت قد تغير رأيها. قالها وهو يقوم مع عوض إلى الحجرات يتفحصها عن قرب، ورأى أن الرسيبشن وملحقاته من مطبخ ودورة مياه لن يتغير فيها شيء، والعمل سيكون في الثلاث حجرات ودورة المياه الداخلية الخاصة بها، وقال يسأل عوض: إن قررت ذلك فعلًا فلن يكون التعديل صعبًا.. فقط سنغلق هذا المدخل - وأشار إليه - ليس كما تتوقع بالطوب، بل بباب يأخذ شكل الحائط من الداخل ويأخذ شكل دولاب للتحف من جهة الرسيبشن، ثم نفتح بابًا هناك جهة الخارج يكون مدخلًا لهذه الشقة. وقال معقبًا: الأمر بسيط جدًا، وإذا استقر رأيكم على هذا القرار فاتصل بي. فرد عوض: القرار نهائي ورتب أنت

نفسك.. أنا جاهز. فقال ناصر ينصحه: الجماعة كلهم هناك ينظرون إلينا بفضول.. تعالَ إليهم. كان عامر يقلب بصره بين الوجوه يتفرسها وهي تنظر إلى عوض وناصر وقد خمن ما ينوي الأستاذ عوض عمله، وسأل نفسه: هـل عنـدهم علـم بمـا ينـوي عمله؟ وهل سيوافقون عليه؟ عاد عوض وناصر إلى المجلس فبادرهما شاكر مازحًـا: هل بدأتما تجهزان مكانًا للمولود الجديد من الآن؟! فضحكوا جميعًا إلا عامر الذي أدرك جهلهم بما سيتم.

14

رصَّ عامر الكتب الدراسية في كرتونة متوسطة الحجم، والكتب الثقافية الأخرى التي اشترى بعضها وورث بعضها في كرتونتين كبيرتين، وأحكم إغلاقها باللاصق، ثم وقف أمام صورة والده في البرواز المعلق على الحائط ساهمًا، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يمد يده برفق ويحمل البرواز. طبع قبلة على الصورة ثم وضعها في حقيبة كبيرة مع براويز أخرى، كان أغلبها للأسرة في مناسبات عدة، وجمعت الأم بعض الأواني من أطباق وحلل وملاعق وخلاط وباقي أدوات المطبخ في كراتين أخرى، وأقبل العمال فبدأوا بفك ونقل السرير الذي أصرت الأم على اصطحابه معها، رغم علمها بأن الشقة الجديدة مجهزة. أخبرها بذلك الأستاذ عوض.

تابع العمال نقل الأجهزة الكهربائية من ثلاجة وبوتاجاز ومروحة وتلفاز وغيرها إلى سيارة نصف نقل، وظل الأستاذ عوض واقفًا في الشارع يشرف على ترتيب المنقولات فوق السيارة إلى أن نزل العمال ينفضون أكتافهم ويمسحون وجوههم قائلين: كله تمام يا أستاذ عوض. فأمرهم بالذهاب، ثم التفت إلى صاحب البيت الواقف إلى جواره قائلًا: سأرسل من يأخذ الخشب والمراتب. فرد الحاج درديري، صاحب البيت، بصوته الأجش: النجار موجود إن كنتم ناويين على البيع. فقال له عوض: إذًا أرسل إليه من يحضره. فزعق صاحب البيت مناديًا: يا رضا. فأقبل صبي كان يقف مع الأطفال المحيطين بباب البيت يتفرجون، ثم أمره

قائلًا: اذهب ولا ترجع إلا ومعك الأسطى سعيد الدُكش. فانطلق يجري، وبعد لحظات أقبل الأسطى سعيد يمشي على مهل، فاستحثه الحاج درديري على الإسراع قائلًا: مِد يا سعيد! إنت ماشي على قشر بيض؟! فرد ببرود: خيرًا يا حاج؟ هل هناك طوارئ؟ فأمره مشيرًا إلى البيت: تفرج على محتويات الشقة وقدِّرْها إن كانت تلزمك. فقال على الفور: أنت عارف يا حاج أن المخزن عندي مملوء. فقال الحاج درديري آمرًا: رُحْ الأول وألقِ نظرة ثم تكلم. وارتقى الأسطى سعيد السلم فقابله عامر يتأبط أمه هابطين فانتظر على «البسطة» وصافحهما على عجل، ثم وثب صاعدًا. ألقى نظرة وطرق بيده على الخشب، ثم وقف يشير بأصبعه يعد: حتة.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة. ثم عد المراتب وأخرج مطواة من جيبه وشق إحدى المرتبتين وأخرج القطن وتفحصه ثم فعل ذلك مع الأخرى وعاد هابطًا.

تلقى الأستاذ عوض يد أم عامر الهزيلة ممسكًا، فاستطاعت بفضل هذه اليد وذراع ابنها الذي طوقها من الخلف أن تستعيد توازنها، فوقفت بعد أن كادت تسقط على الأرض، ثم أوصلاها برفق إلى السيارة، وفتح لها عوض الباب الخلفي فجلست وهي تقول: بسم الله الرحمن الرحيم.. ما شاء الله. ومن داخل السيارة ألقت نظرة أخيرة على البيت الذي لم تغادره طوال خمس وعشرين سنة، واجتاح صدرها انفعال شديد فبكت، وتوجه عامر إلى السيارة نصف النقل يتفقدها وقد انتهى العمال من ربط المنقولات فوقها بإحكام.

بادر صاحب البيت الأسطى سعيد وهو يخرج من الباب قائلًا: هه! ماذا

قلت؟ فرد مقطبًا جبينه: المرحوم كان عزيز علينا ومن أجل ذلك سأعطيهم خمسمائة جنيه. فنظر إليه عوض باستنكار وقال على الفور موجهًا كلامه للحاج درديري: سأرسل أنا من يأخذها يا حاج. وهم بالسير. لم يكن يتوقع الحاج درديري هذا الرد فقال متبرمًا: صبرك بالله يا أستاذ. فقال عوض يكلم نفسه: صبرنا! وتولى الرجل بارتباك فقال للأسطى سعيد: يا سعيد خلّصْ.. هات من الآخر.. فيه خشب ومراتب قطن. فقال: ستمائة. ولم يسمع إجابة فقال: سبعمائة. ولم يرد عوض فقال الأسطى حاسمًا: آخري ثمانمائة جنيه، ولا مليم زيادة. فقال عوض له: الله يبارك لك. وطلب من عامر أن يمد يده ويأخذ الفلوس.

في المساء كانت أم عامر ممددة على سريرها الخاص الذي نصبته مكان الآخر، وأمرت العمال فوضعوا عوارض السرير المخلوع وخشب المُلة تحته ليتصرف فيه الأستاذ عوض متى يشاء، وكان عامر يقف أمام مكتبه الخشبي الرائع يرتب الكتب بعد أن أخرجها من الكراتين، ودار في ذهنه شريط الأحداث وهو يرتب الكتب.

بالأمس خرج ذاهبًا إلى الحاج علي من باب الواجب ناويًا إخباره عن عنوان المسكن الجديد الذي سينتقل إليه، وليطمئنه أن الديْن الذي كان على أبيه المرحوم سوف يسدده إن شاء الله، وبعد أن وصل إلى عين شمس وجد مشقة في العثور على الشارع الذي يقطن فيه الحاج علي، وساعده أحد المارة على الاستدلال عليه، فاتجه إلى الدكان مباشرة، لكنه لم يجد الحاج علي، وإنما كان يجلس مكانه عثمان،

فقابله عثمان وعانقه بسرور ثم قال مرحبًا: نـوَّرت عين شمس كلـها. ورد عـامر ضاحكًا: وهل عين الشمس تحتاج من ينيرها؟! بل هي التي تنير مـا حولهـا بمـن فيها. ثم سأل عن الحاج علي فقال له عثمان: الحاج في مشوار وسيعود حالًا. وقـدم له الكرسي المستدير ثم أخرج زجاجة «سفن آب» بـاردة وفتحهـا بطريقـة أحـدثت فرقعة وقدمها له، وراح عثمان يسأله عن الحاجة وصحتها وعن الدراسة وطموحاته المستقبلية. كان يقصد تسليته حتى يحضر الحاج، فهـو يعـرف أن مـن أصـعب مـا يقابل المرء الرقيق الحس هو صمت مضيفه. ولم يمر وقت طويل حتـى أقبـل الحـاج علي بوجهه المشرق بابتسامة عريضة باسطًا يديه لمعانقة عامر، فنهض عامر يلقـي بنفسه في حضن الحاج وهو يشعر بفرحة غامرة من حسن المقابلة. طلب الحاج علـي من عثمان أن يذهب فيخـبر مـن بالبيـت بـأن عـامر ضـيفهم اليـوم، وحـاول عـامر الاعتذار، لكن لا جدوى، فالحاج أخذ قراره، وقال عامر في نفسه وقد ساوره شعور بالخجل: ربما ظن الحاج أنني جئت أرد الديْن. وخفـق قلبـه حـين خطـرت هـذه الفكرة بباله، وداهمه تخيل سانج فتصور أن الحاج سيطرده صارخًا في وجهه حين يكتشف أنه لم يجئ لرد الدين، وتمنى لو كان استطاع إخباره بعجزه عن رد الدين في الوقت الراهن قبل أن يرحب به ويقابله بهـذا الـود الجـم، وسمـع عـامر صوت الحاج يصرخ قائلًا: ما لك يا عامر؟ فيما شردت؟! ولم ينتظر إجابته وعـاد فـسأل: كيف حال الوالدة؟ فرد عامر بصوت خفيض: بخير الحمد لله. فقـال الحـاج علـي: كان الله في العون يا بني. ثم أخـرج محفظتـه ونـزع منهـا أوراقًـا ماليـة وحـاول أن

يدسها في جيب عامر، لكن عامر رفض شاكرًا وقد تولاه ارتباك وخجل أثر في الرجل فسحب يده قائلًا: يا عامر أنا مثل والدك.. ألسنا أقارب؟! فرد عامر يخامره شعور بالعزة والحاج يسحب يده مرجعًا نقوده إلى المحفظة: كثر خيرك يا حاج.. خيرك سابق. وواتته دفعة من الجرأة فاستطرد يقول: يا حاج أنا جئت اليوم لأخبرك بالعنوان الجديد لئلا تأتي إلى البيت القديم فلا تجدنا، أما الألف جنيه... فوجئ عامر براحة يد الحاج الغليظة تسد فمه، لم يدعه يكمل كلامه وقال له: ليس لي دين عندك، وإن احتجت أي مال أو أي شيء فلا تتردد يا عامر واطلبه مني أنا، نحن أقارب يا عامر. ثم سأله بتودد عن المسكن الجديد، وراح عامر يقص عليه كل شيء مفصلًا وهما ذاهبان إلى البيت، ولاقى عامر من الترحيب من أهل البيت ما أثلج صدره، فقد عانقته الحاجة بثينة وهو مطأطئ الرأس خجلًا، ورحبت به زوجة عثمان: شرفت ونورت يا عامر.

ووضع الطعام وصعدت رائحة «الفتة» المحببة إلى خياشيمه فأثارت شهيته، فلم يستطع منع عينه من الحملقة فيها، وأشاح بوجهه فجأة خوفًا من أن يلاحظه أحدهم وهو على هذا الحال، ولكن منظر «الفتة» علق بذاكرته وقد زينتها الصلصة والأبخرة المتصاعدة منها فبلع ريقه، وقبل أن تمتد يد للطعام تفاجأ مثل الجميع بصوت الحاج علي يقول: يا جماعة عامر أعطاني اليوم الألف جنيه، وقلت له يخليها لما ربنا يسهل، لكنه أصر وقال لي الحمد لله ربنا ساترها. ثم قال لعامر: مد يدك بسم الله. وشرعوا ينهشون من تل الفتة بملاعقهم التي تمثلت له في صورة

جرافات أتت على التل حتى أهدلت جوانبه من كل ناحية.

وانتهى عامر من ترتيب الكتب ثم ذهب إلى حجرة أمه يتفقدها فرآها نائمة، فعاد وألقى بنفسه على السرير وغرق في نوم عميق.

15

انتشر خبر انتقال عامر وأمه إلى فيللا عوض للإقامة انتشار الطاعون، وقامت الدنيا ولم تقعد، وانهالت على عوض الاتصالات من كل مكان، قال شاكر حانقًا بإنكار: ما هذا الذي فعلت يا عوض؟! هل نويت أن تفتح الفيللا دارًا للأيتام؟! أم أن فلوسك زادت إلى حد الذهول فقررت فتح فرع لوزارة الشؤون الاجتماعية في منزلك؟! لم يرد عوض وقد أذهلته اللهجة التي تحدث بها أخوه وقال يحدث نفسه: ليس هذا كلامه ولا هذه اللهجة لهجته. واكتفى بأن سأله ببساطة: وهل فعل الخير أصبح غريبًا إلى هذا الحد يا شاكر؟! عامةً أشكرك! ولم يكد يضع السماعة حتى رن الجرس من جديد فرفع السماعة وزلزله صوت حامد حين قال: هذا شاب بالغ كيف ترضى أن يبقى معك في بيتك في أثناء غيابك؟! لم يتصور عوض أن تصل الوقاحة إلى هذه الدرجة، وممن؟ من أخيه الأصغر! فرد بانفعال: الزم حدودك وكفى وقاحة. من له عندي شيء فليطلبه مني. ثم أغلق التليفون في وجهه منهيًا المكالمة. لم يضطرب عوض في حياته مثلما اضطرب لهذه المكالمة، وكبر عليه أن تصدر من أخيه، أخيه الأصغر، فبكى وكاد يفقد الثقة بنفسه، قال متسائلًا: هل ما فعلته يعتبر خطأ جسيمًا إلى هذا الحد؟! أليس من حقي أن أتصرف فيما أملك بحرية؟! إذا كان هذا من حقي فلماذا إذًا يقابله أخوتي بهذا العنف؟!

وبينما هو كذلك إذ دخلت عليه أخته بعد أن فتحت لها مديحة الباب، فنحتها بيدها جانبًا بقسوتها المعهودة، وصافحته باقتضاب وقالت مستنكرة: ما هذا الذي سمعته يا عوض؟! فقال وهو يكظم غيظه مدركًا ما تقصده بسؤالها: وماذا سمعتِ يا سهام؟ فقالت ساخرة بابتسامة صفراء: العائلة التي أحضرتها لتعيش معك في بيتك. فرد حاسمًا: أنا حر. فردت: لكننا إخوتك وأمورك تهمنا.. لن يخاف عليك أحد مثلما نخاف عليك نحن. فقال ساخطًا: لقد بلغتُ سن الرشد على ما أعتقد، ويمكنني التصرف كيف أشاء. فقالت بصوت عالٍ متعمد ظنت أنه يصل إلى الشقة الأخرى: يا عوض يا اخويا أنت عاطفي وهذا الزمن لا تنفع معه العواطف.. أعطه قرشين واتركه يبحث له عن مكان آخر إن كنت تريد عمل الخير كما تقول.. أنت لم تفتح هذا البيت ملجأً للأيتام. وأَوْدَتْ كلماتها بالبقية الباقية من صبره فقال وقد هم واقفاً: الكلام في هذا الموضوع انتهى. فنظرت إليه بغضب ولمعت عيناها وهي تقول: للمرة الثانية يا عوض تطردني من أجل مثل هؤلاء؟! ولم يرد.

خرجت تتمتم ببعض الكلمات وهي تهز رأسها بتحدٍ.. وخلفت وراءها سكونا مفاجئًا، وعاد عوض الذي جاوز الأربعين يفكر فيما ألم به، لماذا يفعل إخوته مثل هذه الردود العنيفة دائمًا كلما اتخذ قرارًا؟! ولماذا يطلقون عليه كلمة عاطفي بمناسبة ومن دون مناسبة؟! هل معنى ذلك أن قراراته كلها غير عقلانية؟! وعلى كلٍ فهو قد تعود منهم ذلك. وتذكر المشاكل القديمة التي كانت سهام من ورائها، نعم سهام هذه المرأة التي لم يردعها رادع عنه حتى الآن، فهو لم ينس

حين لم يبقَ من توزيع الميراث سوى الفيللا، وأرادوا بيعها، فعرض عوض أن يعطيهم نصيبهم من الميراث ويحتفظ بها لنفسه، فشبت نار الغيرة في قلبها وجعلت تثير إخوته عليه فجاءوا يقولون إن الثمن الذي قدّره المهندس لا يعجبهم، وطلب منهم أن يُحضِروا هم مهندسًا آخر، فجاءت سهام بمهندس وطلبت منه أمام حامد وشاكر أن يرفع الثمن وأعطته مبلغًا كبيرًا خارج الحساب، وقالت له إن مهندسًا لا يفهم قدَّر قيمة الفيللا بثمن بخس، وطلبت منه أن يرفعه إلى أقصى ما يستطيع فوافقها، وكان تقديره مفاجئًا للجميع، كان مبالغًا فيه حتى من وجهة نظر حامد وشاكر، وفطن عوض لما دبروه فقال لهم وهو ينظر إليهم بأسى: الآن لست في حاجة إلى هذه الفيللا، فلتجدوا من يشتريها بهذا الثمن وليكن لي نصيبي من الميراث. كان رده بمثابة صفعة قوية نالت من حامد وشاكر على حد سواء أكثر مما نالت من سهام، عرّتْهم جميعا أمام الناس وأمام أنفسهم، ثم اندلعت على أثر ما قاله عوض مشاجرة عنيفة بين سهام والمهندس الذي أحضرته حين طلبت منه رد ما أخذ ففضح ما دبرته أمام الناس كافة، ورفض إعطاءها المبلغ قائلًا إنه التزم بما كلفته إياه ولم يخلف وعده حتى يعيد إليها ما أعطته، وتمنى حامد وشاكر ساعتها لو أن الأرض انشقت وبلعتهما، شعرا بخزي لا مثيل له، وكادت هيبتهما تضيع، فشاكر الموظف القديم والكبير بالبنك الأهلي المصري، الذي يحظى بنظرة تقدير وتوقير ممن يعرفونه، وحامد ضابط الجيش بمركز تدريب الهايكستب، كيف أعماهما الطمع في أخيهما فلم يعترضا على ما اتفقت عليه سهام مع المهندس

أمامهما، وكما حاول آدم من قبل إخفاء عورته بـورق الـشجر حـاولا أن يحفظا مـا تبقى من ماء وجهيهما أمام الناس، ويداريا سوأتيهما فقالا لعوض بـصوت خفـيض مخافة أن تسمعهما سهام إنهما لم يعلما بشيء مما فعلته سهام، وأنها أخبرتـهما فقط أنها ستأتي بمهندس آخر لتقدير ثمن الفيلا، ثم رفعا صوتيهما وهمـا يطلبـان عقد البيع من عوض ووقعا عليه ثم عانقاه مباركيْن لـه أمـام النـاس، وذهبـا دون أن يطلبا الثمن. كانا يثقان فيمـا قـدره المهنـدس الأول، لكـن وسوسـة أختهمـا كانـت كوسوسة إبليس لآدم.

أما سهام فلم تقبل بالثمن حتى تدخل خالهـا محمـد ضـاغطاً عليهـا، ذلـك الخال الذي كانت تسعى سهام لتزويج ابنته هناء بعوض، وكانت صديقتها، ولكن باءت محاولاتها بالفشل ساعتها، فقد رأى عوض أن طبيعتها لا بد أن تكون أقـرب إلى طباع أخته، فالطيور على أشكالها تقع، كما يقولون. ولم تنتـهِ سـهام عنـد هـذا الحد بل تمكنت مرة أخرى من غرس الندم في نفس حامد وشاكر وهي تـذكر لهمـا الثمن الذي قدره المهندس للفـيلا بعـد خمـس سنوات، وكـان قـد بلـغ ضـعف مـا تقاضوه.

وعلى كلٍ لم يصب عوضَ في مقتـل سـوى حامـد، كيـف تجـرأ وأطلـق هـذه الكلمات في وجهه دون حياء، كان يتصور ثورتهم ويعلم أنها ستخمد عمـا قريـب، ولكنه لم يتصور قط أن تخرج هذه الكلمات من فم أخيه. أمسك منـديلاً ورقيًـا وراح يجفف عينيه، ثم ألح عليه الـسؤال: مـا الـذي جـرأ أخـاه الـصغير عليـه إلى هـذا

الحد؟! لماذا لم يتحسس كلماته قبل أن يصيبه بها؟! ثم قال في نفسه إن عامر وأمه لن يعيشا معه في المكان نفسه، بل في الشقة التي اقتطعها من الفيللا، وهي مستقلة استقلالًا تامًا، لها باب آخر في الجهة المقابلة، وصنع لها ناصر ممرًا محاطًا بسورين خلال الحديقة يؤدي إلى بوابة مستقلة في السور الخارجي، ولم يعد رابط بين الشقة والرسيبشن سوى باب واحد واجهته من ناحية الرسيبشن على هيئة دولاب تحف و«أنتيكات» رأى ناصر أن يبقى مغلقًا بالمفتاح لا الطوب حفاظًا على تصميم الفيللا تحسبًا لتغير الأوضاع في المستقبل، وأيده عوض في ذلك.

توجهت سهام مباشرة حين خرجت إلى شقة عامر، ولما فتح لها الباب قالت بقسوة وهو يقابلها مبتسمًا: ابعدوا قرفكم عن عوض.. كفاية بقى.. هو أنتم من بقية عائلته؟! فشعر عامر أن رأسه يكاد ينفجر بعد أن تدفق الدم في عروقه فجأة. ولم يدرِ كيف حملته قدماه إلى الباب الآخر ولا كيف فتحت له مديحة الباب فوجد نفسه في مواجهة عوض الذي ابتسم له رغم آثار الدموع في عينيه، وقال له مُرحبًا وهو يحاول أن يداري انفعالاته: أهلًا يا عامر.. تفضل. وأصاب عامر البكم، وهو يتبين آثار المعركة التي خلفتها سهام على خديه، سأل عوض منزعجًا: ماذا حدث يا عامر؟! خبرني ماذا حدث؟ فقال عامر بهدوء بعد أن هدأت جذوة النار في صدره بمرأى آثار الدموع على وجه عوض: لن أبقى في هذا المكان دقيقة واحدة.. سأبحث عن مكان آخر.. سيصبح وجودنا هنا منغصًا لك باستمرار. فقال عوض مستوضحًا: ماذا حدث لتقول هذا الكلام؟ تردد لفترة ثم قال: مدام سهام. فرد

عوض وقد أدرك ما فعلته أخته التي خرجت لتوها قائلًا: لا تكمل. ثم استطرد قائلًا: أنت لست في بيت سهام.. أنت في بيتي أنا.. وليس لسهام أو غيرها حق التدخل في ما أفعله. ثم قال معاتبًا: وأنت يا عامر تريد أن تجعلها تنجح في التدخل في حياتي؟ لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى.. أنا أردتُ بمجيئك أن تكون أمام عيني باستمرار، هل تحرمني من هذا إرضاء للآخرين يا عامر؟! فبكى عامر ورق قلبه، وهدأت ثورة عوض وغشيت عينيه سحابة من الدموع وهو يضغط على يد عامر بين راحتيه، ثم جاءت مديحة بكوبين من الليمون البارد وعيناها مخضبتان بآثار الدموع، ولسان حالها يقول أكلما أقبل الأستاذ عوض على خير يواجه بحرب شعواء من إخوته؟! يحاولون التدخل في كل شيء، ألم يملوا رغم تصدي عوض لهم في كل مرة؟! حتى عندما جاءت هي - مديحة - بعد زواج سحر بالأستاذ عوض ثاروا مثل هذه الثورة واعترضوا، وقالت سهام بسخرية: إن الزوجة بنت الأكابر لا تريد أن تكلف نفسها بخدمة زوجها ولهذا جاءت بمن يخدمه. وثار عوض عليهم ثورة عارمة، وقاطعهم أكثر من عامين، لعلهم يغيرون من أسلوب تعاملهم معه مستقبلًا، والظاهر أنه لا جدوى من ذلك ما دامت سهام بينهم.

أمسك الأستاذ عوض كوب الليمون وقربه من فم عامر يداعبه ليذهب عنه الحزن، فابتسم عامر وتناول الكوب منه، وبدأ عوض يستعيد هدوءه لولا دخول حامد الذي فتحت له مديحة ذاهلة، وهب عوض قائمًا وهو يرمقه بنظرة قوية تأهبًا لهجوم، لكن حامد اقترب باكيًا وانكب على جبهة أخيه ويديه يقبلها وهو

يقول: سامحني يا عوض أنا أسأت إساءة بالغة.. والله لم أقصدها يا عوض.. يا ليت لساني قد انقطع قبل التفوه بهذا الكلام الخائب. ولأن قلب عوض طيب ربَّت على كتف حامد راضيًا، واستدرك حامد قائلًا: منها لله سهام.. تحدثت إليَّ في التليفون بطريقة جعلت الدم يغلي في عروقي. ثم عاد يقول نادمًا: يا ليتني تريثت حتى أتبين ما أقول. ثم انتبه لوجود عامر فصافحه وسأل عن صحة أمه، واستأذن عامر خارجًا في هدوء.

وجاءت مديحة بكوب آخر من الليمون، قدمته لحامد وهي تقول لنفسها: هي الحرباء سهام التي تثير الضغينة ضده.. المشاكل كلها من تحت رأسها.. لا من شاكر ولا من حامد.

وتمثلت لها في صورة ريتة الشريرة التي طالما رأتها في أفلام الكرتون، ريتة الشريرة التي توظف الآخرين لفعل الشرور، وتمثلتها – ريتة الشريرة – وهي تخرج أشعة زرقاء من عينيها تسلطها على أحد أتباعها قائلة: تضخم أيها الوحش.. فيبدأ الوحش في التضخم رويدًا رويدًا ثم يتحرك لينفذ ما أمرت به من شرور. وأعجبتها هذه التسمية: فعلًا هي ريتة الشريرة.

وقالت مديحة: الحمد لله أن سحر لم تكن موجودة اليوم، فهي لم تكن لتحتمل هذا الجو الكئيب وهي حامل، ومشاعرها رقيقة. وقالت: إن ذهابها في الصباح مع ناصر أخيها الذي حضر فاصطحبها معه جاء لصالحها.

16

الأيام كائنات حية مثل البشر، تحمل في قلبها الحزن أو الفرح، ومنها ما تميل إليها النفس وتأنس إليها، ومنها ما تنفر منها النفس وتتمنى زوالها، وهذه الأيام التي أقبلت منذ الأمس، الثلاثاء، كانت من ذي قبل أحب الأيام إلى قلبه، وكان يطير فرحًا عندما يعلن عن ظهور هلالها، وهل من أحد إلا ويشتاق إلى رمضان.. شهر الخيرات؟! شهر الود والصفاء؟! غير أنه جاء هذه المرة بغير ما تعود أن يجيء به، جاء يحمل الشجن على كفيه، ففاضت بمجيئه الدموع على ضفتي عينيه، وجفت أنهار البهجة والسعادة، وخيم على الشقة صمت حزين، تنهد عامر وقال: ولكن ما ذنب رمضان؟! وتذكر قول الشاعر: «نعيب زماننا والعيب فينا * وما لزماننا عيب سوانا»، فما وأد بهجة هذا الشهر الذي ولد أول أمس إلا الأحداث التي مرت عليه، مات الوالد وغادر عالمه، وغادر هو وأمه الحي وقلباهما معلقان به، فلن ينسى أبدًا رمضان في شارع السد.

كان عامر يحمل همومه الثقيلة في قلبه كما يحمل الحقيبة على صدره وهو يصعد سلم المدرسة، فسمع مدرس الرياضيات يقول للناظر بسعادة: أعلنوا فوز بوش بالأمس. فرد الناظر قائلًا: الحمد لله.. آل جور شكله عدواني وميال بطريقة مفضوحة لإسرائيل.

وتوالت الأيام وانقضى رمضان والعيد، والسعادة لا تعرف طريقها إليه،

وازدادت حدة المرض على عوض، هذا الرجل الذي انتشله من الضياع، حين وجد نفسه وأمه في مهب ريح عاتية لا تعرف الرحمة، وكاد يلقي به صاحب البيت وأمه في الشارع بلا رحمة، لولا أن نزَّل الله عليهما الرحمة من عنده، وجاء هذا الرجل يحملها على كفيه، فنقلهما من الضياع إلى الأمان، ولكن موج المرض العاتي أبَى إلا أن يجرف عوض إلى دوامات لا نهاية لها، وعلم عامر ما ينتظر هذا التعيس الحنون من فشل كلوي بات على الأبواب، والتحاليل التي عرضها عوض على الدكتور عبد المجيد زهران أمامه حين كان يرافقه أنذرت بذلك، فاجتمعت عليه مخالب المرض تنهش جسده، ومخالب الإهمال والقطيعة من شاكر وسهام تنهش روحه بعد المشادة الأخيرة التي كان عامر سببها المباشر، ومما زاد من صعوبة هذه الأيام تلك الأحداث التي أدمت القلوب في فلسطين، وظل يتفكر في الأمر كثيرًا، ويعقد المقارنات أو المفارقات، فصور الأطفال في فلسطين التي رآها في التلفاز رأى نقيضها في التلفاز أيضًا، حيث كان الأطفال في قنوات عربية مختلفة يلهون متمتعين في الحدائق العامة والملاهي في نفس العيد، عيد الفطر الذي يشهد في فلسطين مقتل هؤلاء الأطفال الأبرياء. ومما زاد من حجم الحزن والهموم بقلبه كمًا وكيفًا، تذكره تلك الحادثة التي مر عليها أكثر من عام، لكنها ما زالت حية توجعه من حين إلى حين, فلم يستطع هو حتى الآن, كما لم يستطع العالم بأسره ساعتها تحمل هذا المنظر الذي فطر القلوب في يوم السبت 30 سبتمبر، فهو ما زال يذكر أحداث ذلك اليوم كما لو كانت قد حدثت للتو، الصورة مؤلمة إلى حد لا يطاق، ولا تزال تجثم على مخيلته لا تفارقه، فإذا رأى شابًا ينطلق بسيارة فارهة في الشارع

والموسيقى الصاخبة أو الأغاني الخليعة تنبعث منها شعر بتقزز، وإذا رأى آخر يرتدي الجينز وحبال الزينة المفتولة تتدلى على جانبيه والسلسلة على صدره كاد يتقيأ من القرف، كانت صورة الطفل محمد الدرة وهو يحتمي بجسد أبيه مذعورًا قد أفقدته كل إحساس بالمتعة، ولم يتحمل صورة الأب الذي راح يصرخ رافعًا يده يلتمس من الجنود التوقف ويده الأخرى تحتضن طفله، لكن الإسرائيليين لم يعرفوا الرحمة وصوبوا إليهما وابلًا من الرصاص أودى بالطفل محمد الدرة، وأصابوا أباه بجراح خطيرة، وأمعنوا فقتلوا سائق الإسعاف الذي توجه ناحيتهما. وقال عامر في نفسه: هذا طفل رصدته الكاميرا، فما بالنا بالأطفال الذين لم تصل إليهم الكاميرا؟! كل هذه الأحزان كانت داعيًا لأن يقول لصاحبه عصام، وكان شوال قد انتصف: أشعر أنني ليست لي رغبة هذا العام في المذاكرة. فقال صاحبه بقلق: لا تنسَ يا عامر أن بعد غد أول يناير.. يعني مر وقت طويل من السنة الدراسية ويجب أن تستجمع شجاعتك التي نعرفها عنك لتعوض ما فات.. لا أن تيأس بهذا الشكل! فقال يائسًا: وما الفائدة من كل ذلك؟! موت؟! دمار؟! خراب؟! فقال عصام يذكره: وأبوك الذي عاهدتَ نفسك أن تكون عند حسن ظنه؟! فسحَّت الدموع من عينيه وراح يمسحها وهو يرتقي السلم بعد أن رن جرس نهاية الفسحة.

في المساء ذهب إليه عصام وبهجت، فبهرتهما الشقة الجديدة، وقال بهجت مازحًا: الشقة هذه والمكتب الجميل هذا – وأشار إليهما – يجعلان الغبي يكون الأول على الجمهورية. فابتسم عامر وضحك عصام، وخرجوا جميعًا إلى

مقهى الحلمية، وقد أراد عصام من ذلك أن يُخرِج صديقه من هذا المزاج النفسي الكئيب، وقال لهما في الطريق: هل تعلمان أننا الآن في الشهر الأول من السنة الثانية من الألفية الثالثة؟ كان يقول ذلك ضاغطًا على الكلمات (الأول، الثانية، الثالثة)، فرد بهجت بجدية مصطنعة: عقبال ما نتقابل في الشهر الأول من الألفية الرابعة بعد نجاحنا إن شاء الله! فرد عصام بتلقائية: إن شاء الله. ونظر عن يمينه فوجد عامر يكتم ضحكة، فسأله بتعجب عما جعله يضحك، فرد قائلًا: وهل تنتظر أن تعيش ألف سنة أخرى؟! فقهقه عصام ضاحكًا. ووصلوا إلى المقهى وكان مزدحمًا إلى درجة أنهم لم يجدوا مكانًا يجلسون فيه سوى الرصيف، فطلبوا كراسي، فجاء بها الصبي نشيطًا يتأرجح دلالًا، ثم وضعها وسحب طاولة نحاسية صغيرة ووضعها بينهم، وقالوا له: ثلاثة شاي. فأدبر الصبي بنفس النشاط وقذف بثلاث «ماركات» على الرخامة أمام ظاظا، فتناولها ووضعها في الطبق ثم صب له الشاي فاستدار عائدًا، جعل الثلاثة يقلّبون أبصارهم بين الجالسين، كانت حوارات ساخنة تدور على مقربة منهم، قال رجل يرتدي قميصًا صوفيًا مقلمًا ذا كُمين كاملين: كلها أيام ويتولى جورج بوش مهامه كرئيس. فرد الآخر: كلهم مثل بعض يا أستاذ عنتر. فرد عنتر محركًا يده في الهواء اعتراضًا: لا.. ليسوا مثل بعض، على الأقل بوش سيكمل ما بدأه أبوه؛ سيمارس ضغوطًا على إسرائيل حتى تقبل بالسلام. فرد الآخر: الغريب أن آل جور خسر رغم أن حملته الدعائية كانت كلها منحازة لإسرائيل. ثم أردف: وأنت عارف اللوبي الصهيوني وأثره في أمريكا. فقال عنتر

وهو يثني إصبعه ثم يفرده بقوة كالنبلة ملقيًا بعقب السيجارة بعيدًا في الشارع: هذا غريب، لكن أنا عندي إحساس أن بوش سيكون أفضل بالنسبة للسلام مع إسرائيل. فرد الآخر: على رأي المثل «بكرة نقعد على الحيطة ونسمع الزيطة». وعلى الجانب الآخر كان يجلس شاب ممسكًا بفنجان القهوة بين إبهامه وسبابته وراح يحركه حركة دائرية مموجة ثم احتسى آخر رشفة فيه متلذذًا بالتفل الذي أثاره بتلك الحركات وقال: المصور ولد معلم.. لقطات متتالية دقيقة تقطِّع القلب. فرد الشاب الأصلع هازًّا رأسه بفخر: قناة فرنسية يا بابا. فقال الأول: هذا أجدر أن يصدق يا خالد، ولن تستطيعوا تكذيب الصورة. وقال الثاني ماسحًا رأسه بمنديل: من أجل هذا إسرائيل مثلت دور البريء وفتحت تحقيقًا مع وجود مئات من أمثال محمد الدرة. وضحك الأول بعد أن قلب الفنجان في الطبق، كمن يقرأ الفنجان، وقال: ما لك تحك صلعتك هكذا يا خالد باهتمام؟! إياك تكون فاكرها صلعة المعلم قُرني. ونهضا يضحكان، فأقبل الصبي في الحال يحاسبهما ومد يده في جيب المريلة على صدره ليعطي خالد باقي الحساب، وقال يمزح: إلا صلعة المعلم قُرني صاحب المقهى ليس لها مثيل. قالها ونظر بطرف عينه إلى المعلم خشية أن يكون قد سمعه، فقال خالد وقد هم ماشيًا موجهًا كلامه لسامي زميله وهما يضحكان: يبدو أن المعلم قرني يريهم النجوم في عز الظهر.

كان بهجت يرقب الجالسين من حوله ماطًا رقبته للأمام وعصام وعامر يرقبانه ضاحكين، ثم يستدير ناحيتهما فجأة مقلدًا هذا أو معقبًا على قول ذاك

بفكاهة يضحكون لها من قلوبهم. ونظروا إلى التلفاز المعلق داخل المقهى، سمعوا محللاً سياسيًا يستنكر سكوت العرب والمسلمين فقال: هل سقطت آخر ورقة توت من الجامعة العربية؟! فقال عصام متسائلاً: ولماذا شجرة توت بالذات؟ فرد عليه بهجت قائلاً بثقة: يا غبي يقصد أن الجامعة العربية أصبحت كشجرة توت بلا أوراق، أي ليس لها فائدة. قالها ثم عاد بظهره للوراء وصعر خده شاعرًا بالفخر، فقال له عصام متحديًا: يا فالح لماذا شجرة توت بالذات؟ كان عامر ينظر إليهما واضعًا يده على فمه كاتماً ضحكة على وشك الانفجار، وقال: يا جماعة هل نسيتم ماذا فعل آدم عندما كشف الله عورته؟ وانتظر قليلاً، لكن لم يجبه أحد، فاستطرد قائلاً: راح يستر نفسه بورق التوت. والمقصود هو أن الجامعة العربية أصبحت مكشوفة العورة، فهي لم تفعل شيئًا.. حتى إنها لم تستطع فعل ما يسترها أمام الجميع. وضحك عصام وهو يلكز بهجت في ذقنه قائلا: فهمت يا فيلسوف؟!

واهتز الجميع طربًا على نغمات شعبان عبد الرحيم، هذا الوجه الجديد وهو يردد أغنية: «بحب عمرو موسى وبكره إسرائيل». وعادوا إلى بيوتهم ضاحكين، وودع عامر صاحبيه شاكرًا، وحين وصل إلى الشقة انكب على الكتب يلتهمها التهامًا.

17

منذ أن علمت عطيات بحكاية عرفة وعقلها لم يكف عن التفكير، وشعرت كأن دوامة هوائية قد هبت فأثارت من جديد ما ظنت أنه ركد تحت سطح الماضي بلا رجوع، واستعادت لذة الكفاح التي خاضتها من أجل الفوز بمن أحبت.. كم واجهت من معارضات!! عارضها الوالد، وعارضتها الوالدة، رحمهما الله، حتى أخواتها سهير وتفيدة ونيفين لم يشفقن على قلبها اللهفان، ولم يقف حينئذ بجانبها سوى عرفة، غير أن كلمته لم تكن مسموعة إذ ذاك لصغر سنه، ولكنها لن تنسى ما بذله من أجلها، فقد استعاض عن صغر سنه بعقله الواسع وإدراكه السليم، فراح يجمع المعلومات التي ترجح كفة ممدوح مستعينًا بمهارات صاحبه صابر الحلاق ومعارفه من أمثال عادل حلاق الدراسة وغيرهما، فاستطاع أن يعرف استقامته ومحافظته على صلاة الجماعة، ناهيك من ورشة النجارة التي آلت إليه بعد وفاة والده ويسر حال إخوته المتعلمين بعد سفرهم للخليج، وفي الوقت نفسه استطاع أن يقف على مساوئ أنور ابن المعلم سعيد الشِنْف في سوق الخضار، من تعاطي الحشيش ولعب القمار، وأوصل كل هذه المعلومات إلى عمهم الأستاذ منصور وخالهم الحاج رمضان، وبيَّن لهما أن والده يحسن الظن في أنور بصورة عمياء لأنه ابن المعلم سعيد الشنف من ناحية - وهما يعرفان أنه من أعز أصحابه - ومن ناحية أخرى أنه لم يرَ أنور إلا في الجلباب الصوفي النظيف واللاسة البيضاء، وكان يقول

كلما حاول عرفة أن يوضح لـه أخـلاق أنـور: مـن نعرفـه أحـسن ممـن لا نعرفـه!
ونجحت خطة عرفة، وها هي الآن مستورة وسعيدة في حياتها مع ممدوح، والحمد لله أن تم زواجها به هو، وإلا لكانت الآن زوجة بلا زوج بعد أن شج أنور بطن شاب بالمطواة التي لا تفارق جيبه ودخل السجن.

قلَّب عرفة عليها المواجع والملذات في آن واحد، فكم ارتوت من حب وحنان ممدوح في تلك الأيام، بل ما زال حتى الآن يتغنى بتمسك عطيات به، وبما فعلته من أجل حبهما، ولا يجد مناسبة إلا وقال فيها إنه لو وضع عطيات على رأسه من فوق طوال عمره لا يكون قد أوفاها حقها.

وفاتحت عطيات أختها سهير في الموضوع، والغريب أن سهير لم تنطق، ولم تقاطعها وهي تحكي وتبالغ في الثناء على مديحة، وبعد أن أنهت حكايتها ضحكت سهير وهي تضرب كفًا بكف قائلة: ساعة تشتكين منه وساعة تتوسطين له بحنو! ثم قالت وهي تهز رأسها وتمصمص شفتيها: عَجَب! وحدقت عطيات في وجهها تقرأه، لكنها لم تستبين علامات رفض أو قبول، فعادت وسألتها بوضوح: ما رأيك؟ وجاء رد سهير هلاميًا، قالت: البنت معقولة وأهلها غلابة، لكن أنا لا أعرف أخلاقها. فقالت عطيات: لكن لم نسمع عنهم سوءًا.. وأنت تعرفين أن رائحة المرأة في منطقتنا إن ساءت تفوح ويشمها الجميع. فقالت سهير تتملص: المشكلة ليست في أو فيكِ كما تعلمين، المشكلة في رضا أبيكِ، وأنتِ عارفة أنه سيكون له تعليقات خاصة، لكنها طلبت منها أن تنتظر حتى تعرض الأمر

عليه، ولا تعشم أخاها بشيء حتى ترد عليها، فوافقتها عطيات، لكنها حلفتها بأولادها أن تبذل ما تستطيع من أجل إقناعه، وبينت لها كيف أن أخاها لا ينام الليل، وأن وجهه بقي مثل الليمونة، فسألتها عنه: فقالت لها إنه تعَرَّف على صاحب في الحلمية اسمه ثروت يسهر معه كثيرًا، فابتسمت سهير بخبث وقالت: الظاهر إن الهوى هو الذي رماه على هذا الصاحب في الحلمية الجديدة! فردت عطيات بضحكة مائعة رنت في الصالة: قال إنه تعرف عليه في سوق العبور، رغم أنني لم أسأله كيف تعرف عليه. ثم سألتها سهير: وهل أخبر نيفين؟ فردت بالنفي وقالت: إنه خاف من وصول الخبر لأبيه، لأن نيفين خفيفة كما تعلمين. وعادت سهير تقول بجدية: لعلمك.. أمها عزيزة عليَّ، غير أني لا أعرف فعلًا أخلاق هذه البنت. فقالت عطيات بتأكيد: لكنك تعرفين سحر وأهلها. فردت: أحسن ناس طبعًا ولا أحد يستطيع أن يقول غير ذلك.

وشعرت عطيات بالرضا، ربما تستطيع أن ترد بعض ما قدمه عرفة لها في يوم ضن فيه الجميع، حتى سهير هذه، كانت حادة وصارمة، قالت مثلما قال أبوها: من نعرفه خير ممن لا نعرفه.

ونهضت عطيات قائمة، لكن تامر كان قد دخل من باب الشقة وأقبل نحوها قائلًا: أهلًا خالتي عطا! ثم صافحها وهو يمسك بيديها، وفجأة دفعها للخلف فلم تتمالك ووقعت جالسة على كرسي الأنتريه وهي تضحك وتقول: ألن تنسى هذه الحركات الصغيرة يا تامر؟! وقالت هازئة: هل هذه تصرفات رجل؟! ثم قالت

متداركة: فعلًا أنا أخطأت ومعك حق.. أليس اسمك تامر؟! وهل يوجد رجل اسمه تامر؟! وفرقعت الضحكة من حنجرة تامر وتراجعت عطيات متظاهرة بالخوف، وبالغت فمسحت وجهها بأصابعها كأنما قد أصابها رذاذ من أثر ضحكته.

كان تامر في سن خاله عرفة أو أقل قليلًا، بينما احتلت أمه سهير منزلة الأم بالنسبة لإخوتها، فهم يقصدونها في عيد الأم لا في بيتها ولكن في بيت والدهم المعلم خضر. قالت عطيات لسهير وقد تخلصت من تامر وضجيجه بذهابه إلى الحمام: كان نفسي تكون تفيدة موجودة لتذهب معنا إن حصل نصيب عند عروسة عرفة. فقالت سهير: سافرت يا حبة عيني عقب زواجها إلى الإمارات ولم نكد نفرح بها. واستطردت: والله وحشتني تفيدة جدًّا يا عطيات. وبعد قليل خرج تامر، الذي لا يعرف مجلسه السكون، من الحمام واستطاع أن يلتقط اسم خالته تفيدة من الحوار الدائر بين أمه وخالته عطيات فقال مازحًا: افتكروا لنا النبي! فقالت أمه رادعة: ولد يا تامر! فقال: وهل تعرف خالتي تفيدة شيئًا سوى الشخط والزعيق. ثم راح يقلدها بنبرات صوت أنثوية: غور يا تامر بعيد.. منظرك يفزعني يا تامر يا ليتك تعفيني من رؤيته. ثم قلد حوارًا دار بينه وبينها: فيه مشوار سأرسلك إليه يا تامر وتأخر هناك على راحتك يا حبيبي أنا لست متعجلة. ويقلد نفسه: إلى أين يا خالتي؟ ثم يعود فيقلد ردها وهو يثني رقبته بطريقة أنثوية: النار يا حبيبي! لم تتمالك عطيات نفسها من الضحك وهي تقول: إياك تقلدني أنا! فرد بجدية: لا أستطيع تقليد الرجال! فقذفته بـ«التكَّاية» وهو يقفز هاربًا منها.

ثم عاد فحكى ما رآه عند عودته من وسط الباطنية، حين سأله بائع حشيش يقف بالميدان قائلًا: حشيش يا بيه؟ فرد قائلًا: وأنا راجع. ولمح أحدهم بعد أن باع لزبون قرش حشيش وهو يحك بنطاله بالطباشير دون أن يدري، وتعجب تامر من ذلك، ولم يجد تفسيرًا إلا باعتبارها شقاوة كبار، وسار الرجل أمامه والخط الأبيض ظاهر على مؤخرة البنطال الأسود، وفي آخر الشارع تفاجأ تامر برجل يرتدي ملابس عادية يمسك بصاحب البنطال الأسود ويفتشه ويقوده متلبسًا إلى قسم الشرطة، وسأل الواقفين فأخبروه أنه مخبر وأن بائع الحشيش من وقت لآخر يمد الشرطة ببعض من الزبائن العشوائيين لقمة سائغة وكبشًا للفداء لعمل محاضر ضدهم فيظهر الشرطي في صورة اليقظ الذي يتمكن من ضبط المخالفين بالقضايا التي يقدمها، ويحافظ تاجر المخدرات على زبائنه الدائمين فلا يتعرض لهم شرطي. وكان المقابل هدايا ثمينة يغدقها هؤلاء التجار على العاملين في قسم الشرطة في المناسبات المختلفة.

18

الشمس مشرقة، تخترق أشعتها مسام الجلد، فتسري فيه محدثة إحساسًا ممتعًا يتغلب على الإحساس بالبرودة، وحامد ينفخ في قبضتيه الواحدة تلو الأخرى ثم يفرك راحتيه ببعضهما قبل أن يخرج المفتاح ويدسه في الكالون، ثم فتح البـاب. كانت ميرفت تجلس في الصالة تحتسي «حلبة حصا بالحليب»، اعتادت على تناولها طوال فترة الشتاء، وبادرها حامد قائلًا: هذا المشروب يشعرني بالبرودة القارسة ونحن الآن في مارس فلماذا تشربينه؟! فابتسمت قائلة: وهل هناك رابط بين هذا المشروب وشهور بعينها؟! ثم أردفت: أحب أن أشربه متى كان الجو باردًا أيًا كان في يناير أو مارس.. واليوم بارد كما ترى. ثم قالت له: شاكر اتصل بك ويريدك أن تتصل به فور مجيئك. فهشَّ وجهه وقال: لعله رق قلبه بعد كلامي له هو وسهام أمس. فقالت له: غدًا العيد وخصامهم طال ولا يصح أن يستمر أكثر من ذلك. فقال لها: فعلًا يا ميرفت بعد أن فكرت في كلامك المرة الماضية وذهبت إلى عوض وصالحته شعرت بالراحة.. وكما قلتِ لي قلتُ لشاكر وسهام.. قلت إن مرض عوض قد يجعله عصبيًا بعض الشيء في ردِّ فعلِهِ، وهل من السهل عليه أن يعرف أنه سيصاب بفشل كلوي لا محالة ثم يكون هادئًا؟! وأضاف: ثم إنه لم يتدخل في حياة أحد منا فلماذا نتدخل نحن في حياته؟! ولماذا ننصِّب أنفسنا أوصياء عليه؟! ثم أردف حامد قائلًا لزوجته إن حديثه إليهما كان كالبذرة التي ألقاها في أرض كل

منهما وليس عليه إلا أن ينتظر إنباتها، وعلّق قائلًا إنه يضمن أرض شاكر فقد استشعر بالأمس لينه، أما أرض سهام فهي كالصحراء تحتاج إلى وقت أطول من التسميد والمتابعة. فقالت زوجته وقد رنت ضحكتها في الصالة: ستنبت إن شاء الله ولكنني أتوقع أنها ستنبت شوكًا وحنظلًا! فقال حامد مفخمًا صوته بطريقة كوميدية: أعوذ بالله يا شيخة! فال الله ولا فالك. وتذكر شيئًا فقال باهتمام: تخيلي أنها ما زالت مستاءة من وجود عامر وأمه هناك؟! وقالت: يا مربّي في غير ولدك يا زارع في غير أرضك! وعندها سوء ظن كبير بعامر! قالت أيضًا: إنه بمجرد أن يشم نفسه سيرفس من مد يده إليه. وقالت: إن غدًا لناظره قريب. فردت ميرفت: الولد لأهله.. وأبوه كان مخلصًا حتى مات. ثم أردفت: على فكرة لا تنسَ أن تمر على أم عامر تعيّد عليها، وسترى كم سَيَسعد عوض بذلك. فوقف ساهمًا هنيهة ينظر إليها بطرف عينه ثم قال: أنتِ أستاذة! وقام يتصل بأخيه ودارت محادثة قصيرة ومحددة قال: ألو. وجاء الرد مباشرًا: كيف حالك يا حامد؟ رد: الحمد لله. فقال شاكر: أين ستصلي العيد؟ رد: كالعادة. فقال: إذًا سنتقابل هناك وسنمر بعد الصلاة على عوض. فرد: وسهام؟! قال: قالت إنها ستذهب إليه مع محمود بعد الظهر. وانتهت المكالمة. ثم استدار إلى ميرفت وقال: سأذهب من دون سيارة لأنني لن أجد شبرًا أركن فيه السيارة في ميدان السيدة. وسألته: ولكن كيف ستعود؟! فقال: شاكر يوصلني. فردت باستنكار: شاكر أقرب لعوض منا فهل يأتي من عند عوض إلى شارع القصر العيني ثم يعود ثانية إلى لاظوغلي؟! فرد محركا يده بلا مبالاة: يا

شيخة مشوار بسيط.

وقبل شروق الشمس كان حامد يقطع شارع المبتديان مارًا بمستشفى المنيرة، وقلبه مفعم بالروحانيات حتى بدا كأنه في صلاة، وكأن قدميه لا تحملانه بل يسبح في الفضاء، عيناه تذرفان الدموع ولسانه يردد مع الصوت الآتي من هناك.. من مسجد السيدة زينب: الله أكبرُ الله أكبرُ الله أكبرْ.. لا إله إلا الله.. الله أكبرُ الله أكبرُ الله أكبرْ.. ولله الحمدْ.. الله أكبر كبيرا.. والحمد لله كثيرا.. وسبحان الله بكرة وأصيلا... ولما وصل المسجد جعل يردد مع الجماعة بصوت أعلى حتى حان وقت الصلاة، فصلى مع المصلين ركعتين، الأولى بسبع تكبيرات، ثم استمع للخطبة وذهب فوجد شاكر ينتظره كما اعتاد في نفس المكان، عانقه مهنئًا: كل سنة وأنت طيب. فرد وفمه يكاد يلامس أذنه: أعاده الله عليك وعلى المسلمين جميعًا بالخير والبركات. ما أجملها من لحظات، كل المصلين يتصافحون مهنئين بعضهم البعض بحلول العيد، سواء كانت تربطهم معرفة مسبقة أو لا. وسار شاكر يرافقه حامد على مهل تجاه السيارة، وما إن رأى حامد السيارة حتى زم شفتيه وقال: هذا ما كنت أخشاه. كانت السيارة محبوسة بين ثلاث سيارات والرصيف، وقفا ينتظران على الرصيف فلمحا على غير توقع أخاهما عوض قادمًا ناحيتهما، وقد أسرع الخطى عندما اقترب، واندفع يعانق شاكر ويقول: جئت أصلي هذا العام هنا من أجلك ولم أذهب إلى جامع قيسون. فاغرورقت عيونهم بالدموع، وقال حامد وهو يعانقه: أخوك شاكر اتفق معي منذ أمس أن نخرج من الصلاة إليك مباشرة، حتى

إنني جئت بلا سيارة. فقال بود: بل سأذهب إلى أولاده أولًا، فقد اشتقت إليهم كثيرًا.

وأذابت حرارة اللقاء آثار الخصام، ومحتها زياراتهم المتبادلة في هذا اليوم المبارك بما حمله من مودة وصفاء، ومما جعل عوض يطير فرحًا دخول حامد وشاكر شقة عامر مهنئين بحلول العيد، ومما أثر في نفسيهما انتفاض الأم المريضة مرحبة وهي تقاوم المرض، كانت تلهث قائلة لعامر في لهفة: قرب الفاكهة لعميك يا عامر. ووقع كلامها ولهفتها من قلبيهما موقع السحر، شعرا بعطف جارف تجاهها وبمسؤولية أبوية تجاه هذا اليتيم، حتى إن شاكر ترقرقت في عينيه الدموع وهو يتخيل هذه الأسرة المسكينة إذا لم يحتضنها عوض تحت جناحيه. وتعجب من نفسه كيف لم يلتفت إلى أسرة المرحوم أحمد التي تسكن الشقة في الدور الأول من عمارته؟! رغم سماعه عن قسوة حياتهم لدرجة أنهم أصبحوا يتقبلون الزكاة، وأزمع في قرارة نفسه أن لا يذهب إلى شقته قبل أن يمر عليهم يودهم، ثم نظر إلى أم عامر التي غمرتها الفرحة بزيارتهما حتى إنها لم تستقر في مكان خشية أن تقصر في خدمتهما، لقد أزالت هذه الزيارة الغشاوة عن عيني شاكر وخرج منها رابحًا يدعو لعامر بالتوفيق والبركة، أما حامد فأول ما لفت نظره تلك السعادة التي رآها ترتسم على قسمات أخيه عوض لما عرف رغبتهما في زيارة هذه الأسرة، وعلق قائلا والفرحة تتقافز في عينيه: أنا بدأتُ بهما. وقال حامد في نفسه متذكرًا قول زوجته: طول عمرك أستاذة يا ميرفت. وكان قدوم سهام ختام سعادته، فقد أقبلت

بعد الظهر مع زوجها محمود ووقفت على الباب ناظرة إلى عوض وهي تقول بابتسامة: أَدخل أم ستطردني؟! فقام متهللًا يقول: بل ستدخلين هنا. وفتح ذراعيه يستقبلها، ثم أقبلت سحر فرحبت بها وجلست تتجاذب معها أطراف الحديث، قالت لها: شاكر وحامد حضرا اليوم. قالت ذلك بسعادة وعقبت قائلة: ربنا يديم المعروف. فردت سهام قائلة: إخوة يا سحر والظفر لا يطلع من اللحم. وقالت سحر تستطرد: حتى إنهما ذهبا إلى أم عامر وعيَّدا عليها. فابتسمت سهام ابتسامة صفراء وسألت: صحيح شاكر راح هناك؟! فقالت سحر: وحامد معه. فزمت شفتيها في غرابة ولم تعقب. وجاءت مديحة بالكعك المنقوش و«البيتيفور» والترمس، ثم استأذنت خارجة لتكمل أول أيام العيد عند أهلها في درب الأتراك تراودها رغبة ملحة في أن تقابل عرفة حتى تكتمل الفرحة.

19

مرت أيام العيد كالحلم الجميل، بل كالواحة الخضراء استراحت فيها الأنفس من وعثاء السفر في صحراء الحياة القاسية. واستظلت فيها الروح بأشجار الصفاء الوارفة، فاستطاع عوض أن يستكمل رحلته قادرًا على حمل ما عليه من واجبات، وأقبل الربيع موفيًا بوعده، فتزينت له الأرض بثوبها الأخضر وأريجها الفواح، واستقبلته القلوب بالانشراح والسعادة، ووقف عوض بسيارته أمام الشقة الملحقة بالفيللا، ضغط زر الباب فبرز له عامر يرتدي «ترييننج» كحلي اللون، ثم حمل من شنطة السيارة أكياس الأرز والمكرونة والسكر وعلب الجبن والسمن والعسل وغيرها مما اعتاد عوض إحضاره قرب نهاية كل شهر، وسأل عامر إن كان يذاكر الآن فردَّ بالنفي قائلا إنه يستريح الآن من المذاكرة، فقال له عوض: إذًا انتظرني سأركن السيارة وآتي لنذهب معًا إلى مقهى الحلمية. كانت المرة الأولى التي يطلب منه مثل هذا الطلب، ولم يشغل عامر تفكيره بالسبب من وراء ذلك، فارتدى ملابسه بسرعة وعاد ينتظر حتى جاء عوض، وسارا جنبًا إلى جنب، وسأله عوض في أثناء السير قائلًا: كيف حالك مع مدرس الرياضيات؟ فرد عامر بثقة: حضرتك زرت المدرسة وسألت عني وأكيد عرفت مستواي. فقال عوض: أقصد المدرس الخصوصي.. الأستاذ محمد مهدي. فقال بارتياح: أستاذ ممتاز.. لم يقتصر على المواعيد التي أتفق معه عليها، بل كثيرًا ما يعطيني حصصًا إضافية. فقال عوض

برضا: والإنجليزي.. ماذا عن الأستاذ يوسف؟ فقال عامر بابتسامة عريضة: يبدو أن المدرسين كلهم هنا وفي المدرسة يعملون لحضرتك ألف حساب. فضحك عوض عاليًا وقال: ولماذا؟ هل أنا وزير التربية والتعليم ولا أدري؟! فابتسم عامر، ولما بدا المقهى على مرمى بصريهما استطاع عامر أن يتبين سامي وخالد يجلسان في مكانهما السابق فتواصلت ابتسامته السابقة بابتسامة أخرى أوسع منها، وسأله عوض عن سر ابتسامته فقال له: كنت هنا من فترة وكان هذان الشابان موجودين، وكان معي صاحبي بهجت وكان له تعليقات مضحكة على صلعة خالد هذا. فقال له عوض ضاحكًا: وهل رأيت صلعة المعلم قرني؟ ثم قال كأنه يحدث نفسه: صلعة عجيبة.. ليس له سوى شريط من الشعر في الأسفل كأنه يحدد نهاية الرأس! فانفجر عامر مقهقهًا.

وقفا أمام المقهى حيث أرادا الجلوس، فأسرع الصبي وسحب لهما كرسيين وطاولة، وتذكر عوض نفسه وهو في سن عامر، كان يأتي إلى المقهى نفسه وفي ذات البقعة التي يقفان عليها الآن، وكان يعجبه منظر البواكي الممتدة فوق الرصيف بطول شارع القلعة حتى باب الخلق وامتدادًا في شارع محمد علي حتى ميدان العتبة، ثم انتهاءً بشارع كلوت بيك حتى ميدان رمسيس، تلك البواكي التي ميزت الواجهة لهذه الشوارع من الجانبين، وانتبه عوض إلى الحوار الساخن الذي دار بين الشابين، قال سامي وهو يحمل الطبق الصغير بيسراه ويقبض بيمناه على يد الفنجان بلطف: يا ابني الشعب الإسرائيلي هو الذي اختار شارون، فكيف تظن أن

هذا الشعب يريد السلام؟! فقال خالد بتحدٍ: يا سامي يا حبيبي.. هم الآن يعـانون من انتفاضة تقض مضاجعهم فمن الطبيعي أن يكون اختيارهم لمن وعدهم بكسر عظام هذه الانتفاضة في مائة يوم. ثم قال له ساخرًا: ألم تكن ممن تمنوا فوز بوش؟! قـال سامي مؤكدًا: بلى.. وقد فاز. فقال خالد ساخرًا: فاز في نوفمبر ونحن الآن في أواخر مارس فماذا فعل؟! فرد سامي ملوحًا بيده في وجهه: وهل نحكم على القادة خـلال شهور؟! فرد خالد قائلًا: شارون سياسته بانت من أول شهر.. تولى الحكـم الـشهر الماضي وهـا هـو يـشن غـارات جويـة علـى غـزة ورام الله ويقـصف مقـار القيـادة الفلسطينية.. يعـني بالبلـدي لغـى الـسلام ومحادثاتـه ودخـل حربًـا. فـرد سـامي متهكمًا: سياسة شارون يا حبيبي معروفة منذ زمن وليست جديدة، أليس هو مـن قصف مدرسة بحر البقر فراح ضحيته أطفال أبرياء. فقال خالد يشهده على نفسه: ماذا كان رد بوش على هذه الغارات التي استنكرها العـالم؟ قـال ذلـك وأولاه أذنـه صامتًا ينتظر ردًا، لكن لم يرد سامي فاستطرد قائلًا: ألم يقل إن لإسـرائيل الحـق في الدفاع عن نفسها؟! أليس هذا عنوانا لسياسته القادمة؟!

كان عوض ينظر إليهما باهتمام، وقال لعامر بصوت خفيض: هذان الشابان يستحقان الاحترام.. لم تـشغلهما الأشياء التافهـة مثـل الفيـديو كليـب والأغـاني الهابطة كباقي الشباب. فرد عامر: المرة الفائتـة كانـا يتحـدثان أيـضًا في الـسياسة. فنظر عوض إلى سامي وقال: يا أستاذ سامي لو سمحتم لي. وكان قد عرف اسمه من خلال الحوار، فردًا معًا وقد شعرا باحترام تجاهه لهيئتـه: تفضل يـا أسـتاذ...؟

وأطال خالد المد في كلمة أستاذ ينتظر إكمال التعريف، ففطن عوض وأكمل قائلًا: عوض.. موظف بمدرسة الحلمية الإعدادية. وذكر اسم المدرسة قاصدًا محو أي ظن قد يطوف بذهنيهما، وقال: شارون قائد بطل بالنسبة لهم.. الدور الباقي على قادة العرب! فقال خالد ضاحكًا بسخرية: القادة مفردها قائد، أما بالنسبة لدولنا العربية فمفردها قوَّاد، على اعتبار أن بلداننا فتيات حسناوات. فضحك سامي بهستيرية وهو يقول: جديدة وحلوة.. أشهد لك الآن فقط بتخصصك في اللغة عربية. وضحك عامر من ضحك سامي، أما عوض فابتسم وقال: متى ستكونون هنا المرة القادمة؟ فقال خالد كل مساء سبت وأربعاء نتقابل هنا أنا وسامي. وأكمل عوض مبتسمًا فقال: وعوض؟ فقال سامي: نتشرف بك. وازداد خالد تحمسًا وقال ناظرًا إلى عوض: يا أستاذ عوض نحن العرب سُذَّج، فمثلا نفرح ونرقص طربًا على أغنية شعبان عبد الرحيم «بحب عمرو موسى وبكره إسرائيل»، ونزداد إعجابًا بعرضها في قناة الـ«سي إن إن»، ولم يخطر على بال أحدنا أن إسرائيل هي المستفيد الأول من مثل هذه الأغنية! إنها تقول للعالم كله إن العرب عندهم عداء للسامية ويكرهون اليهود، والدليل هو هذه الأغنية أو غيرها! واشتد الحماس حين قرأ الإعجاب في عيني عوض فقال: ألم يستفيدوا من قبل من كلمة لأحد رؤسائنا حين قال «سنلقي اليهود في البحر»، فوقف العالم بأسره معهم ضد هؤلاء الهمج كما بدت لهم صورتنا؟! وخشي سامي من تحمسه الزائد فأراد أن ينهي الحوار فهمَّ قائمًا وهو يقول: والآن! اختم خطبتك بدعاء طالب اللغة العربية الشهير في كليتك. فقال

الأستاذ عوض: وهل هناك دعاء خاص بطلاب اللغة العربية؟! فقال سامي: سيعجبك لو سمعته. فقال خالد: عرّفه الأول دعاءكم يا طلاب الهندسة. فرد سامي: خلّها للمرة القادمة. ووقف سامي ونظر إلى رأس خالد الأصلع ثم إلى حذائه اللامع، وقال متظاهرًا بالجدية: متى لمعتهما؟ فانفجر عامر وعوض ضاحكين، وقال خالد بشيء من حياء: يا ظريف من أين جئت بهذه الزرافة؟! من حديقة الحيوان؟! فعم الضحك، ثم نهض عوض وعامر وتصافح الجميع، وانصرفوا ضاحكين.

20

توالت الأيام، وقلت وتيرة الزيارات العائلية بسبب الاستعداد للامتحانات، واستعيض عنها بالمكالمات التليفونية، وعكف عامر على المذاكرة، ولم يجد عوض صديقًا يؤانسه، فقد شغلت عنه زوجه بمتاعب الحمل، وشغل زملاؤه بالدروس الخصوصية، وتذكر سيد بعين دامعة، ودارت به الذكريات، وخشي أن يهوي في بئر الاكتئاب فذهب إلى المقهى آملا أن يقضي وقتًا ممتعًا مع خالد وسامي، لكنه تفاجأ بغيابهما رغم مجيئه يوم سبت كما أخبراه من قبل، وعلل ذلك مرة بانشغالهما بالمذاكرة ومرة أخرى ساوره الشك، فربما توجسا منه خيفة، وبخاصة بعد أن تحمس خالد في المرة السابقة وفلت منه زمام الحكمة وثرثر كثيرًا في أمور السياسة، وبرر سامي ذلك بأنه يكون ثرثارًا هكذا حين يجالس أحدًا لأول مرة، وجلس عوض وحده يتسلى بمتابعة من حوله، كان الكلام كله ينصب على الأحداث الجارية في فلسطين، قال أحد الجالسين لصاحبه وهو يطلق الدخان من فمه وأنفه معًا: الانفجارات التي حدثت في رام الله كانت في مبانٍ سكنية. فرد الآخر بلا مبالاة وهو يرتشف من كوب السحلب بتلذذ: يا عم فريد ماذا تنتظر؟! فإسرائيل لا تعمل حسابًا لأحد. وراح فريد يتابع دائرة من الدخان الذي نفثه بفمه دفعة واحدة وهي تتصاعد لأعلى وقال: كل ما فعلناه كلام في كلام. فقال خيري وهو ما زال ممسكًا بكوب السحلب: قصدك وزراء خارجية الدول الإسلامية؟ فقال فريد: نعم في

الاجتماع الطارئ الذي تم في قطر. فرد خيري وقال: لكنه كلام جميل لو عملوا به.. ليتهم يجمدون الاتصالات مع إسرائيل ويوقفون التطبيع ويغلقون مكاتب إسرائيل عندهم كما قالوا. ثم أكد ذلك قائلا: يا ليت هذا يتم. ففاجأه فريد: يبدو أنك لم تسمع عما فعله داه ولد عبدي. فقال خيري مستفهمًا: ومن هذا؟ فقال: وزير خارجية موريتانيا، رمى بقراراتهم هذه عرض الحائط وقرر زيارة إسرائيل. فزم خيري شفتيه وحرك رأسه أسفًا ولم ينطق، وقام عوض عائدًا إلى البيت مطأطئ الرأس وازدادت ساعات مكوثه بالبيت.

وانقضى شهر مايو وحل يونيو، فكرر عوض زياراته لعامر يشد من أزره تارة حين يكسل، ويطمئنه تارة أخرى حين يقلق، وأوصى المدرسين الخاصين ببذل أكبر جهد، ودقت طبول امتحانات الثانوية العامة، وطرقت رهبتها كل باب، وخاض عامر غمارها، وكل يوم يمر كأنه دهر طويل، وكان يعود راضيًا تارة وشاكيًا تارة أخرى، وانتهى الامتحان وبقيت النتيجة، ولما كان هذا الشهر هو المتوقع لولادة سحر، ركز عوض جل اهتمامه على زوجته الحامل الموشكة على الولادة، وطال بقاؤه أمام التلفاز ليكون قريبًا منها، وشدته الأحداث التي سمع عنها الكثير في المرات التي ارتاد فيها المقهى أحيانًا ومن بعض الزملاء أحيانًا أخرى، ولم يكن قد تابعها من التلفاز فقرر أن يجرب فراح يتنقل بين القنوات الإخبارية، وقال في نفسه: على الأقل حتى لا أظهر جاهلًا بما يحدث على الساحة أمام الزملاء وأمام خالد وسامي، هذين الشابين اللذين انفتح قلبي لهما. وجلس يتابع قناة

«الجزيرة»، فتفاجأ بخبر عاجل عن عملية فدائية في ملهى بتل أبيب قتل فيها ثمانية عشر إسرائيليًا وجرح أكثر من مائة، وخالجه شعور متناقض فعلى الرغم من أن شعور الشماتة ضد شارون وما توعد به من كسر عظام الانتفاضة كان الأسبق فقد أجهضه شعور آخر، شعور الخوف مما سيترتب على ذلك من قتل مزيد من الفلسطينيين، وظل على هذا فترة، ثم أقلع عن متابعة الأخبار مرة أخرى لكثرة ما سمعه من أخبار محزنة فكاد يصيبه الإحباط، ولم يكد عوض وعامر يلتقطان أنفاسهما من امتحان الثانوية العامة حتى وجدا نفسيهما أمام امتحان جديد، امتحان أكثر صعوبة من الثانوية العامة، امتحان حانت ساعته واستحوذ على كل اهتمامهما، حتى نسيا أن لامتحان عامر نتيجة منتظرة، فقد اقترب ميعاد ولادة سحر، فتتابعت الزيارات إلى عيادة الدكتورة صفاء، أخصائية النساء والولادة، وفي كل مرة كان عامر يرافقهم، تتمدد سحر بالكرسي الخلفي ملقية برأسها إلى صدر مديحة. وعامر يجلس صامتًا في حياء بجوار عوض الذي لم يدرِ كيف واتته القدرة على قيادة السيارة هذه المرة وهو بهذا القلق، لأن الوجع كان قد ازداد عنفًا وتتابعًا، وفحصتها الدكتورة صفاء بدقة ثم قررت أن تتم الولادة بعملية قيصرية اليوم، متعللة بعمرها الكبير وتأخر ميعاد الولادة أسبوعين عن الميعاد المتوقع حسب حساباتها، ونصحتهم الدكتورة بالذهاب إلى مستشفى أحمد ماهر، حيث تعمل، لتتمكن من خدمتها، إلا أن عوض شكر الدكتورة واستأذنها في الذهاب إلى مستشفى استثماري، فقالت الدكتورة: لا أملك سوى الدعاء.. وأنا في انتظار طمأنتكم لي.

وقبل أن تنطلق السيارة صرخت صرخة ذهبت بلب عوض ولم يدرِ مـاذا يفعـل، ثـم عضت على منديل في يدها، وأسـرّت إلى مديحـة في أذنهـا أنهـا تريـد دخـول دورة مياه، وخيل إلى مديحة أنهـا سـتلد الآن، فطالبـت عـوض بالإسـراع، والتوجـه إلى مستـشفى أحمـد مـاهر فهـي الأقـرب، فلـم يجـد عـوض بُـدًّا من ذلـك وأسـرع إلى المستشفى. وهناك طلبوا مـن أحـدهم التـبرع بالـدم فأسـرع عـامر وقـدم نفـسه، ولم يسمحوا لأحد بالدخول معها حتى مديحة، وانطلقت مديحة خارجة من المستشفى فاتصلت بأم سحر، كما اتصل عامر بعد أن أفاق من التبرع بالدم بالأستاذ شاكر، ولم يأتِ الفجر إلا وكان الجميع فرحين بالمولود الجديد «سيد» الذي لم يحلُ له المجيء إلا بعد مرور أسبوع من شهر يوليو لتستقبله الحياة بحرارة الصيف ورطوبته، ولم تكتمل سعادة عوض إلا حين اطمأن على صحة رفيقته.

21

تمخضت محاولات سهير عن فشل ذريع، وتعرضت لاتهـام التواطـؤ مـع عرفة، لمصلحتها مـن وراء زواجـه بهـذه البنـت، أليـست مديحـة ابنـة صـديقتها سعدية الخياطة، بل وذهب أبوها إلى أبعد من ذلك، فلم يستبعد أن تكون هي العقل المدبر، وكاد الشرر يتطاير من عينيه وهو يقول لها: هل تقبلين أنت أن يتزوج تامر ابنك خادمة؟! وضغط على حروف الكلمة الأخيرة. لم تـرد عليـه فهـي لا تـرى أن مديحة خادمة، وقالت في نفسها: بل تربت في أسرة الحاج فتحي، وهو من أفاضـل الناس، ولا يعاملها لا هو ولا سحر كخادمة. وخرجت سهير من بيت أبيها باكية عير مأسوف عليها إلا من أختها نيفين التي خرجت وراءها تخفف عنها فنهرهـا الوالد بقسوة. لم تتخيـل قـط أن يكـون رده بهـذه القـسوة، كـان يمكنـه أن يـرفض فحسب، لكن أن ينهال عليها بهذه الردود والاتهامات وكأنه قد أعدها في ذهنه من قبل فهذا ما لم تكن تتخيله، وكبر عليهـا أن يعاملـها بهـذه الطريقـة وهـي الـتي أنزلت نفسها بمنزلة الأم بالنسبة لإخوتها، فهي الأكبر سنًّا، ولم يكن يفرق بينها وبين المرحومة أمها سوى خمسة عشر عامًا، ومن أجل ذلك قررت عدم دخول هـذا البيت حتى يرد لها اعتبارها. وبقي أبوها في البيت رابضًا ينتظر مجيء عرفة وقـد كشر عن أنيابه كأسد ثائر ينتظر فريسته.

أما عرفة فكان يجلس داخل محل بشارع راتب باشا عليـه لافتـة مكتـوب

عليها «حديقة فواكه» بخط كبير، وكتب أسفل منها بخط أصغر «لصاحبها الحاج زكريا عبد السلام»، كان يسامر صاحبه ثروت زكريا الذي أصبح يدير المحل بعد أن بلغ والده من الكبر ما جعله لا يطيق البقاء فيه إلا ريثما يزيل الملل الذي يداهمه أحيانًا من طول مكوثه بالبيت، وكان عرفة قد تعرف عليه منذ شهور بطريقة ملتوية، حين اشتد عليه الوجد ذات يوم فهداه تفكيره أن يذهب إلى حيث تقيم مديحة مع سحر بعد أن عرف المكان بتحرياته الخاصة، وجعل يقطع الشارع الذي تقيم فيه ذهابًا وإيابًا لعله يراها حين تخرج لشراء بعض احتياجات البيت، فيظفر منها بنظرة أو كلمة يطفئ بها ما شب في قلبه من هيام. وبالفعل ساعدته الظروف ساعتها حين خرجت مديحة لشراء دواء لعوض، وحين لمحته اندفعت إليه وصافحته واتفق معها على أوقات محددة، قال لها بعيون ذابلة وصوت يذوب رقة وحنانًا من فرط الحب: سأكون هنا سواء خرجت أم لا، ولن أغضب حين لا تتمكنين من الخروج فأنا أقدر أنك لستِ في حكم نفسك. وأسعدها ما سمعت أيما سعادة، وشعرت ساعتها أن الدنيا قد أقبلت عليها أخيرًا، وانفلتت يدها الرقيقة كعصفور من حضن يديه، وراحت تبتعد عنه وعيناها معلقتان بعينيه حتى كادت تصطدم بأحد الواقفين في الشارع، ووقف زمنًا في خدر لم يدرِ إن كان طال أم قصر وعيناه شاخصتان حيث ذهبت، وحين أفاق نظر حواليه ثم مشي عائدًا، وتكررت اللقاءات، لكن تردده على الشارع وقطعه ذهابًا وإيابًا دون الدخول هنا أو هناك جعل بعض أصحاب المحلات والبوابين ينظرون إليه بارتياب، واهتدى تفكيره إلى

أن يذهب إلى محل الفاكهة ليتعرف على صاحبه، فمن اليسير أن يتعارف أبناء الكار الواحد، وكان ثروت كريمًا معه وهو الذي تعلم عن والده حسن الخلق قبل أن يتعلم حسن التعامل مع الزبائن، وكيف لا يكون كريمًا وقد تربى بين إخوة جميعهم متعلمون فمنهم المحامي والطبيب والمحاسب، وهو الوحيد الذي لم يكمل تعليمه، فكلفه أبوه بإدارة المحل. قال له عامر حينها بعد أن حيَّاه: لماذا تبيعون التفاح بهذا السعر الرخيص؟! فعجب ثروت من هذا الزبون الذي يسترخص الثمن بدلًا من أن يستغليه كباقي الزبائن! فقال له مازحًا: ممكن أن أرفع لك سعره لو أحببت. فضحك عرفة مقهقهًا وقال: محسوبك عرفة صاحب محل فاكهة في الأزهر. فضحك ثروت ملء شدقيه وقال: هكذا أكون قد فهمت. وأفسح له ليجلس وقال يستكمل حديثه: بالتأكيد أنت تذهب إلى سوق العبور وتعرف أن الأسعار فعلًا أغلى من ذي قبل، ولكني لم أرفع سعر التفاح خوفًا من ركوده، والحسنة التي تأتي منه تكفي ويعوضها غيره. وتوطدت العلاقة بينه وبين ثروت، وأخبر ثروت في بادئ الأمر أن له أقارب في الشارع، ولكنه لم يبُح له بالسر إلا حين علم تأصل الصداقة في قلبه، وضحك ثروت بعد إخباره بالحقيقة كما لم يضحك في حياته، وقال له: يعني أنا كنت كوبري ولم أدرِ؟! فابتسم عرفة قائلًا: العفو.. ولكني لم آتِ إلى هنا لمجرد الغزل ومعاكسة بنات الناس، أنا قصدي شريف. ثم أردف ساعتها قائلًا: لكني عثرت وأنا أطارد زوجة المستقبل على أخٍ يعوضني عن عدم وجود إخوة ذكور لي، فليس لي إلا أخوات بنات كما أخبرتك. ومنذ ذلك الحين

تبادلا الزيارات، وتولد إعجاب متبادل بين ثروت ونيفين أخت عرفة التي حصلت على دبلوم التجارة العام الماضي، ولم تعمل به، بل بقيت في البيت تراعي الوالد وأخاها عرفة.

ظل عرفة جالسًا يسامر ثروت حتى مرت مديحة من أمام المحل، فانتفض واقفًا، ثم تحرك إلى الباب ونظر يمينًا ويسارًا كعصفور قبل أن يهم بالطيران، وخطا خطوات تجاهها على حذر ثم حث خطواته على الإسراع حتى لحق بها، ودار حوار بينهما وهما يسيران جنبًا إلى جنب دون أن يلتفت أحدهما للآخر، حتى بلغا «أجزاخانة قيسون» ودخلتها مديحة يتبعها عرفة ثم عادا خارجَيْن وهما يكادان يلتصقان واصطدما بعوض الذي جاء مسرعًا بعد أن اكتشف أنه أعطاها «روجتة» أخرى غير التي يريدها، فمد يده في صمت وسحب كيس الدواء من يدها وهو ينظر إليها شزرًا وسار تجاه «الأجزاخانة»، وتسمرت في مكانها وتمنت لو كانت الأرض قد انشقت وبلعتها قبل أن يراها عوض، وقالت لعرفة بارتباك: اذهب أنت الآن. فتركها وعاد تتلاطم في ذهنه الظنون، وفكر أن يعود إليها فيقابل مدام سحر وهي تعرفه فيخبرها الحقيقة، وتصور عوض وهو يعنفها وينعتها بصفات هي أبعد ما تكون عنها، ثم عادت إلى مخيلته صورتها وهي مرعوبة تقول: اذهب أنت الآن. قال لنفسه بصوت مسموع: أنا لستُ رجلًا.. لو كنت رجلًا لواجهته برغبتي في الزواج بها. وأخيرًا استقر على فكرة استراح لها؛ سيطلب من أبيه أن يذهب معه في الحال يطلبها من أمها، ولم يدرِ كيف قطع الطريق بهذه السرعة، وارتقى السلم

وهو راضٍ بهذه الفكرة التي تنزَّلت عليه من السماء لتنقذ فتاته من الحرج الذي تسبب لها فيه عن غير قصد، وطرق الباب وقد واتته قوة وجسارة على مواجهة أبيه، ولم تعلق بقلبه ذرة من تردد أو خوف، وما إن فتح الباب حتى تلقاه والده بصوت كالرعد ينكر عليه ما طلبه من سهير أخته، لم يفهم عرفة في البداية ما قصده والده بسبب ارتباك الكلمات في فمِ والده من شدة الانفعال، ولما تبين بعض الكلمات استطاع أن يستبين ما قصد، وأدرك على الفور أن عطيات قد أخبرت والدها بالموضوع، وظن أن والده أخطأ في الاسم حين قال سهير، وقال والده مستنكرًا وقد انتفخ عِرقان على جانبي رقبته: أنت ابني الوحيد وتتزوج خدامة؟! ثم قال بوجه محتقن: لو فكرت بهذه الطريقة لا تكون ابني ولا أعرفك، وليس لك مكان في هذا البيت. واستدار عنه يتمتم: واحد معه دبلوم يتزوج جاهلة وأيضًا خدامة؟! ولكن عرفة كان في ذروة قوته بعدما سببه لمديحة من حرج، فقال ردًا على والده: لن أتزوج سواها وإن كانت خدامة كما تقول أنت! وجال في ذهنه ما حدث لأخته من قبل وتذكر كيف أنها كانت قوية وجريئة فقد واجهت الموقف بشجاعة، وقرر أن يحذو حذوها، فهو حر في اختيار من ستصبح شريكة حياته، ويجب أن يتصرف بسرعة هذه الليلة دون تأخير، لعله يستطيع معالجة الجرح الذي سببه لهذه الفتاة قبل أن يستفحل، فقال لوالده بحسم: سأترك البيت ولن تراني ثانية كما أردت أنت. واندفع ناحية الباب ونيفين تتعلق بذراعه تمنعه من الخروج، ولكنه كان قد قرر فخلص ذراعه من قبضة أخته وخرج تاركًا الباب مفتوحًا عن آخره.

لم تمر إلا دقائق حتى كان عرفة يجلس إلى الحاجة سعدية الخياطة طالبًا يد مديحة، وموضحًا أنه ليس صغيرًا، وليس في حاجة لأن تطلب منه حضور أحد ليطلبها هو، ولأنها تتعامل مع الكثيرين بحكم عملها فقد فهمت ما وراء الكلام، وخمنت رفض والده، ولكنها كانت تنظر إليه متهللة الوجه بسبب طريقة كلامه التي توحي بالصدق والإصرار، ولكنها سألته فجأة عن رأي سهير أخته، فقال باقتضاب: لا أعرف. ثم أردف: قلت لك لست في حاجة لرأي أحد. فردت: يا بني أخشى أن يكون الأهل رافضين، ونحن نعيش وسط الناس ولا نحتمل كلمة من هنا أو هناك. فقال بثقة: أقطع لسان من يتكلم كلمة واحدة. فقالت وهي تشعر بسعادة: والله يا بني لن أجد من هو أفضل منك لمديحة بنتي، ولكنك تعرف الأصول. فقال: وماذا تطلبين مني؟! فقالت: ليس عليك سوى أن تطلبها من الرجل الذي تحمل مسؤوليتنا بعد وفاة المرحوم. فقال مستفهمًا وقد أدرك ما تنوه به: تقصدين الحاج فتحي أليس كذلك؟ هزت رأسها بالموافقة، فقال مؤكدًا: لن تمر الليلة قبل أن أذهب إليه.

22

سار عوض بخطوات جنائزية، يكز على أسنانه من الغيظ، تتبعه مديحة مقطبة الجبين منكسة الرأس، وجاءها خاطر غريب وهي تسير وراءه فتصورت نفسها خروفًا وتصورته يسحبها بحبل يلتف حول عنقها، يسوقها للذبح! ووصلا إلى البيت، ورأتهما سحر على هذا الحال فطار لبها، ثم نظرت إلى مديحة وسألت بدهشة: ماذا جرى؟! لم تنبس مديحة ببنت شفة، فنظرت إلى عوض وقالت: لا تقل لي إنها أضاعت المال. واستمرت قائلة: ضياع المال لا يبرر أبدًا هذا التجهم. فقال عوض صارخًا: اسأليها هي، أنا لا أستطيع تحمل هذه المسؤولية. انطلقت منه هذه الكلمات دفعة واحدة، فنظرت إلى مديحة مرة أخرى وقالت بعينين متسعتين عن آخرهما: ماذا جرى يا مديحة؟! رُدِّي. لم ترد مديحة فعادت تقول بصوت أعلى: ردي يا مديحة ماذا جرى؟! فقالت بصوت خفيض: أنا لم أفعل شيئًا خطأ. فرد عوض بجنون: لم تفعلي شيئًا خطأ؟! وماذا تسمين ما رأيته؟! ثم استدار ناحية سحر وقال منفعلًا: رأيتها الآن تمشي مع شاب جنبًا إلى جنب يتحدثان وهما في غاية السعادة. فقطبت سحر وقالت: من هذا الشاب يا مديحة؟ كنت أظن أنك لا تخفين عني شيئًا. فقالت باكية: لم أخف عنك شيئًا يا ست سحر. فبدا شيء من الارتياح على قسمات سحر وهي تقول: قولي لي إنه عرفة، أليس كذلك؟! فأومأت مديحة برأسها علامة الإيجاب، واسترخت سحر على الكرسي وتنفست

الصعداء، وقالت مديحة تكذب عليها للمرة الأولى: جاء وانتظر خروجي ليسألني عن رأيي فيه كزوج قبل أن يتقدم لأهلي. كان عوض قد جلس قابضًا بكلتا يديه على ذقنه مستندًا بكوعيه على الطاولة، ورفع وجهه بهدوء وقال لها معاتبًا: ما دام الأمر كذلك فلماذا لم تعرفيني عليه؟! فقالت وما زالت الدموع تنهمر على خديها: أصابني الارتباك وخشيت أن توبخني أمامه. فقال لها بلطف: أنت أصبحت واحدة منا ولهذا نخاف عليكِ. وسألها بابتسامة: هل تحبينه؟! فنكست رأسها من الخجل ولم تجب. وقالت لها سحر اذهبي أنت الآن يا مديحة وإن شاء الله لن يحدث إلا كل خير.

وبعد أن ذهبت مديحة قالت سحر لزوجها إن عرفة ولد طيب من شارعهم، وأنها قد حكت لها عنه من قبل، وإنها – سحر – تعرف أهله بحكم الجيرة. ثم سحبت التليفون واتصلت بوالدتها فاطمأنت عليها وعلى والدها ثم قالت لها: إن شاء الله اسألي لي غدًا آخر النهار عن مديحة هل تقدم لها أحد للزواج أم لا؟ وسأنتظر ردك. فقالت الأم: وهل قال لك أحد إن مديحة ستتزوج؟! فقالت لها بهمس: سأحدثك غدًا إن شاء الله مساء. فقالت الأم بقلق: لكن طمئنيني الآن، فلن أستطيع النوم. فقالت سحر ضاحكة لتزيل عنها القلق: ربما يأتي من يطلبها من أمها غدًا فإذا حدث أبلغيني فقط. فقالت الحاجة فكرية: ربنا يرزقها بابن الحلال.

وصحا عوض في اليوم التالي وخرج ذاهبًا إلى المدرسة، لم تكن الدراسة قد بدأت بعد، جلس مع الزملاء ودار حوار مقتضب حول المرحوم سيد لم يخض فيه

عوض، واكتفى بالمشاركة السلبية، يستمع دون أن يعلق، ثم تركهم متوجهًا إلى المطبعة، وهناك وجد عامر يجلس إلى الكمبيوتر، ويده تتحرك بطلاقة على لوحة المفاتيح يكتب رسالة دكتوراه تحضيرًا لطباعتها، وقد استفاد من الدورة التدريبية التي أنهاها منذ شهر فأصبح يتقن «الأوفس» إلى حد كبير، وقال له عوض: متى تنتهي من هذه الرسالة؟ فرد قائلًا: غدًا أنهي الكتابة وبعد غدٍ أنسقها وأطبع «درافت» حتى يراجعه صاحبها، ثم أصحح الأخطاء وبعدها الطباعة الأخيرة. ثم قال له عوض: ما رأيك لو خرجنا اليوم لتشتري بعض الملابس؟ فأدرك عامر أنه يقصد الملابس اللازمة للعام الجامعي الذي سيبدأ عما قريب مستقبلًا كلية الهندسة التي طالما تمناها، فرد قائلًا: ما زال الوقت فيه متسع للشراء. فرد عوض: وهل هناك ما يمنع اليوم؟ فلم يجد عامر ردًّا مقنعًا فزم شفتيه وقال: نخرج، لكن بعد ذهابك للدكتور. فأومأ برأسه موافقًا.

وبعد المغرب خرجا إلى الطبيب، ولم يجدّ جديد بالنسبة لعوض، اللهم إلا هذا التطور المستمر في الحالة التي تسير من سيئ لأسوأ، وهو لم يعد يعوِّل كثيرًا على الدواء الذي يتعاطاه، وعرف أنه لا محالة واقع في شباك الفشل الكلوي، وأن المسألة مسألة وقت ليس إلا، ولم يهوِّنْ عليه سوى هذا الطفل الجميل الذي ملأ عليه الدنيا، وهذا الطفل الكبير الذي ملأ الفراغ الذي تركه أبوه بمماته، فغدًا عامر بالنسبة له الابن والأخ في آن واحد، إذا تعب وجده بين يديه جسدًا قويًّا وعاطفة صادقة، حتى إن عوض كثيرًا ما خطر بذهنه أن صديقه المرحوم سيد لم يشأ أن

يتركه بلا ميراث فمنحه أغلى ما عنده، منحه عامر بما لديه من حب وإخلاص، ومنحه في الوقت ذاته سبيلًا من سبل الجنة وهي هذه الزوجة المريضة أم عامر، التي ظل يرعاها هو وزوجه سحر عن طيب خاطر.

ومن باب اللوق إلى عماد الدين حيث اشتريا أربعة أطقم من ملابس الخروج بينها طقم جينز كان عامر قد وقف أمامه متأرجحًا بين الرغبة والاستغلاء، وفطن لذلك عوض فقال له مازحًا: عين في الجنة وعين في النار.. خلينا في الجنة أحسن. ودخل المحل فاشتراه، ثم اشترى حذاءين أحدهما أسود والآخر بني، ولكن عوض قال له ضاحكًا: طقم الجينز يحتاج إلى كوتشي، تعالَ نلبي طلبه. ولم ينسَ الملابس الداخلية والجوارب. كان عوض في هذا اليوم أبًا بما تحمله الكلمة من معانٍ، وقال عامر مازحًا: لماذا كل هذه الملابس؟ هل سأشتغل في الكلية عارض أزياء؟! واستطرد قائلًا: كفاية فلنذهب الآن. ودمعت عيناه من رد عوض الذي فاجأه قائلًا: نسيت شيئًا يا عامر.. خمن ما هو؟ ولما لم يجد جوابًا قال له: نسيت أم عامر.. أنذهب إليها بلا ملابس جديدة مثلك؟! يا الله! كم لبعض الناس من تصرفات هي غاية في الرقة، تصرفات قد تكون بسيطة في شكلها لكنها تفجر في القلب براكين المشاعر، لمسات ليست من سمات عامة الناس، بل الخاصة منهم، وكان والده المرحوم من هؤلاء الخاصة، وها هو قد عوَّضه الله عنه بهذا الرجل الذي يفيض لطفًا وحنانًا. وذهبا إلى قسم الملابس النسائية على استحياء واستعانا برأي الفتاة العاملة بالمحل في اختيار عباءتين للخروج إحداهما سوداء، بالإضافة إلى جلبابين للمنزل، وكادت

الأم تطير فرحًا من المفاجأة وعامر يدخل عليها حاملًا الملابس الجديدة يقدمها لها بابتسامته الحلوة وهو يقبل جبهتها ويديها.

ورجع عوض أكثر سعادة من عامر، ليجد المفاجأة الأخرى فعرفة بالفعل قد تقدم لخطبة مديحة، فقد أخبرت الحاجة فكرية سحر ابنتها أن عرفة حضر يطلب يد مديحة من والدها الحاج فتحي بالأمس وليس اليوم كما توقعت، قالت: بالأمس بعد مكالمتك في التليفون بحوالي ساعتين حضر عرفة وطلب يدها وكان الوقت متأخرًا حتى إن والدك قال له ألم تقدر على الانتظار حتى الصباح؟! فأخبره عرفة قائلًا: ما أخرني هو ذهابي أولًا إلى أمها الحاجة سعدية فلم تعطِني ردًا حتى أعرض الأمر عليك. فقالت سحر لأمها: سعدية ست تفهم في الأصول. وعادت والدتها فأخبرتها أن عرفة حكى لوالدها عن رفض والده المعلم خضر وطرده من البيت، فكان رد الحاج فتحي أن قال له يطمئنه: ربنا يدبرها. ثم عللت الحاجة فكرية عدم اتصالها بابنتها أمس لتخبرها بأنها خشيت أن تكون قد نامت.

أخبرت سحر زوجها بما حدث لكنها لم تخبره برفض والد عرفة زواج ابنه بمديحة وطرده من البيت بسبب تمسكه بها.

23

قضى عرفة الليلة الأولى بعد مغادرة بيت أبيه مطرودًا عند أخته عطيات، وقد حاولت عطيات جاهدة أن تهدهد من نفسه اللاهثة وقلبه الجريح، قالت له: إن الزواج قسمة ونصيب، وإن القسمة والنصيب قضاء لا يمنعه مانع. وكانت السعادة – رغم ضيقها – من أجل أخيها تومض في قلبها من وقت لآخر حين تلمس بحاستها الخاصة قوة الإصرار عند أخيها، فهي تريد أخًا رجلًا لا أخًا مسلوب الإرادة، بغض النظر عن قضيته، ولم يظفر عرفة في ليلته تلك بغفوة تريح عينيه الكليلتين، وذهنه المشتت.

ولم تكن نيفين تعلم أين بات أخوها، كانت تدور برأسها عدة توقعات ولم ترجح واحدًا منها، ولذا وقفت مضطربة لا تسعفها إجابة حين جاء ثروت يسأل عنه، وفسرها ثروت ساعتها بأنها مرتبكة من رؤيته بفعل الحب الذي يعتمل بداخلها، وعاد من عندها هائمًا لا تسعه الدنيا من الفرح، ما أجمل أن يرى الرجل حبيبته مرتبكة من شدة الحب، ولأن قلبه لا يمكنه الانفعال بأمرين في آن واحد فقد زال قلقه على عرفة، وبقي الوجد يحمله على أجنحة من حرير ومعه نيفين، ويطير بهما في الفضاء متنقلًا من سحابة إلى سحابة، والبدر ينثر عليهما ضوءه الفضي، وتدور عليهما النجوم بكؤوس من شوق، وأطباق من هيام. وأفاق ثروت وقد وجد نفسه أمام بيته بالحلمية، رجع دون أن يعثر على عرفة، ولكنه قد عثر على

حبه فاطمأن قلبه وزالت عنه الظنون، وهذا يكفيه لهذا اليوم، ولم يحاول بذل مجهود ليجد صاحبه، بل على العكس حلا له أن يقضي الليلة وحده ثملًا بحب نيفين.

وفي صباح اليوم التالي جاءه عرفة وقص عليه ما حدث، فتعاطف معه وأقسم عليه ألا يبيت عند أحد سواه حتى يتم حسم موضوعه، ولأن عرفة لم يكن راغبًا في حدوث مضايقات أخرى لمديحة بسببه فقد قرر أن يقضي النهار كله بعيدًا عن الحي ولا يعود إلا ساعة النوم. وبالفعل أخبر ثروت بما نوى وخرج غير قاصد مكانًا بعينه. وقرر أخيرًا أن يقضي هذا النهار داخل القلعة، وقطع شارع القلعة بخطوات بطيئة ثم مرق من بين مسجدي السلطان حسن والرفاعي، ثم قصد الباب المدرج بالقلعة فوجده مغلقًا، وصعد سكة المحجر بانحدارها الشديد ووجد الباب الجديد مغلقًا هو الآخر، واضطر لسؤال أحد المارة فأخبره بأن بوابة صلاح سالم هي المفتوحة، فهبط شارع الباب الجديد ثم سار بمحاذاة السور العالي حتى بلغ طريق صلاح سالم فانعطف فيه يسارًا، وسارت ساقاه تقاومان التعب، حتى وجد نفسه أمام مساحة واسعة من الأرض الخضراء المنحدرة، يتقدمها جراج للسيارات ملاصق لطريق صلاح سالم، وأعلاها البوابة التي سميت باسم هذا الطريق، وعبر صاعدًا بوابة كبيرة لدخول السيارات، وسمع أحد الواقفين في طابور التذاكر يقول إن هذه البوابة كان يطلق عليها قديمًا «باب المقطم» أو «باب الجبل» لمواجهتها لجبل المقطم. وأدهشته التغييرات الهائلة التي حدثت بالقلعة. تناول تذكرته من الفتاة ذات

الزي الخاص، ثم تعرض للتفتيش من قبل الحارس، ودخل ليجد أوتوبيسات في انتظارهم لنقلهم إلى الداخل، ونزل من الأوتوبيس وسار في أعقاب قافلة من السائحين، راح يرقبهم وهم ينظرون بإعجاب إلى المباني الأثرية، ودخل قصر الجوهرة بجدرانه المزدانة بأشكال نباتية ومزهريات، ورأى القاعات الملحقة به مثل قاعة كسوة الكعبة وقاعة الكوشة التي تعرض كوشة زفاف الملك فاروق على الملكة فريدة، ثم قصد المتحف الحربي ورأى قاعة المجد التي تعرض الأحداث التاريخية لمصر منذ العصر الفرعوني حتى حرب السادس من أكتوبر، ثم انتقل إلى جناح الأزياء العسكرية ثم قاعة المدفعية وقاعة الأسلحة، ولم تفُته رؤية متحف سجن القلعة ومتحف الحديقة الأثري وبئر يوسف.. وفي المساء تفاجأ باحتفالية كبيرة، ومهرجان شامل، فقد عرضت رقصات شعبية على المسرح المكشوف، وعرف أن هذا المهرجان يستمر لمدة عشرة أيام، ويتكرر في مثل هذا الشهر، شهر يوليو، من كل سنة، ويحضره كثير من المطربين المشهورين، وعلى جانبي المعرض المكشوف تعرض دور النشر كتبها في دكاكين بأسعار مخفضة، وأيضًا توجد أركان كأنها قاعات محاضرات تلقى فيها المحاضرات على أعلى مستويات من الفكر، وقال في نفسه: رُب ضارة نافعة. فلولا غضبه من أبيه لما جاء إلى هنا وشاهد كل هذا التطور، فعلى الرغم من أن القلعة ليست ببعيدة عنه فإنه لا يذكر أن زارها منذ أن كان طفلًا، جاءها ضمن رحلة مدرسية، ولم يرَ منها وقتها سوى ساحة واسعة للجري واللعب، ورجع عرفة وقد زال عنه كثير مما كان يعانيه، وما إن وصل إلى

بيت ثروت حتى وجده في انتظاره ضجرًا لغيابه، وقد كاد يفقد الأمل في مجيئه، ولم يسترح حتى عرف سبب تأخره. وأخذ منه وعدًا بعدم النوم في مكان آخر، وفي الأيام التالية تعرف إلى الدكتور عصمت الذي كان يأتي لزيارة والده.

24

لم يزل الجو حارًا ورطبًا.. وللمرة الأولى منذ زواجه كاد ينقضي شهر أغسطس الذي لم يتبقَ منه سوى أربعة أيام ولما يذهب إلى المصيف، وكان ذلك بسبب قدوم هذا الوليد الذي طالما انتظر مجيئه بفارغ الصبر.

وقف عوض هنيهة بعيدًا يرقب المعلم قرني وهو يشير بيده هنا وهناك والصبي ينفذ التعليمات فيحرك الخرطوم حيث أراد حتى أغرق أرضية المقهى والرصيف بالماء، ثم وجه الخرطوم لأعلى ووضع إصبعه قرب فوهته ناثرًا الماء فوق شجرتي الفيكس المشذبتين على شكل هرمين عند حافة الرصيف، ثم ملأ حوضيهما المحاطين بقوالب الطوب الأحمر بالماء، واستأنف عوض السير بخطوات بطيئة ريثما ينتهي الصبي من إعادة ترتيب الكراسي، وما إن وصل حتى وجد خالد وسامي قد سبقاه، كانا يرقبانه وهو يتابع الصبي ولم ينتبه لوجودهما.. أخيرًا عثر عليهما.

اتجه نحوهما في الحال فتلقاه الشابان بسرور وتبادلوا التحية بحرارة، ثم اتخذوا مجلسهم السابق، وسرت نسمة رقيقة لفحت وجه عوض؛ يبدو أن نثر الماء بدأ يؤتي ثماره، وشرع يحكي لهما عن ارتياده المقهى في يومي السبت والأربعاء اللذين أشارا إليهما على أمل رؤيتهما، لكنه لم يعثر لهما على أثر، قال: كأنكما

فص ملح وذاب. فنظر إليه خالد باستياءٍ مصطنع وقال: فص ملح؟! فرماه عوض بنظرة باسمة واسترسل يصف ببساطة أذهلتهما ما دار بذهنه بسبب انقطاعهما عن المقهى لأمد طويل فقال: قلت لنفسي ربما ظناني مخبرًا جاء يتصيد فريسة ليظهر لرؤسائه نشاطه ويقظته. لم يردا وتبادلا نظرات ماكرة ثم ضحكا في آن واحد، فابتسم عوض متشجعًا وقال: صدقت ظنوني إذًا! وإلا فلماذا جئتما اليوم الاثنين على خلاف ما وعدتما؟! وازداد أنسًا بهما وشعر برغبة جامحة للتحدث، فراح يقص عليهما قصته مع الإنجاب، وقال متفكرًا: بعد أربعة عشر عامًا من الزواج أنجب في هذا الصيف. فقالا له بدهشة: ظننا أن الشاب الذي كان يرافقك هو ابنك. فقال: هو كذلك. ففتحا عينيهما بإنكار وقال سامي: أهو لغز؟ وداخله شعور بالاغتباط لإثارة اهتمامهما وقال: من الناحية المعنوية هو ابني، ومن الناحية الجسدية هو ابن صديقي المرحوم سيد الذي كان بالنسبة لي أكثر من أخ. فنظرا إليه نظرات تفيض تقديرًا واحترامًا، ثم قال خالد فجأة باستنكار موجهًا خطابه إلى سامي: ما هذه اللغة التي أسمعها؟! فرد سامي بجدية قائلًا: لغة الوفاء على ما يبدو. فقال خالد مستفهمًا: وما هذه اللغة؟! فقال سامي موضحًا: لغة الوفاء هذه لغة قديمة.. من اللغات الميتة.. لا يتحدث بها الآن إلا قليلون! وتابعهما عوض ببلهٍ كأنما قد أفاق لتوه من غيبوبة، ثم تنهد بارتياح وواتته نشوة حاول إخفاءها عندما فطن لما وراء الحوار من مديح له، ثم جعل يعدد بإسهاب مزايا المرحوم من إخلاص وود ونقاء سريرة. والعجيب أن عوض كان ثرثارًا في هذا اليوم أكثر مما

ينبغي وكان خالد مقلًّا، على عكس ما كان في المرة السابقة، ولم يفته أن يخبرهما أنه صاحب «المطبعة العصرية» أمام مستشفى أحمد ماهر، ولم يكف عن الكلام حتى أشفقا عليه فقال خالد بغرابة: هل نحن في صحراء؟! فقال عوض بدهشة: لماذا تقول ذلك؟! فقال: أليس من شيء يشرب؟! وصفق بيديه فأقبل سونة – وكلمة سونة هذه كانوا يدللون بها الصبي حسن – أقبل وعلى وجهه مسحة من حزن، بيد أنه التقط من أفواههم الطلبات على عجلة وصاح لمن في الداخل: وعندك واحد زيادة وواحد مضبوط وشاي في الخمسينة.

لم يمل الشابان من ثرثرة عوض، فقد كانا مبهورين به أيما انبهار، إلا أنهما أشفقا عليه من كثرة الكلام، وطاب لهما أن يكون جليسهما رجلًا في مثل هيئة وثراء الأستاذ عوض، وأحسا بسرور ونشوة وقد أكبرهما وفتح لهما قلبه، فقال خالد مقطبًا جبينه: المشروبات اليوم حسابها علي أنا. فقال عوض متحمسًا: بل علي أنا. ثم أقسم، فانفجر سامي ضاحكًا على غير توقع من عوض الذي قال غاضبًا: ماذا أضحكك؟! فقال سامي ولم يزل ضاحكًا: أنت يا أستاذ عوض لا تعرف الطلاب الأزهريين بعد، فقال عوض: وما لهم الطلاب الأزهريون؟! فقال مشيرًا بإصبعه استهزاءً: خالد هذا خير مثال على هذه الفئة. فضربه خالد على إصبعه الذي أشار به، وقال سامي مستطردًا: في العزائم يلتقط أفضل ما يقدم من الفاكهة أو اللحوم ثم يمد يده بها إلى صاحب البيت متظاهرًا بإيثاره بها وقد أيقن أنه سيرد قائلًا: والله لا يأكلها سواك. وبهذا يكون قد جامل صاحب البيت وفاز في الوقت ذاته بخير

الطعام. فقهقه عوض غير مصدق وقال: إنك تغالي. فقال سامي: بل أقول الحقيقة. فتمتم عوض قائلًا: يعني أنا وقعت في هذا الفخ. ثم نادى على الصبي فجاء يتمتم ببعض الكلمات الساخطة يقول بصوت هامس: ليس عنده ذرة من رحمة. فقال عوض باستنكار وغضب ظنًا منه أنه يقصده: ماذا؟! فقال الصبي وقد أدرك ما جال بذهن الأستاذ عوض: عفوًا يا أستاذ.. لا أقصدكِ أنت، بل هذا المعلم الذي ليس عنده رحمة. وقال خالد ضاحكًا وهو يمسح رأسه براحته: تحمله يا سونة.. إنه أصلع. فنظر الصبي بغرابة إليه، وضحك عوض وسامي، ثم قال عوض: شُفْ طلبات الأساتذة. فقالا معًا: شربنا. وأردف سامي: طعم القهوة ما زال في فمي. ورد عوض: نشرب مرة أخرى. فقال خالد مبتسمًا: تعالَ بعد قليل. فاستدار إلى الكراسي المجاورة ثم انصرف يحضر الطلبات، وما هي إلا دقيقة وشبت مشاجرة بين المعلم قرني والصبي، قال الصبي وقد فاض به: أقطِّع نفسي يا معلم؟! فقال المعلم بصوت أجش: إذا لم تكن قادرًا على الشغل فغيرك يقدر. فنظر الصبي إلى الزبائن يلتمس منهم المساندة وقال: كيف أنفذ طلبين في وقت واحد؟! هؤلاء الناس – وأشار ناحية المجاورين – طلبوا مشروبات، والمعلم يريدني أن أحضر في نفس الوقت شيشة لهذا الأستاذ. وأشار إلى آخر. وأردف: فقلت له دقيقة واحدة يا معلم فثار كأنني ارتكبت جريمة كما ترون. فقال أحد الجالسين يهدئ المعلم: المعلم فقط طبعه حامي يا سونة، لكن قلبه أبيض. وانتهزها خالد فرصة لإظهار مواهبه فقال موجهًا خطابه للمعلم: يا معلم أنت دماغك نظيفة، فلا تنظر لهذه التفاهات. وضغط

بخبث على كلمة نظيفة فقهقه جميع الجالسين، واحتقن وجه المعلم غيظًا ولم يكره صلعته مثلما كرهها في هذه اللحظة، ولم يجد ما يرد به فاكتفى بنظرة قوية وجهها لخالد، لكن خالد لم يعبأ بنظرته، فنظرات الإعجاب التي اتجهت إليه كانت أكثر، فقال وقد تحمس: يا ولد يا سونة. فنظر إليه الصبي، فأكمل قائلًا بخبث: اذهب إلى المعلم وقبِّل رأسه. فسرت همهمة بين الزبائن سرعان ما تحولت إلى ابتسامة ثم ضجوا ضاحكين حين كرر خالد الأمر للصبي، فبدت على وجهه علامات الامتعاض وهو ينظر إلى رأس المعلم، ثم عاد خالد وقال للمعلم: على فكرة يا معلم أنت كبيرنا هنا ولا يمكن أن يمس أحد شعرة من رأسك ونحن موجودون. فقال المعلم ينهي هذه المهزلة: تحرك شُف شغلك.

كان عوض يضحك منتشيًا وهو يتابع خالد، يا له من شاب ظريف! ومما زاد من ظرفه أنه كان مثل المعلم أصلع، لكن صلعته كانت أقل انحدارًا. وجال في خاطر عوض أن يشبه رأس خالد بالطريق الذي شرعوا توًّا في رصفه، أما رأس المعلم فهي كالطريق الذي أعادوا رصفه مرات، لكنه لم يقدم على الإفصاح بما جال بخاطره خوفًا من نتائج رفع الكلفة مع مثل هذا الشاب حاضر البديهة. ورأى المعلم أن يلهي الزبائن حتى لا يجعلونه مرة أخرى مادة للضحك، فأمر الصبي أن يرفع صوت التلفاز. ونجح في ذلك فقد شدت الأخبار انتباه الحاضرين، فتوجهت الأبصار إلى التلفاز، كان خبر اغتيال أبو علي مصطفى هذا اليوم، وشاهدوا المكتب الذي كان يجلس فيه برام الله، كان كل شيء متفحمًا تمامًا، وليس ثمة آثار لحياة، وكانت

بالحائط فتحة كبيرة من أثر القصف، فقال سامي: هذا عمل إجرامي.. أليس أبو علي مصطفى هذا أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟ لماذا يقتلونه وهو شخصية سياسية؟! فقال خالد: منذ شهر بدأوا هذه اللعبة.. بدأوا يتصيدون القادة بطائرات «F16» الحربية. فقال سامي: لقد شنوها حربًا بالمعنى الكامل. فقال خالد: اقتحموا القدس وأصابوا الكثير الشهر الماضي، وأيضًا اغتالوا ستة من أعضاء «فتح» ولم يتحرك العالم. فقال سامي بسخرية: العالم يتحرك في حالة واحدة فقط وهي موت إسرائيلي. واقترب منهم سونة يصغي وقد شده الحوار وهو يضع المشروبات التي طلبها عوض، قال عوض: سمعت من زميل أنهم يستعملون أجهزة تحدد مكان القادة المستهدفين عن طريق هواتفهم المحمولة. فرد خالد قائلًا: بل هناك خونة يضعون «بودرة» معينة على الأماكن أو السيارات الخاصة بهم فتستطيع إسرائيل توجيه القذائف نحوها من الطائرات، وإلا فماذا يفسر نجاحهم في ذلك؟ فاقترب الصبي منهم أكثر وقال لهم: من أين لي بهذه البودرة؟! فقال له عوض باستغراب: لماذا؟! فقال هامسًا: لأضعها على رأس المعلم قرني. فضجوا ضاحكين، وتحسس خالد رأسه خائفًا، ثم قاموا منصرفين. وذكّر عوض خالد بدعاء طلاب اللغة العربية، فقال وهو يصافحه: المرة القادمة.

25

كان اليوم الثلاثاء ولم يتبق على حلول شهر رجب سوى أسبوع، وكانوا يجلسون على هيئة نصف دائرة، مولين ظهورهم ناحية الفصول، والكرسي الأوسط كان في تماس مع الحائط، وكان حوش المدرسة الإعدادية خاويًا من الطلاب، فالدراسة لم تبدأ بعد، تناولوا أكواب الشاي الصغيرة من عم منصور الفرَّاش بلا مبالاة وعاد بالصينية فارغة تاركًا الخلاف محتدمًا، فحين ارتأى الأستاذ سمير أن ياسر عرفات لم يعد أهلًا لقيادة فلسطين، أكد الأستاذ نبيل أنه ما زال الرمز الأكبر للشعب الفلسطيني، فرد سمير بانفعال: رمز! أوافقك على ذلك، لكن قائد يفكر ويخطط. هذا ما لم يعد حتى من الناحية الصحية أهلًا له. فرد نبيل مشيحًا بوجهه يمينًا بابتسامة ساخرة قائلًا: إذا كان شعبه هو الذي أنزله هذه المنزلة فما عساك أنت أن تعترض؟! وحدثت همهمة فقال سمير مصرًّا: والله أنا أشفق عليه وهو يخطب ويداه ترتعشان! واشترك عبد الناصر فقال: الحقيقة أن دوره قد ماع منذ دخوله في عملية السلام الوهمية، وكان قبلها مناضلًا قويًّا ترأس بجدارة «منظمة التحرير». فرد ثروت بسخرية وتأنٍ: يا سيدي الفاضل هل نسيت أنه قد أضاع فرصة ذهبية للسلام عرضها عليه السادات فرفض ووصفه بالخائن للقضية، في حين أنه الآن يجري لاهثًا يبتغي الأقل ولم يتحصل عليه؟! فقال نبيل مستنكرًا: تتحدثون وكأن العالم لم يتغير! لم تعد هناك قوى تحكم العالم سوى

أمريكا، يعني الظروف تغيرت وبالتالي النتائج تتغير. وأراد سمير أن يؤكد رأيه فقال: من الذي يقوم بالرد على إسرائيل في عدوانها الذي أصبح متكررًا؟ ولم ينتظر ردًا واستطرد قائلًا: «حماس» و«الجهاد الإسلامي» أليس كذلك؟! فقال عوض يهدئ من وتيرة الحوار: لكن إلى متى يستمرون على هذا الحال؟ فقال نبيل: الشيخ حسن نصر الله أمين حزب الله يرى أن شارون لن يستمر، لأن إسرائيل لن تتحمل مزيدًا من القتلى. فقال عوض: الحال يسير الآن بين فعل ورد فعل.. بعد استشهاد أبو علي مصطفى حدثت سلسلة انفجارات وفجر استشهادي فلسطيني نفسه في القدس، وردت إسرائيل، وفي يوم واحد قتلوا أحد عشر وأصابوا خمسين فلسطينيًا في جنين، وكان الرد قتل سبعة وإصابة مائة إسرائيلي في يوم واحد في نهاريا وبيت لحم. فرد سمير بانفعال: لكن ما يغيظك أن أمريكا تهب مستنكرة ما يفعله الفلسطينيون ولا تأبه بما تفعله إسرائيل؟! فرد عوض وقد تشجع بنجاحه في استرجاع الأخبار: كنا نأمل في بوش أن يقود العرب وإسرائيل للسلام لكن ما يبدو غير ذلك! فقال عبد الناصر ساخرًا: اتصل بشارون السفاح وسأله عن حاله مع الانتفاضة. فضحك سمير وقال: هل رأيتم رده كيف كان بليغًا؟! ثم قال كأنه يحدث نفسه: كأنه فعلًا أديبًا قال: «الانتفاضة كالإنفلونزا، لكن الصداع النصفي هو العراق». ثم ردد المقطع الأخير بالإنجليزية: «**But the migraine is Iraq**». ونظر نبيل في الساعة وهب قائمًا وهو يقول: لقد سرقنا الوقت. فتبعه الآخرون وقال سمير: هانت.. ميعاد الانتظام قرب، فاليوم الحادي عشر من سبتمبر.

وخرج عوض ماشيًا إلى المطبعة، وحال وصوله كان عامر قد تأهب للخروج فقال له مداعبًا: قفشتك.. إلى أين؟ فرد عامر قائلًا: مر وقت طويل ولم أزُرْ بهجت أو عصام. فقال عوض باهتمام: لم تخبرني عن نتيجتيهما. فقال عوض: بهجت دخل «طب القاهرة» وعصام «إعلام». فقال عوض: هل المكان بعيد فأوصلك؟ فقال عامر: ليس بعيدًا.. في درب اللبانة في القلعة. فرد عوض وقد راودته رغبة في التمرد على ما اعتاده: هل تقبل أن أرافقك بالسيارة؟ فسأله عامر: تقصد أن تذهب معي لزيارتهما؟ فهز رأسه وقال: إذا لم يكن هناك ما يمنع. فقال على الفور: سيرحبان بالتأكيد. وخرج معه عوض ثم مر على حلواني الحلمية أولًا فاشترى علبتي «تُوفِي» وهو يقول ضاحكًا: تهنئة متأخرة. ورد عامر: بل لمسة قيمة من لمساتك الإنسانية. فانتابت عوض فرحة غامرة بدت في عينيه وقال في نفسه: ما لي أشعر بهذه السعادة وقد سمعت من الإطراء الكثير من قبل ولم أتأثر؟! ربما لأنه يحمل رسالة خاصة كنت أنتظرها من هذا الشاب الذي أحببته بالفعل كأنه ابني؟! والابن كالأرض يسعدنا صلاحها وننتظر أن يبين فيها ما زرعناه. ثم قال لنفسه أيضًا: اللهم لا منًّا ولا أذىً. وسارت السيارة صاعدة شارع القلعة حتى إذا أصبحت على مقربة من جامع السلطان حسن وجامع الرفاعي المتواجهين بشموخ، مال عوض بها وركنها، ولاحت بذهنه للحظة ذكرى دفن شاه إيران بجوار جامع الرفاعي، وتذكر ما تردد في تلك الأيام على سبيل التندر قول رجل لامرأته: كل يوم باذرجان.. باذرجان؟ فردت المرأة: «أنا لو كنت بختياري كنت ذبحت لك الشاه»،

ورد الزوج: «خوميني يا ست خوميني»، وكلها أسماء لقادة إيرانيين. ثم بدآ هابطين في درب اللبانة العتيق بمبانيه الأثرية، وسماته الشعبية، ودخلا من أحد الأبواب الخشبية البالية وارتقى عامر السلم بدرجاته المنحوتة من الصخور الجيرية، وقد بانت عليها آثار النحت، وتبعه عوض الذي تعمد الإبطاء، وصاح عامر: يا عُص. وجاء الرد من الداخل: ادخل يا عمُّور. فنظر عامر إلى عوض بطريقة تلقائية فرأى ابتسامة قد لاحت على وجهه، فضحك عامر وقال عاليًا: لِم التعابين.. معي ضيوف. فقهقه عوض.

لم يكن عوض قد اطلع على هذا الوجه المرح لعامر، وقال لنفسه: دائمًا نظرتنا إلى الأمور والناس قاصرة.. لا نرى إلا جانبًا واحدًا، ولو أمكننا التوغل في بواطن الأمور أو البشر لتغيرت وجهات نظرنا بالتأكيد، ولكننا مغرمون بإصدار الأحكام على الصور الملتقطة من جانب واحد. ود عوض في تلك اللحظة لو يستطيع أن يضم عامر إلى صدره، وخرج عصام يرتدي «تريننج» رماديًا وهو يتمايل دلالًا، وبغتةً وقف مأخوذًا وقد أذهله وجود الأستاذ عوض فقال لعامر بعفوية: يخرب بيتك! فاتسعت عينا عوض من الدهشة وقال عامر ينبهه: ماذا تقول؟! فانتبه وقال بارتباك: آسف.. لم أقصد.. أنرْتَ القلعة كلها يا أستاذ عوض. ثم نظر نظرة صارمة لعامر الذي ما زال يبتسم وهو يراه مرتبكًا وقال: كنت أود فقط أن أحسن استقباله. ثم انسحب للوراء داخلًا وهو يقول: تفضلا. ودلف بهما نحو حجرة عن يساره، وفتح الباب فأحدث صريرًا، كان بها ثلاث كنبات ودولاب، وعلى الأرض حصيرة

بلاستيكية وأربع «شِلَت». وأراد عوض أن يزيل الحرج فجلس على شلتة فوق الأرض ورفض الجلوس على الكنبة، وقال كلمة قد سمعها من أحد زملائه وأعجبته حينئذ: «خلي البساط أحمدي». وجلس بجواره عامر، وخرج عصام هنيهة ثم عاد وجلس في مواجهتهما متخذًا من الكنبة العمودية مسندًا لظهره، وسأله عوض: هل الوالد في العمل؟ فقال عامر بسرعة موجهًا كلامه لعوض وهو يشير بإصبعه إلى عصام من أعلى لأسفل: تعرف أنه على طوله هذا وعرضه؟ فقال عوض: ما له؟ فقال: أبوه ميت. فضجوا ضاحكين. ثم تحدثوا عن الثانوية والكلية التي أوشكت على البدء، وأبدى الثلاثة استياءهم من أسلوب التعليم في مصر وبخاصة الثانوية العامة، وقال عصام: كأنهم يريدون أن يلهوا الناس بالتعليم ومشاكله بدلًا من التفرغ للسياسة. وتعجب كيف تكون الثانوية عامين متتاليين من التوتر والقلق! وقال عامر: يبدو أن مصر أصبحت حقل تجارب لوسائل التعليم، حتى إنهم مرة يجعلون الابتدائية ست سنوات ومرة خمسًا ثم يعودون لست سنوات! وسمعوا طرقات خفيفة منغمة على باب الغرفة المجاورة، فخرج عصام وعاد يحمل صينية بها ثلاث زجاجات «بيبسي»، فقال عوض: سأشربه لكني أطمع أيضًا في شاي. فنادى عصام باهتمام أخته قائلًا: يا سهيلة تعالي سلمي على الأستاذ عوض.. فهو ليس غريبًا. فأقبلت وحيته بجرأة قائلة: شرفتنا يا أستاذ عوض.. سمعنا عنك الكثير من عامر.. فهو يحبك. وشعر عوض باغتباط وقال مازحًا: وأنا كمان. ثم قال عصام لأخته: الأستاذ عوض يريد أن يشرب شايًا من يديك. فخرجت

تبتسم، وسأل عوض عنها فأخبره عصام أنها في الصف الثاني الثانوي. ثم قال عامر فجأة لعصام: خذ علبة «توفي» واحدة فقط، فالثانية لبهجت. فضحك عصام: كيف ستعطي الثانية لبهجت وهو لم يرجع من الشغل؟ ثم استطرد قائلًا: هي إذًا من نصيبي الآن. فضحك عامر وعصام وضربا كفًا بكف، ودهش عوض لعلاقتهما التي لا تكلف فيها، فكل ما يخطر على البال يقال ببساطة، وقال عوض يسأل عن بهجت: أي شغل؟ فقال له عامر: يعمل في الإجازة في خان الخليلي في بازار أحد المعارف، وقال عامر: متى سيرجع من الشغل؟ فرد عصام قائلًا: سيأتي لي فور وصوله كما أوصيت أمه، فأنا كنت عائدًا للتو من عندهم قبل مجيئكما. فقال عوض: ربما يتأخر، وعلى كلٍ فعندي اقتراح؛ وهو أن أذهب أنا وأترك عامر معك على أن تحضروا جميعًا لنقضي السهرة في مقهى الحلمية. فرحبا بالفكرة وخرج عامر وعصام ورافقاه إلى السيارة، ثم قال عامر يودعه: مع السلامة. وعاد عصام متأبطًا صديقه.

وانتظرا بهجت حتى الخامسة مساء، ولكن يبدو أنه لم يستطع الاستئذان هذا اليوم، فخرجا قاصدين المقهى، وهبطا طريق القلعة بخطوات سريعة لئلا يكون الأستاذ عوض قد مل من طول الانتظار وحده، وعندما وصلا وجدا عوض جالسًا هناك، وكان خبر تفجير برج التجارة في نيويورك حديث المقهى كله. سمعوا أحد الجالسين يقول: مات حوالي خمسة آلاف شخص! وقال آخر يصف ما حدث: الطيارة الأولى ضربت البرج من الجنب والأخرى دخلت فيه. ورد آخر: لكن المنظر

كان صعبًا والبرج يهوي بمن فيه! وقال آخر: لم أطق رؤية الرجل الذي كـان يطـل من النافذة طالبًا الإنقاذ ثم هوى به المبنى! ورد الأول: كان هناك هجوم آخـر علـى «البنتاجون».

26

ضاق الرسيبشن على اتساعه بالحاضرين، حامد وشاكر وسهام والحاج فتحي وابنه ناصر وباقي الأسرة، إضافة إلى عامر وزميليه عصام وبهجت، وأيضًا خالد وسامي، الجميع حضروا ملبين دعوة عوض ولم يتخلف واحد ممن دعاهم، أما زملاؤه في المدرسة فقد قرر عمل عزومة خاصة بهم، بعيدًا عن هذه «العقيقة». ولأن العدد كبير ولن تسعفهم مديحة في إعداد الطعام فقد استعان بطاقم طباخين جاءوا منذ الصباح، وجلس الجميع موزعين في مجموعات، كلٌ في ركن، فشاكر وحامد ومحمود زوج أختهما والحاج فتحي وناصر في ركن، والنساء على مقربة منهم، أما عامر وعصام وبهجت وخالد وسامي فقد أنسوا لبعضهم البعض، وكان عوض يتردد بين هؤلاء وهؤلاء، وقد خص الضيوف الجدد بترحاب أكثر، على اعتبار أن الآخرين أصحاب بيت، ولكن سهام لن تتغير؛ فقد وجهت نظرات حانقة ناحية الضيوف وهي تقول لمن حولها عن عامر: كأن البيت بيت أبيه! لم يكفِه أن جاء هو، بل جلب معه المتسكعين من أمثاله! وعلى رأي المثل: «سكتنا له دخل بحماره». ورمقتها ميرفت بنظرة غاضبة وقالت: من فضلك يا سهام كفاية مشاكل.. خلِّي اليوم يمر على خير. ثم أدركت ميرفت أنها تكلمت بطريقة غير لائقة فأسرعت وعدلت من طريقتها بابتسامة، لكن سهام لم تمهلها وقالت متهكمة وهي ترمقها بتقزز: أنتِ خفتِ يا ضنايا؟! ثم سألت عن سحر قائلة: لم أرَ المحروسة

منذ أن سلمت علينا. ثم أردفت ساخرة: تركت الجميع وصعدت. وضحكت ضحكة رنانة لفتت أنظار الحاضرين، ولم ترد إحداهن بكلمة فازداد غيظها، وبعد قليل جاءت سحر هابطة الدرج تحمل طفلها على يديها بحنان بالغ، يسبقها ضجيج الأطفال والفتيات، يحمل كل طفل وكل فتاة في يده هدية أعطته إياها «تانت» سحر، كانوا جميعًا حولها سعداء، ولم تكن الجالسات قد فطنَّ لغياب أولادهن، وكانت ترافقها أمها الحاجة فكرية وزوجة أخيها ناصر. وحين اقتربت سحر ومن معها اعتذرن للجالسات عن تأخرهن، بينما رمت ميرفت سهام بنظرة خاطفة ذات مغزى، وأسرعت فتناولت سيد تقبله قائلة: الخالق الناطق أبوه.

في الجانب الآخر ثنى شاكر ساقه اليمنى تحت فخذه اليسرى جالسًا على «شلتة»، وراح يتابع التلفاز بأذن وأذنه الأخرى مع المتحاورين في موضوع «العقيقة»، قال محمود: على فكرة ليس لـ«العقيقة» وقت محدد، وممكن عملها في أي وقت. فرد حامد بابتسامة استخفاف بالمعلومة التي جاء بها وقال: يا بابا ممكن الواحد يعق عن نفسه إذا لم يكن أهله قد عقوا عنه. وقال شاكر دون أن ينظر إليهم: كلمة عقيقة على وزن فعيلة أي مفعولة، وعق أي قطع بمعنى الذبح، ومنها عق والديه أي قطعهما والعياذ بالله. ثم نظر إليهم وأردف بجدية: هل سمعتم ما قالته إسرائيل فور تفجير برج التجارة؟! فرد حامد: قصدك اتهامها للإسلاميين من حركة طالبان؟ فسأل محمود: الظاهر أن إسرائيل تريد أن تورط المسلمين في هذه المصيبة بأي شكل! فرد حامد: لم تنتظر لنهاية التحقيق، بل في الحال اتهمت

زعيم «القاعدة» أسامة بن لادن. فقال شاكر: الحقيقة أنا شخصيًّا لم أسمع عن حركة طالبان هذه من قبل أو ما يسمونه تنظيم القاعدة. فرد محمود: والله أنا عندي شك في إسرائيل نفسها.. تعمل المصيبة وتلصقها بغيرها. فقال شاكر معقبًا: ليس بعيدًا أن تفعل إسرائيل ذلك، وبخاصة بعد أن سمعنا أن اليهود العاملين بالبرجين لم يحضروا يوم الانفجار. وقال ناصر: الخطير في الأمر هو خطاب بوش، لأنه قال إنه سيشن حربًا شاملة على الإرهاب، وأنا أشك أنه يقصد المسلمين بناء على اتهام إسرائيل. فرد حامد قائلًا: كان كلامه حاسمًا ومرعبًا، فإما مع أو ضد. فقال شاكر: خوف لا بد منه، فكلامه غير محدد.. من هم الإرهابيون الذين يقصدهم؟ فقال محمود: الكل خاف وكان أولهم: ياسر عرفات. ثم نظر إلى ناصر وقال: هل رأيته وهو يتبرع بالدم لضحايا التفجير أمام الكاميرا؟ فقال ناصر: نفاق واضح وحركة مقززة.. شعبه يموت بسبب وقوف أمريكا مع إسرائيل قلبًا وقالبًا وهو يتبرع لهم بالدم! فرد حامد: يا أخي هذا ليس نفاقًا، لكنه موقف سياسي يبين أنه رافض لما حدث. ثم أضاف: لعلمك.. تلاقي جميع القادة العرب مرعوبين.. ألم تجدهم يسارعون لإدانة التفجير؟! ثم قال شامتًا في أمريكا: خلهم يذوقوا يومًا طعم الموت والحزن كما يذوقه الفلسطينيون كل يوم. أما الشباب الجالسون هناك فكانوا متحفظين في جلوسهم وحديثهم، وكانوا يردون على جمل الترحيب التي يتلقونها بين الحين والآخر من شاكر أو حامد، وأحيانًا من محمود، بكلمات مقتضبة خجولة.

وحان وقت الطعام، فظهرت مديحة على غير عادتها، تتحرك هنا وهناك جسدًا بلا روح، تتبعها أختها هدى حاملة صينية بها أكواب الماء البارد، تتناولها مديحة من الصينية وترصها على الطاولة المنصوبة بين يدي كل مجموعة كوبًا لكل فرد، فإذا تلاقت عيناها بعيني أحد ابتسمت ابتسامة مبتورة، وكان حامد يراقبها من باب الفضول لا الشفقة، وصعب عليه أن يحدد بينه وبين نفسه إن كانت سعيدة أم حزينة، ولكن ناصر الذي علم من أبيه مشكلتها فقد أشفق عليها، ولما اقتربت من الحاجة فكرية أحاطت كتفيها بيدها الرفيقة وجذبتها تسر في أذنها كلمات ابتسمت لها مديحة وأشرق وجهها، وجاء الطهاة بالطعام والأبخرة المتصاعدة منه تزكم الأنوف، وتسيل اللعاب، فتلمظ الشباب وهم ينظر بعضهم إلى بعض بزوايا أعينهم ضاحكين لئلا يلمحهم الجالسون هناك، وودوا لو كانوا وحدهم، فهذه المأدبة ينقصها دعاباتهم المرحة وقفشاتهم التي كانت ستضفي عليها متعة أخرى. وفجأة ساد الصمت في ساحة الطعام ولم يسمع إلا صليل الملاعق تنازل الطبق الأساسي في هذه الوليمة وهو طبق «الفتة»، وما إن اقترب منهم عوض يتفقدهم ويسألهم إن كان ينقصهم شيء حتى مدَّ خالد يده إليه بقطعة كبيرة من اللحم وقال: هذه مني لك. منتظرًا منه أن يقول له: والله لا يأكلها سواك. لكن عوض ضحك عاليًا متذكرًا ما قاله سامي عن طلاب الأزهر، وأراد أن يضحكهم فلم يفعل كما توقع خالد، بل مد يده وأخذ قطعة اللحم منه فقطب خالد في الحال وعيناه معلقتان بقطعة اللحم، وانفجروا ضاحكين، ثم أعادها عوض إليه مرة أخرى وعاد من حيث

أتى والابتسامة ما زالت عالقة بشفتيه، أما سهام فكانت تمد يدها بعيدًا أمام الأخريات لتلتقط قطعة من اللحم ثم تتفحصها وتعيدها لتلتقط أخرى وهن ينظرن إليها داهشات.

وفرغوا جميعًا من الطعام وتناولوا الفاكهة، وبدأوا يدخلون الحمام واحدًا تلو الآخر، ومالت سهام على أذن شهيرة وقالت: ألم تكن الحمامات الأخرى لتنفع في مثل هذا الظرف لو كان هذا الباب مفتوحًا؟! وأشارت بعينها إلى الباب المؤدي إلى شقة عامر، لكن شهيرة تظاهرت بانشغالها، وأقبل عامر واستأذن مدام سحر وحمل الطفل برفق وسار به إلى عصام وبهجت وباقي الجالسين معه، ومر به عليهم فقبلوه بسرور، وجال في خاطر خالد بيتا الشعر:

فما فضل طفل إذا ما استهل * تلقته في المهد أيدي الإماء

وما ذنب طفل تخط له الحياة * صفحة البؤس قبل اللقاء

لم يكن ورود هذا الخاطر على بال خالد نقمة منه على صاحب الوليمة، فهو كما بدا له يستحق كل خير، ولكنها المفارقات في هذه الحياة، طعام يبحث عن آكلين، وآكلون يبحثون عن طعام، وتذكر يوم شب خلاف بين أمه وزوجها في رمضان، ولم يستطع البقاء في البيت لتناول الفطور في هذا الجو الكئيب، فتعلل لأمه بأن صديقه سامي قد دعاه إلى تناول الإفطار عنده، ولم يكن هذا قد حدث، ولم يكن منزل سامي بنفس الحي، ولهذا كان يتوجب عليه الخروج قبل المغرب بوقت مناسب لا يدع شكًا في قلب أمه، فخرج هائمًا على وجهه يجوب الطرقات من شارع

إلى شارع ومن حارة إلى حارة، يضيع الوقت، حتى أذن المؤذن فدخل مطعمًا للفول والطعمية، وساءه منظر المطعم من الداخل، فقد كان بحالة مزرية، كان ضيقًا بطريقة جعلت الطاولات الخمس بلا مسافات تفصلها عن بعضها البعض، ويلتصق بكل طاولة أربعة من الكراسي المصنوعة من أعواد الخشب والخوص المضفر، ومما أثار انتباهه أن المطعم امتلأ في لمح البصر لدرجة أنه حمد الله أن جاء في الوقت المناسب، وكان الجالسون حوله بملابسهم الرثة ووجوههم المكفهرة يلتهمون ما أمامهم بتلذذ ونشاط، قال أحدهم: والنبي عودين خضرة يا معلم. وقال الثاني وقد حفظ لغتهم الخاصة: كمان واحد ورد يا معلم. وكانت عيناه تجولان في المطعم أكثر مما يأكل. وشعر ساعتها بحزن عميق، وقال لنفسه بأسى: ما ذنب هؤلاء التعساء وهم كثر؟! وما فضل القلة المتنعمة؟! وخرج بعد تناول إفطاره يدور في الشوارع مرة أخرى من شارع إلى شارع ومن حارة إلى حارة لئلا يعود مبكرًا فتكتشف أمه كذبته وعدم ذهابه إلى سامي صديقه كما أخبرها فتزيد همًّا على هم وتسوء حالتها الصحية، وقال في نفسه: كفاها ما تعاني مع هذا الرجل الفظ. وتكرر ذلك عدة مرات، وقد ارتاح لهذا التصرف الذي لا يجعل أمه تقلق عليه، فاليوم عند سامي والثاني عند محمد والثالث والرابع عند هذا أو ذاك، لكن أشد اللحظات قسوة عليه كانت تلك التي يقضيها جوَّابا في الشوارع عقب تناول الإفطار، والناس في البيوت سعداء يتفرجون على البرامج التليفزيونية الشيقة، أو يتحدثون أو حتى يستلقون في حالة من الاسترخاء، وآهٍ لو اكتشفت أمه كذبه عليها. من أجل ذلك كان يطيل

البقاء في الشارع ويتصنع التلقائية في الرد على أسئلتها بخصوص أصدقائه حين تسأل: ماذا أفطرت؟ أو كيف حال محمد وأمه؟ أو غيرها من هذه الأسئلة التي لا بد من طرحها يوميًّا.

وتنبه خالد حين مد عامر يده إليه بالشاي وهو يقول: من أخذ عقلك يهنأ به. فضحك وقال مشككاً في كلامه: الله أعلم إن كان يهنأ أم يشقى. وبعد الانتهاء من الشاي استأذنوا فحضر عوض يودعهم عند الباب، قال سامي: الله يبارك لك فيه. وقال خالد: يتربى في عزك ويجعله قرة عين لك. أما بهجت وعصام فقد شكراه بحياء وتبعهم عامر.

27

كان مما أدخل السرور على قلب مديحة وغير وجهها إلى حالة من الإشراق لم تعهدها من قبل في أثناء «العقيقة» هو هذا السر الذي أسرت به الحاجة فكرية في أذنها، فقد أخبرتها بمجيء تفيدة أخت عرفة من الإمارات، وموافقة المعلم خضر على زواجها بعرفة، ثم علمت بعد ذلك من عرفة التفاصيل، فقد نزلت تفيدة على شقتها الجديدة في مدينة نصر، وكان على الجميع الذهاب إليها ليباركوا لها بأنفسهم مجيئها بخير ويباركوا لها هذه الشقة الجديدة الواسعة. وكان ممن ذهبوا إليها والدها المعلم خضر وجميع الأخوات وعرفة الذي استقبلها في المطار وكانوا يعرفون مسبقًا تاريخ مجيئها. واتسم اللقاء في أوله بالحرارة والود ولكن بعد قليل وبعد لحظات الترحاب الأولى بدت سمات التحفظ ما بين الوالد وأبنائه، واستطاعت تفيدة أن تتبين الوجوم المخيم على الوجوه بعد بشاشة الاستقبال، فسألت والدها مباشرة وأمام الجميع قائلة: ماذا هنالك يا أبي؟! هل هناك شيء تخبئونه عني؟ ثم نظرت حولها وقالت مستطردة: أراكم جميعًا بخير فما سبب هذا الوجوم؟! لم يجبها أحد، فكررت السؤال فرد والدها قائلًا: ليس وقته.. سنخبرك فيما بعد. لكن الفضول والتوجس دفعاها لمعرفة ما جرى فقالت: بل الآن.. لا تفسدوا علي فرحة الرجوع إلى بلدي وفرحة الشقة. فشرع والدها يقص عليها ما حدث وقد تسلل عرفة متجهًا إلى البلكونة ليجنب نفسه المواجهة مع والده، ولكن المعلم خضر تفاجأ

بوقوف تفيدة إلى جانب أخيها، قالت متعجبة: وهل سعدية الخياطة غريبة عنا؟! أم هل سحر بنت الحاج فتحي ممن يُخشَى وجود مديحة عندها؟! ثم ألقت محاضرة طويلة عن حرية اختيار الشباب لزوجاتهم في هذه الأيام، واختتمتها قائلة: الحياة تغيرت يا والدي، ولم يعد أحد يقيِّم الناس إلا بالأخلاق والعمل الحلال أيًّا كان هذا العمل، ما دام حلالًا! وكان ردها هذا قد جرَّأ نيفين فقالت له: ومديحة ما لها يا بابا؟! جمال وأدب. فنظر الوالد إلى عطيات وقال متهكمًا وقد لان قلبه قليلًا: وأنتِ يا عطيات قولي لنا أنتِ الأخرى كلمتين.. لم يعد سواكِ. فضحكت وقالت: أنا الذي أخبرت سهير بحب عرفة لمديحة وطلبت منها أن تحدثك في هذا الموضوع. فنظر المعلم خضر إلى سهير فوجدها تنتحب بشدة فرق قلبه أكثر وقال: ماذا يبكيكِ الآن؟! فقالت: تزعق في وجهي وتعاملني هكذا؟! وتتهمني بأنني دبرت هذا لأن سعدية صديقتي، وأنني لم أكن لأوافق لو كان ابني مكان عرفة؟! ثم قالت متشنجة من فرط البكاء: الذي لا تعرفه أنني أعتبر هؤلاء كلهم أولادي. ثم أردفت متسائلة باستنكار: كيف تفكر أنني أجامل صديقتي على حساب أخي الوحيد، بل ابني عرفة؟! وترقرقت الدموع في كل العيون حتى عيني المعلم خضر. وقامت تفيدة تبحث عن شيء تقدمه لهم وهي راضية بما وصل إليه الوالد من تأثر. وأقبل عرفة من البلكونة.. لم يكن قد سمع شيئًا لأنه كان قد أغلق الباب الزجاجي وراءه، ولأنه انتحى في الجانب البعيد حتى لا يسمع فيتأثر ويحدث ما لا يستحب، ومر بالصالة ناويًا الخروج، ولكن والده ناداه بصوت متهدج لم يعهده إلا

قليلًا، وجاء مطأطئ الرأس لا ينظر إليه، فأشار له الوالد بالجلوس جواره، فجلس وشعر بيد والده تحيط به وتشده إليه، فرمى عرفة برأسه في صدر والده وراح يبكي بعنف، ومال الرجل برأسه عليه من فرط التأثر، وقال عرفة لائمًا: تطردني من البيت يا أبي؟! فقال له الوالد: زلة لسان.. وهل للحياة معنى دونكم؟! ثم قال له: اذهب إليهم وحدد موعدًا نقابلهم فيه. ولم يصدق عرفة نفسه فانطلق من حجر أبيه وقبّل إخواته واحدة واحدة، ثم اندفع نحو الباب، وقابلته نفيدة تحمل صينية بها عصير المانجو فقبّلها على عجل وخرج.

حلت السعادة محل الدموع، وبدا الإشراق أكثر على قسمات نيفين.. أخيرًا سيأتي ثروت إليهم فتراه، قد أوحشها كثيرًا، فلم تره منذ أن جاء يسأل عن عرفة بعد أن طرده والده بيوم واحد، ولم تستطع حتى مقابلة عرفة فتسأله عنه، ثم قالت لنفسها: حتى وإن رأيته كيف يمكنني أن أسأله وهو في مثل هذه الظروف القاسية؟ أما الباقون فلبثوا في أماكنهم يتحدثون لأن الغداء سيكون هنا في هذه الشقة الجديدة، وهم لم يسلموا على باقي الأسرة التي راحت في سبات عميق من شدة التعب والسهر في الأيام السابقة، ولم يشأ أحد أن يوقظهم حتى يأخذوا قسطهم الكافي من الراحة، فالغداء سيجمع الكل.

28

أخذته سِنة من النوم وهو مستلقٍ على ظهره ومتكئ برأسه على قمة السرير يفكر، وكان يتنفس بصعوبة بالغة، يستنشق بعناء وبطء شديدين ثم يئن زافرًا فجأة، وتواتر الشهيق والزفير، وشعر بشبح هائل يجثم على صدره، ويقيد رجليه وذراعيه، ثم راح يكتم أنفاسه برباط شمل أنفه وفمه وعقده من خلف رأسه، لم يستطع الفكاك أو المقاومة، وخارت قواه، وأحس أن إرادته تضمحل شيئًا فشيئًا. تمنى لو استطاع نزع الكيس الأسود الذي أخفى الشبح رأسه فيه، فلم يظهر منه سوى عينين واسعتين خضراوين، وبدا كأنه رأى هذين العينين من قبل، وساده رعب شديد، وظهر في يد الشبح قضيب من الحديد، راح يحطم به كل ما بالغرفة من مكتب ودولاب.. حتى السرير الذي ينام عليه، وفزع من العينين الواسعتين وقد تركزتا في عينيه لما اقترب الشبح منه وقضيب الحديد بيده، وكاد يسقط على رأسه.. حاول الصراخ فلم يخرج صوته، وكان ارتطام قضيب الحديد بالأشياء يرن في أذنيه بشدة، فهب ناهضًا من النوم على رنات جرس الباب المتواصلة، وانتفض من فوق السرير واقفًا على الأرض، وفطن في الحال للوضع الخاطئ لرقبته المنكفئة على صدره في أثناء النوم، الذي تكرر من قبل فكانت أمه توقظه من النوم بسببه وتسأله عن سبب أنينه، وشعر بدوار من سرعة الوقوف عقب النوم مباشرة، فاستند بيده على الحائط للحظة، وقال لنفسه: يبدو أن مشاهدتي التلفاز ورؤية

الأفلام المسجلة مسبقًا للاستشهاديين الملثمين بكيس أسود على رؤوسهم وهم يتبنون عملياتهم الاستشهادية التي يقومون بها مفجرين أنفسهم في إسرائيل بأحزمة ناسفة قد أصابني بكابوس. ولكنه تعجب من كون عيني الشبح لامرأة وليس رجلًا، ثم خرج مسرعًا يفتح الباب، ووقف ذاهلًا يحدق في وجه عثمان مرة ثم ينظر إلى عوض مرة أخرى، وضحك عوض قائلًا: ألن تستقبل الضيف؟! ثم استدار عوض للضيف الذي يرافقه قائلًا: يبدو أنه لم يستيقظ من النوم بعد. ونظر عامر في الساعة في يده بسرعة خاطفة، كانت الرابعة مساء، وانتبه لنفسه ثم حاول الابتسام وهو يقول: تفضلا. ثم خص الضيف قائلًا: تفضل يا عثمان.. نورت الحلمية. ولم يفطن إلى الطفل الذي رافقهما إلا حين تبعهما داخلا، فقال يداعبه: أهلًا يا علي.. كبرت وأصبحت رجلًا. فقهقه عوض وقال: ألم أقل إنك لم تستيقظ بعد؟! فرمقه عامر بدهشة تائهٍ ولم يرد، وقال عثمان مبتسمًا: هل نسيت علي؟! إنه لم يبلغ خمس سنوات حتى الآن؟! ورد عوض قائلًا: أولًا هذا هو مراد ابن أختي سهام، تركته عندي وذهبت تكشف على سها.. ثانيًا اذهب واغسل وجهك حتى تفيق لنا. لم يظهر عامر انقباض قلبه الذي حدث مرتين منذ تفاجأ بهما، مرة عندما وجد عثمان متجهمًا حين طالعه على الباب، ورجح أنه ما جاء إلا لطلب الدين.. الألف جنيه، وساءه أن يطلع عوض على هذا الدين، وانقبض المرة الثانية عندما سمع اسم سهام متذكرًا الكابوس والشبح الذي جثم على صدره من لحظات.

رجع عامر من الحمام فوجد عوض وعثمان والطفل في غرفته، وكانت أمه

ترحب بهم، ولبث عوض يسألها عن صحتها مدققًا في تفاصيل المرض والعلاج قال: ما التشخيص الأخير؟ وأجابته بتلقائية قائلة: تليف في الكبد مع استسقاء. فسألها مؤكدًا: هل حدث استسقاء فعلًا؟ فقالت: نعم منذ فترة. وسألها: ماذا يعطونك من علاج؟ فأجابت: يعطونني أقراصًا اسمها «ألداكتون» و«نيومايسين» وأكياس اسمها «سليمارين» وغيرها. ثم استدارت إلى الضيف ترحب به وتسأله عن الحاج علي والحاجة بثينة، فقال لها عثمان إن الحاج علي، الله يرحمه، أوصاه بزيارتهما ومواصلة الود، فقالت مفزوعة تضرب صدرها بيدها: ماذا تقول؟! هو الحاج...، وسكتت فقال عثمان بتأثر: الحاج علي الآن في دار الحق.. وأسألك يا أم عامر الدعاء له بالرحمة. ثم أكمل وهو ينظر إليها والدموع قد منعته من الرؤية: كان والله يحبكم. فبكت المرأة واضعة منديلًا على أنفها من شدة التأثر، وأجهش عامر بالبكاء، وقال عوض: البقاء لله وحده. وطرقت أذن أم عامر في أثناء البكاء كلمة قالها عثمان، كلمة سمعتها من قبل وهي «في دار الحق»، فتذكرت قول المرحوم الحاج علي: والله يا أم عامر أنا محرج، لكن لا مفر من الكلام فهو – أبو عامر – في دار الحق ونحن في دار الباطل.. المرحوم أخذ مني في يوم قرضًا قيمته ألف جنيه. وقالت في نفسها ما أهون هذه الدنيا وما أصغرها! وقال عثمان موجهًا كلامه لعامر: يا عامر أنا قد جئت إليك من أجل... وتغير لون وجه عامر وابيضت شفتاه، ثم ردت فيهما الحمرة من جديد حين سمع عثمان يكمل حديثه قائلًا: التواصل ودوام الود كما أوصاني والدي الله يرحمه.. والباقي عليك أنت، فأنا أنتظر أن تداوم على

الود معي لنكون أخوين. ووقف عوض قائلًا: أنا في المطبعة يا عامر إن احتجت شيئًا. واستأذن خارجًا بعد أن صافح عثمان مودعًا، أراد أن يفسح لهما مجالًا للحديث بحرية، وتبعه مراد خارجًا. كان عامر ما زال متأثرًا، تترقرق في عينيه الدموع، فعلى الرغم من أنه استاء من الحاج علي يوم خلط العزاء بطلب الدين وقال في نفسه ينعته: رجل «جِلْياط». فإنه استعاد حبه القديم له بعد ذهابه إليه، حينها لمس طيبة قلبه ونقاءه الفطري، وأَرْجَعَ ما فعله لهذين الصفتين، وقال في سره: «جلياط» طيب القلب خير من خبيث حسن اللسان. ثم أحس أنه يتوجب عليه فتح هذا الموضوع فقال: الحاج علي – الله يرحمه – كان له عند والدي...، وأسكته عثمان بيده قائلًا: لا تجعلني أندم على المجيء إليك. والدي حكى لي كل شيء وقال لي إن فضل أبيك عليه كان أسبق، وأوصاني بأن أزوركما وأودكما كأهل، وعندما علمت أن اليوم السبت إجازة بمناسبة السادس من أكتوبر جئت. وصمت باكيًا ثم استطرد قائلًا: لا تحرمني يا عامر من هذا الود. فجفف عامر دموعه بمنديل ورقي ونظر إليه بتأثر وقال: بل نحن أهل فعلًا يا عثمان. وكانت أم عامر قد خرجت تتفقد شيئًا تقدمه للضيف، وشعرت بالحرج حين لم تجد ما يستأهل التقديم لضيف قادم من بعيد، ولكن مديحة أسعفتها ولم تدعها للقلق كثيرًا، فجاءت بكيسين من الفواكه.

خرج عامر مع عثمان إلى مسجد السيدة زينب بناء على رغبته، وصليا المغرب هناك، ثم خرجا مباشرة دونما اتفاق إلى شارع السد يسترجعان ذكريات

محفورة في ذهنيهما، ذكريات ولت بلا رجعة، وخيوطاً رقيقة من شجن تربطهما بهذا الشارع كل على طريقته. ودارت بذهن عامر فكرة غريبة، قسم العمر إلى أجزاء بعدد المناطق التي عاش فيها، ثم عاد وقسم الجزء إلى أجزاء أصغر بعدد الشوارع التي لها ذكريات خاصة واعتبر الباقي مهملاً كزبد البحر.

وفي ميدان السيدة زينب وقف عامر يودع أخاه عثمان كما حلا له أن يصفه، وركب عثمان الأوتوبيس وغاب في خضم شارع بورسعيد بسياراته المتلاحقة، تماماً كالأمواج المتلاطمة في البحر وكالأجيال المتتابعة في محيط الحياة، وعاد ماشياً وحده يجتر ذكريات الأيام الخالية بحزن وأمل، وتذكر ما قاله عوض قبل مغادرته: أنا في المطبعة يا عامر إن احتجت شيئًا. وأدرك أنه قصد بذلك أن ينبهه برغبته في الجلوس إليه، فقصده دون الرجوع إلى البيت، وكان عوض في انتظاره، لم يمهله حتى يستريح، وتأبط ذراعه وخرجا إلى البيت أولاً ليستبدل عوض ملابسه، وقابلتهما سهام خارجة وفي يدها مراد، ورمقها عامر تنظر إليه وشعاع من القسوة ينبعث من عينيها الواسعتين الخضراوين ومصوب إليه، واعتراه شيء من الاستغراب لكثرة تردد سهام على بيت عوض منذ فترة، وانتظر حتى ارتدى عوض بذلة أنيقة وخرجا قاصدين الأزهر ليكونا في صحبة الحاج فتحي الذي لبث اليوم بالبيت في انتظار مجيء عرفة وأهله يطلبون خطبة مديحة. حين دنا عامر من عوض عند حضوره بصحبة عثمان تبين ما طرأ على وجهه من تغير، وتأكد له انطفاء لون وجهه وسيطرة الذبول عليه وزيادة الانتفاخ تحت جفنيه السفليين،

فأشفق عليه، وقد رآه يحمل هموم الآخرين ونسي همه، كل من حوله مشغول بنفسه وهو مشغول بغيره عن نفسه، سأله عامر فجأة: متى ميعادك مع الطبيب؟ فرد الثلاثاء القادم. وسأله عوض بدوره: هل تعرف شيئًا جديدًا عن الأخبار الجارية؟ فقال عامر: ليس هناك جديد سوى تهديد بوش بحرب تستغرق أكثر من عشر سنوات، منها ما هو معلن ومنها ما هو سري! فقال عوض مستفهمًا: عشر سنوات؟! ومن سيحارب؟ وماذا يعني بحرب سرية؟! فقال عامر: قال مرة إنها حرب صليبية. وعاد فقال إنه لم يقصد هذا اللفظ.. فقال عوض ساخرًا: خطأ.. بل قال الحقيقة.

29

سأله عن حالـه في الدراسـة فأجـاب: الحمـد لله. فـضحك قائلًـا: لم تكمـل كلامك. فابتسم عامر ابتسامة بلهاء وقال: ماذا تقصد؟ فـرد عـوض وقـال: أليـست كلمة «الحمد لله» هذه تقال في جميـع الأحـوال؟! فـازدادت ابتـسامة عـامر اتـساعًا وقال: الحمد الله من المتميزين. فقال عوض: إذًا قل الحمد لله رب العالمين. ثم شـرع يشرح له طرق الحمد التي يستعملها الناس، فهناك الحمد لله رب العالمين وتقال في الخير، وهناك الحمد لله وتقال في الظروف العادية، أمـا الحمـد لله علـى كـل حـال فتقال في الأزمات الصغيرة، وأخيرًا الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه وتقال في الظروف العصيبة، فضحك عامر وقال: لم أسمع بها من قبل. ثم شرد متطلعًا إلى السماء من زجاج الـسيارة الأمـامي، غريـب هـذا الرجـل، مـن يـراه بأناقتـه هـذه وضحكاته تلك يصنفه على ما قال من طرق الحمد من النوع الأول، ومن يقترب منه قليلًا يعرف أنه من النوع الأخير، فمعاناته لا حد لها، ارتفاع متكرر في ضغط الـدم رغم العلاج، واضطرابات بالبطن، وتورم في الوجه يـزداد يومًـا بعـد يـوم، وقائمـة كبيرة من ممنوعات الطعام المحبب إليه، ثم هذا الفواق الذي صار يلازمه، ناهيـك من الأرق المـؤلم، كـل ذلـك وتـراه دائمًـا هاشًـا باشًـا، يـسأل عـن الآخـرين مهتمًـا بشؤونهم، ومتجاهلًا ما بـه هـو، وبينمـا هـو شـارد فاجـأه عـوض بـسؤال لم يكـن يتوقعه: هل تخفي عني أشياء يا عامر؟ وذهل عامر من هول الـسؤال، مـاذا يقـصد

به؟ هل اشتكى إليه الأستاذ خيري من تلك الخلافات البسيطة بخصوص تنسيق الرسائل والكتب التي يقوم بكتابتها على الكمبيوتر في المطبعة؟ أو ربما لمح نظرات الإعجاب التي تبادلها مع سهيلة أخت عصام حين ناداها عصام لتسلم عليه وأضمرها في نفسه حتى الآن، كل هذا يهون، لكن الكارثة أن تكون سهام قد دبرت له مكيدة. وتذكر الحلم المزعج وقال في نفسه: ربما يكون تفسيره قد بدأ بهذا السؤال. وقال عوض بخبث متصنع: لم تجب عن سؤالي يا عامر؟! فقال عامر متلعثمًا: بحثت في ذهني عن شيء فلم أجد. فقال عوض دون أن يوليه وجهه: طيب.. عيني في عينك. وابتسم عامر وقال: تقول عيني في عينك ولم تنظر إلي؟! ومن طريقته رجح عامر الاحتمال الثاني، فتجرأ وقال: وهل تتخيل أن أخفي عنك شيئًا؟! فرد عوض قائلًا: بل شيئين. فرجع عامر بظهره للوراء ذاهلًا: تقول شيئين؟! ثم قال في نفسه: يا لطيف. وتابع عوض قائلًا: ألم تحضر الطبيب لوالدتك أكثر من مرة ولم تخبرني؟! وصمت هنيهة فلم يأته رد فاستطرد قائلًا: لولا أن رأته مديحة خارجًا بالأمس لَمَا عرفتُ. فأخذ عامر نفسًا عميقًا وتنهد وقال: لم أرد أن أزيد من همومك. فرد عوض: وهل يجوز أن نكون معًا في بيت واحد ولا أعود والدتك المريضة؟ وأردف: وقالت مديحة أيضًا أنها رأت هذا الطبيب أكثر من مرة، وكانت تظن أن من أرسله هو أنا، ولهذا لم تخبرني من قبل. فقال عامر يبسّط الأمر: إنه الدكتور عصمت أخو ثروت صاحب محل الفاكهة. فرد عوض: تقصد أن الدكتور عصمت ابن... وشرد للحظة تذكر فيها اسم الطبيب عصمت زكريا وربط

بينه وبين الاسم المكتوب على المحل فقال لعامر: وكيف عرفت ذلك؟! فرد ببساطة: تصاحبت على ثروت وأنا أشتري بعض الفاكهة وشكوت أمامه من مرض أمي فدلني على أخيه وأعطاني توصية ليقبل الدكتور المجيء إلى البيت. وقال عوض: هذه نقطة، والنقطة الأخرى هي عملك في مكتب كمبيوتر.. ما تفسيرك؟! هل قصرت أنا معك في المصاريف؟! فرد عامر: العفو يا عمي.. لو سمحت لي بهذه الكلمة. فصمت عوض ولم يعقب، لكن عامر قرأ التعقيب في عينيه فقال يكمل حديثه: فضلك ينوء به قلبي الصغير، ولو امتلأ حبًا لك فلن يوفيك حقك، وإنما أردت فقط أن أتدرب على لعبة الاعتماد على النفس، وأنا كلي ثقة أنك لن تعارض.

كانا قد وصلا إلى باب اللوق بعد جهاد طويل مع الطريق المزدحم، ومكثا في عيادة الدكتور عبد المجيد أكثر من ساعة حتى سمح لهما بالدخول، ورمقهما الطبيب من فوق العدسات وركز بصره على عامر هنيهة ثم راح يقرأ نتيجة التحليل، وانتهى من القراءة ثم قال بضع كلمات، لكن أذن عوض لم تتبين ما قيل أو ربما لم يقوَ عقله على استيعاب ما قيل، فهز رأسه متسائلًا، وجاءه الرد واضحًا هذه المرة: حان الوقت لعمل جلسات غسيل دموي للكلى. وقالها بلغته: «**Haemodialysis**». اسودت الدنيا في عيني عوض ولم يسمع شيئًا آخر مما قاله الطبيب بعد ذلك، لكن عامر تابع الطبيب وأجاب عن سؤاله الذي طرحه عليه: ما أقرب مستشفى لبيته؟ فقال: مستشفى أحمد ماهر. ثم أخذ منه الأوراق وأحاط عوض الذي انهارت قواه فجأة بذراعه من الخلف، وخرجا من غرفة الطبيب إلى

الشارع صامتَين، وفعل عامر كما فعل من قبل أبوه، أسند عوض إلى السيارة ثم أوقف تاكسي، أوصلهما إلى المنزل، وقابلتهما سحر كما قابلت من قبل عوض وسيد، ولكن رد فعلها بدا للناظر هذه المرة أكثر ثباتًا، وقال عامر في نفسه: لعل ذلك بسبب حتمية هذه النتيجة. وجعلت تهدئ من روع زوجها، والحقيقة أنها لم تكن هادئة، بل كانت تتظاهر بالهدوء وهي فزعة منهارة من الداخل، وظهر ذلك حين ردت على عامر بحدة لما طلب منها أن تبلغ حامد بحالة أخيه وتطلب منه إحضار السيارة من تحت عمارة الطبيب، وكان ردها مفاجئًا له إذ قالت: رُح أنت وسأتصرف أنا. واستغرب عامر في أول الأمر، ولكن سرعان ما هدأ بعدما عزا ذلك للصدمة من جراء هذا الخبر الصعب، وقال لنفسه إنها رأت بعينيها كم ساعد زوجها وحمل عنه كثيرًا من الأعمال التي كان يقوم بها بنفسه مثل كتابة الكتب والرسائل العلمية على الكمبيوتر لطباعتها، وكان يقوم عنه بالمشاوير والأعمال الأخرى التي كان يكلفه إياها، لكن الأمر لم يكن عند سحر بهذه الصورة، فقد زُرِعتْ في قلبها أولى بذور التشاؤم، كانت من قبل تحث عوض على سرعة إحضار عامر وأمه، لكن الآن وفجأة لم تعد قادرة على رؤية هذا الولد، وقد رأت نفس الموقف يتكرر، لم يتغير سوى استبدال هذا الولد بذاك الأب، عامر بأبيه سيد، وكررت الأمر ولكن بحدة أشد: قلت لك رُح أنت وسأتصرف أنا. وانعقد لسان عامر وخرج وعيناه معلقتان بعوض والدموع تغشى عينيه، ودخل شقته في شبه غيبوبة، أما عوض فقد غطى حزنه العميق لما ألمِ به على الأوامر الغامضة التي أصدرتها سحر

لعامر، وتابعها وقد اتصلت بحامد فحكت له ما حدث. وبعد نحو ساعة حضر إخوة عوض جميعا كما حضروا أول مرة، واستطاعوا أن يخرجوا عوض من دائرة الحزن هذه المرة أيضًا، وكالعادة تجرأت سهام بعد أن علمت أن عامر هو الذي رافق عوض إلى الطبيب فقالت: هي عائلة شؤم وحسد. واعترض عوض مقطبًا فسكتت سهام، والغريب أن سحر لم تعترض على كلام سهام. كان عوض يرقبها دون أن يواجهها بكلمة، وعادت سهام فقالت لسحر: قدم هؤلاء الناس شؤم على البيت.. صدقيني. ووجد كلامها صدى عند سحر فقالت: والله أنا نفسي انسدت من ناحية هذه الأسرة. فصرخ عوض وقد ضايقه قول سحر أكثر مما ضايقه كلام سهام وقال: لا أريد سماع مثل هذا الكلام. وأبدى كل من حامد وشاكر استغرابًا من التحول في مشاعر سحر تجاه هذه الأسرة المسكينة، ولكنهما لزما الصمت، كما بدت الدهشة على وجه ميرفت وشهيرة أيضًا من التغير الذي طرأ على سحر وتوافقها مع سهام. وجلس عوض شاردًا يرقب من بعيد وجه زوجته المطوط ناحية وجه سهام وهما يتهامسان، هل كانت مشاعرها ستتحول هكذا إذا بقيت بلا إنجاب؟ وتذكر عوض قول أخيها ناصر حين قال: لكن سحر بعد أن حملت قد تغير رأيها. وها هي قد حملت وولدت وانكبت على سيد الصغير تشمله بكل مشاعرها، إلى حد انشغالها به عن زوجها نفسه، ولولا وجود مديحة لظهر هذا الانشغال للعيان، ثم تذكرها حين قالت ذات مساء: ألا يمكن تغيير هذا الاسم بآخر؟ ساعتها لم يرد عوض وفهمت من صمته الجواب، وكانت تعرف بلا أدنى شك لماذا اختار عوض هذا الاسم، فلماذا

تأتي الآن وتطلب مثل هذا الطلب؟! ولم تفتح الموضوع مرة أخرى.

أما عامر فقد توجه في الحال إلى شقته وفتح التلفاز لعله يشغله عما يعتمل في داخله، وأخذ يقلب القنوات، ولم يستقر على قناة حتى كانت الساعة التاسعة مساء، فقصد رؤية نشرة الأخبار في قناة «الجزيرة»، وكان حدث جلل قد وقع، فأمريكا بدأت هجومها على أفغانستان، وعشرات الأطنان من المتفجرات تتساقط هنا وهناك فوق رؤوس الأبرياء وأشلاء القتلى في كل مكان، وكانت كاميرا «الجزيرة» تترصد هذه الأشلاء، أذرع ورؤوس ملقاة في التراب، وأجزاء بشرية متناثرة على الأرض، وكان الجنود الأمريكيون يكتبون عبارات ساخرة مختلفة على القذائف قبل وضعها في المدافع مثل «كُلْ هذه الأجساد بلا رحمة»، أو «احرق أعداء البشر». لم تستطع هذه الأخبار أن تلهي عامر عما حدث، فراح يسأل نفسه: ماذا فعلت حتى تعاملني بهذه الطريقة؟! لو كانت طبيعتها قاسية من البداية لهان عليه الأمر. واستولى عليه حزن عميق فدفن رأسه بين وسادتين واستسلم لبكاء طويل مر.

وفي الصباح رافق حامد أخاه إلى مستشفى أحمد ماهر ولم يتمكن شاكر من مرافقته بسبب عمله، ولاح له من بعيد شاب في هيئة عامر لكنه استبعد ذلك لما فعلته زوجته معه بالأمس، وفي اليوم نفسه تم إجراء عملية توصيل أوعية دموية في معصمه استعدادًا للغسيل الدموي، وكان عامر بالفعل قد استغل اسم الدكتور عصمت ودخل المستشفى، وراح يرقب عوض عن بعد بعينين ذابلتين من فرط البكاء، وبعد عودة عوض إلى البيت سأل عن عامر فلم يجده.

بدأت أولى جلسات الغسيل الدموي، وقد تقرر له ثلاث جلسات أسبوعيًا: الأحد والثلاثاء والخميس، وتستغرق الجلسة أربع ساعات، كان عوض يجلس خلالها على كرسي يشاهد التلفاز، بينما الأنابيب موصلة بأوعيته الدموية من جهة وبالجهاز من جهة أخرى، وكانت روح الألفة والمودة تسود المرضى، فبدوا كأنهم أسرة واحدة، فهذه مريضة تنادي الممرضة قائلة: تعالي قيسي لي الضغط يا وفاء. فتأتي وفاء مبتسمة وتخبرها في أثناء القياس عن فسحتها بالأمس مع خطيبها. ويقول آخر مناديًا ممرضة أخرى: قولي لزوجك أين الرحلات الجميلة؟ فترد: سيكون هنا بعد غد. فيقول بسعادة: خليه ينظم لنا رحلة للفيوم. فتقول له: قل له بنفسك. لو قلت له أنا فسيظن أنني أنا من يريد الرحلة. كان عوض يحدق بهم مأخوذًا، وانتابه شعور غريب؛ فقد شعر كأنه يعيش في عالم آخر، بل كوكب آخر يسوده المحبة والإخلاص والبساطة، وكان عامر قد تسلل إلى الطرقة المؤدية إلى الوحدة، ومن بعيد راح يسترق النظرات إلى عوض، ويسأل عنه الممرضات، فلما اطمأن عاد إلى شقته.

وفي اليوم التالي للغسيل كانت حالة عوض جيدة، فخرج إلى شقة عامر وسأل والدته عن صحتها قائلًا: كيف حالك؟ فقالت بعينيها الغائرتين ووجهها الشاحب المقدد: كيف حالك أنت يا أخويا؟ قلبي معك. ثم دعت له: ربنا يفك كربتك.. عامر قال لي إنك عملت عملية.. وأنك تذهب إلى وحدة الكلى ثلاث مرات كل أسبوع. فسألها: كيف عرف عامر؟! فردت باستغراب: ألم يكن معك؟! ثم

أردفت: لقد قال لي إنه رآك تجلس على الكرسي وتشاهد التلفاز في أثناء الغسيل!
وسألها عن مكانه الآن فقالت: ذهب إلى المحافظة يسأل عن ميعاد تسليم الشقق.
فظهرت على وجهه أمارات الاستغراب وقال: أي شقق؟! فقالت: الشقة التي
ستعطيها لنا المحافظة عوضًا عن الشقة القديمة؟ فقال عوض: ولماذا الآن بالذات؟!
فردت: والله يا أخويا ما عندي خبر.. حتى إنني لم أعرف السبب الذي جعل حال
عامر مقلوبًا هكذا منذ يومين.. فهو لم يذهب حتى إلى الكلية. فخرج عوض غاضبًا
وتوجه إلى زوجته مباشرة وقص عليها ما حدث، ولمح الابتسامة تصعد إلى وجهها
لما سمعت أنه ذهب يسأل في المحافظة عن الشقة المقرر منحها له عوضًا عن التي
أخلاها، فقال لها بحدة: ما الذي غيرك هكذا؟! ما هذه القسوة التي تملكت منكِ؟!
فقالت معترضة: أنا لست قاسية ولم أتغير.. يكفينا ما فعلناه معه. ثم أردفت: أنا
لم أعد قادرة على رؤيته. فقال لها: من ساعة ما ترددت سهام عليكِ تغيرت
طباعك. ثم غير لهجته قائلًا: ليس هو فقط المتضرر من تصرفاتك، بل أنا أيضًا.
وسألها: خبريني منذ متى لم تجلسي معي نتحدث كالسابق؟ وأشفقت عليه من
الانفعال وهو في حالته المرضية هذه فقالت له متسائلة: وهل هو يستأهل كل ذلك؟!
فلم يرد وألقى بنفسه من الإعياء على الكرسي، وأرادت أن ترضيه فقالت: وماذا
فعلت أنا له حتى تقول لي كل هذا الكلام؟! فقال ساخرًا: ألم تفعلي شيئًا؟! ألم
تطرديه وأنا في حال لا يؤهلني للرد عليكِ؟! فقالت وهي ما زالت تحاول إرضاءه:
ماذا تطلب مني يا عوض؟ فقال: اذهبي إليه عندما يعود وطيبي خاطره. فقالت

مستنكرة: نعم؟! فتركها وقام صاعدًا السلم بوهن ثـم دخـل حجـرة مكتبـه وأغلـق الباب وراءه بعنف، ثم ألقى بنفسه علـى سـرير صـغير موجـود بـالركن الأيمـن، فخشيت عليه سحر من الغضب فتبعته وفتحت الباب برفق ثم دنت منـه وداعبتـه قائلة: أنا آسفة يا عوض.. سأذهب إليه وسأعتذر له.. لكـن لا تزعـل مـني.. أنـا لا أقدر على زعلك. فقال معاتبًا: بل قدرتِ. فردت: ضيقي مما أصابك ذهب بأعصابي يا عوض. فقال لها: كل شيء بقضاء. ثم أردف: ربما يعوضنا الله خيرًا وينفعنا بما نقدمه لهذه الأسرة. فوافقته فقط من أجل إرضائه، فقبَّلها وقبَّل يديها من الـسعادة. وفي هذه اللحظة أدركت كم هو متعلق بهذه الأسرة وقدرت وفاءه لصديقه، لكنها لم تزل متشائمة من عامر ومن عينيه الصفراوين، كما وصفتهما سـهام. وأقـدمت علـى فعل ما يرضي عوض زوجها على مضض.

30

توالت الأيام وأصبح شهر رمضان على الأبواب، واكتظت الشوارع بالناس، والوجوه بالبهجة. الجميع يستعدون، كل على قدر إمكاناته، وامتلأت الأسواق بشتى أنواع البلح الأبريمي. والعجيب في هذا العام أن كل نوع من هذا البلح أطلق عليه اسم قائد ممن ترددت أسماؤهم على الساحة، فبلح شارون كان بأربعة جنيهات، وبلح بوش بعشرة، وبلح عرفات بثلاثة، وبلح صدام بسبعة. وتزينت الشوارع باللمبات الملونة بألوان الطيف، تضيء على دفعات ثم تنطفئ جميعها معًا لتضيء من جديد على دفعات وهكذا، والفوانيس الكبيرة بأشكالها المختلفة تتعلق على قمم الشوارع، واللافتات المهنئة بحلول شهر رمضان المبارك والمعلقة بعرض الشارع تنتشر هنا وهناك، تحمل أسماء التجار الذين وضعوها كدعاية.

كان عوض قد زال عنه الحزن واستسلم راضيا لقضاء الله، واستقبل الشهر بروحانيات عالية، وأصبح يرتاد وحدة غسيل الكلى كما كان يرتاد المقهى، واعتاد جلسات الغسيل الدموي، فصار واحدًا من الأسرة التي أضحى يلتقي بها ثلاث مرات في كل أسبوع، ووقف على حالات بائسة هونت من مصابه؛ فهذه فتاة غاية في الجمال لكن المرض اللعين داهمها وقضى على آمالها وآمال محبيها، ولكنها استطاعت أن تكيِّف نفسها مع الحياة الجديدة، تتصل بزملائها المرضى تتحدث إليهم ويتحدثون إليها، وتخرج معهم في رحلات ممتعة. وهذا شاب في مقتبل

العمر أصيب بهذا المرض اللعين بعد زواجه بعـامين، ولم تتحمـل الزوجـة الـشابة الجميلة زوجها كثيرًا، وشبت بينهمـا خلافـات انتهـت بـالطلاق، وكـان يتظـاهر بالسعادة بهذا الطلاق، فقد حرره – على حد قوله – مـن المـسؤولية. وهـذا طفـل في العاشرة يعاني من المرض، يتألم حين تلم به أعراضه، ويلعب مع زملائه غير مبال حين يشعر بتحسن، إلا أن جهده الضعيف كان يعوقه عن مجاراة أترابـه فيـضحك بعضهم منه ويشفق عليه بعضهم الآخر، ولا أحد يدرك ما ينتظر هذا المسكين مـن مستقبل بائس حتى هو نفسه. وهذا رجل مسن تكالبت عليه الأمراض كما تتكالـب الأسود على الفريسة، تنهش مما أبقاه العمر، اجتمع عليه مرض السكري والتهاب الكبد وقصور الشريان التـاجي وأخـيرًا الفـشل الكلـوي. وآخـرون كـثيرون تعـرف عليهم، كما رأى جانبًا من الحياة لم يكن يراه من قبل، رأى رجالًا ونساء يأتون إلى وحدة غسيل الكلى فيضعون مبالغ كبيرة تحت وسائد المرضى ثـم يـذهبون سـعداء، حتى إنه أفاق مرة مـن نوبـة هبـوط بـضغط الـدم في أثنـاء الغـسيل بعـد أن أسـعفوه بالمحاليل وبعض الحقن فوجد تحت وسادته ورقة فئة المائـة جنيـه، فنظـر إليهـا بتمعن ثم غشيت عينيه سحابة من الدموع، وهمس له المريض المجاور لما رآه ينظر إلى هذه الورقة وهو يقلبها مندهشًا: حطهـا في جيبـك.. إن شـاء الله الخـير كـثير. وقال في نفسه: كيف فاتني أن أفعل مثل هؤلاء؟! وعندما فُك عنه الجهـاز سـار إلى الطفل الموصل بالجهاز المواجه له وداعبه، ثم دس المبلغ في جيبه وقبّله قائلـًا: أراك على خير يا أبو سِعْدة. كما كانوا يكنونه بدلًا من سعيد.. وكان سعيدًا بهذه الكنية.

كان عوض يأتي إلى وحدة غسيل الكلى بمفرده أحيانًا، وأحيانًا أخرى بمرافقة عامر، الذي عاد إلى سابق عهده معه بعد أن طيَّبت سحر خاطره قائلة له: ألستَ مثل ابني أو أخي الصغير؟ فأجابها برأسه موافقًا، فقالت له: إذًا فلتقدِّر صدمتي حين علمت بالخبر. والتمس عامر لها العذر وعادت المياه إلى مجاريها من ناحيته. وانقضى رمضان وعيد الفطر ومن بعده عيد الأضحى وتوالت الشهور بعد ذلك على وتيرة واحدة، وانحسرت لقاءات عوض بزملاء المقهى، وأصبح لا يلتقي بهم إلا في زيارات قصيرة حين يعاودونه في المنزل متحفظين في الجلوس والكلام، ثم يقومون داعين له بالشفاء في كل مرة، وكانت زوجته تقابلهم على مضض منها إرضاء لعوض، وقد أنزلتهم جميعًا من نفسها منزلة عامر.

وذات يوم شعر عوض بحنين يشده إلى مقهى الحلمية، وأفضى بذلك إلى عامر دون أن يكلفه شيئًا، ثم راح يسأله عن الشلة كل باسمه، عصام وبهجت وخالد وسامي، وأراد عامر أن يضحكه فكان يرد على أسئلته مرة بالحمد لله ومرة بالحمد لله رب العالمين وأخرى بالحمد لله على كل حال، وابتسم عوض ثم قال بأسى معلقًا: أرأيت ماذا كان نصيبي منها؟! وصمت قليلًا ثم أكمل: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. وخرج عامر من عنده متأثرًا، ولم يكذب خبرًا أمام رغبة عوض وأسرع يتصل بأصحابه واحدًا واحدًا، وكانت علاقته بهم جميعًا قد توطدت في الآونة الأخيرة، وكذلك علاقتهم بعضهم ببعض، وصاروا يتزاورون، ولبوا الدعوة فرحين منتظرين يوم الأربعاء الذي حدده لهم عامر، وهو اليوم التالي لجلسة عوض في

وحدة الكلى حين يكون في أحسن حال، وبعد ذلك أخبر عوض لئلا يرتبط في هذا اليوم بميعاد مع أحد. ووقع ما فعله عامر من عوض موقعًا عظيمًا وازداد حبًّا له، فهذا الشاب لا يتوانى لحظة عن العناية به حتى في أثناء شدة تأثر قلبه الرقيق بما صدر من سحر، وها هو يبذل كل ما في وسعه لمحاولة إسعاده.

وجاء يوم الأربعاء فخرج عوض وعامر عند الساعة الخامسة مساء إلى المقهى ليكونا في استقبال الأصحاب، ولكنهم كانوا قد سبقوهما إليه وهموا جميعًا واقفين بمرآهما، وكان لقاءً حارًّا، شكرهم عوض بتأثر على تلبيتهم دعوة عامر، ووجد وجهًا جديدًا يقف مع الواقفين، قدَّمه عامر قائلًا: أنور عبد الوهاب زميلي من المنصورة. وكان شابًّا ذا عينين خضراوين ووجه أبيض، وطويل بيِّن الطول. رحب به عوض ترحيبًا يليق بزميل لحبيبه عامر، ثم جلسوا في شبه دائرة وأمام كل اثنين طاولة نحاسية مستديرة، وانتصب أمامهم في الحال سونة، فضحكوا معًا لسرعة مجيئه، وبادره سامي قائلًا: صبرك علينا يا أخي. فرد الصبي مغنيًا: الصبر جميل يا جميل.. طلباتكم. ثم انتزع الطلبات من أفواههم انتزاعًا وتركهم غارقين في الضحك وقال: زبائن آخر زمن. فرد سامي بجدية قائلًا: ماذا تقول؟! فرد الصبي متملصًا وهو يضحك: لا.. هذه كحة. وقام خالد قابضًا بكلتا يديه على صلعته بزهق متصنع وصاح على المعلم قرني قائلًا: يا معلم صبيَّك خلاني أشد في شعري. فسرت بين الزبائن همهمة وضحكات مكتومة وداري المعلم ابتسامة خشية أن تحط من هيبته فيتناوله هذا اللسن بالنكات، ولكن حرصه لم ينجه من لسان خالد الذي

سأله فجأة والأنظار موجهة إليه تنتظر طرفةً: ألا يوجد هنا من يبيع لحمة راس يا معلم؟ وضغط على كلمة «راس» فانفجروا ضاحكين، ولم يتمالك عوض نفسه من شدة الضحك، ورد المعلم قائلًا: اسأل نفسك يا أفندي. يشير إلى صلعته هو الآخر، ثم نظر خالد إلى الصبي وقال بصوت عالٍ: أحضرت لك «البودرة» يا سونة. فارتبك سونة وقد تذكر دعابته حين طلب «البودرة» التي تحدد الأماكن لإسرائيل لقصفها، لكن المعلم قال له ساخرًا: «بودرة» يا فالح؟! فرد بسرعة: لا يروح مخك لبعيد يا معلم.. الكلام عن «بودرة» فيران.. كنت أوصيته عليها. وانتهزها خالد فرصة وقال: هذه «البودرة» إذا لصقت برأس الفأر سلخته تمامًا. فأولاه المعلم نظرة صارمة وقال: يبدو أنك نمتِ عليها. قالها وضحك عاليًا، فاغتاظ خالد الذي لا يسلم بالهزيمة وانتهز قول أحد الزبائن حين خاطب المعلم وقد انتشى برده على خالد قائلًا: والله أنت فاكهة المقهى يا معلم. فقال خالد: بطيخ يعني.. هاها. وترنح برأسه ضاحكًا، وانصرف المعلم بوجهه عنه حتى هدأت الضحكات ولم يعقب، وأخذ الحوار وجهة أخرى بدأه سامي فقال: أرأيتم ماذا فعل الأسد الجريح؟! فأدركوا جميعًا مقصده، وقد تداولت وسائل الإعلام هذا الوصف لأمريكا أكثر من مرة، ورد خالد: يا بابا أمريكا استثمرت الأحداث خير استثمار وبدأت في تنفيذ مخطط كبير. فرد عصام: أنا سمعت بطرس غالي يقول إن العرب إذا لم يتجاوزا حاجز الخوف فإن مئات المخططات في انتظارهم. وقال سامي: أرأيتم حين قصفت أمريكا مقر قناة «الجزيرة» في أفغانستان؟! فقال بهجت: الحمد لله لم يكن تيسير

علوني بها ساعتها.. هم مغتاظون منه لأنه ينقل بالصوت والصورة جرائمهم. وقال عصام: بل هم يدَّعون أن الأفلام التي تعرضها قناة «الجزيرة» لأسامة بن لادن تحتوي على بعض الإشارات سواء بحركات يده أو بعض الكلمات لأتباعه. وقال سامي: مهما كان فإنها حرب غير متكافئة. فقال خالد ساخرًا: وهل تسميها حربًا؟! إنها هجوم وليست حربًا.. فليس من جيش أمامها تحاربه. فقال عوض مشاركًا: يبدو أن الموضوع أكبر من أفغانستان، فكون بوش يسمِّي إيران والعراق وكوريا الشمالية محور الشر فهذا يعني أنه وضعها في الخطة. وقال خالد: لا.. إنهم بدأوا بالفعل، وماذا تسمي لجنة التفتيش الموجودة في العراق هذه إلا جر رجل؟! فرد سامي: واضح أنهم هم الذين زودوا العراق بأسلحة الدمار الشامل في أثناء حربها مع إيران، والآن لا يقبلون أن يلعب بهم صدام ويخفيها. فرد خالد بصرامة: لو كانت هناك أسلحة دمار شامل لكان صدام استخدمها في حرب الخليج أيام بوش الأب. فرد بهجت: المهم أن لجنة التفتيش خذلت أمريكا وأعلنت إحراز تقدم في المفاوضات وأنها لم تعثر على أسلحة دمار شامل. فقال عوض معترضًا: لجنة التفتيش ورئيسها البرادعي خاضعون لضغوط أمريكية لا قبل لهم بها، بدليل أنهم جردوا العراق من صواريخ «صمود II» رغم أنها لا تتعدى المدى المسموح به. ورد خالد: الداهية أنها طلبت من مجلس الأمن استصدار قرار يجيز استعمال القوة ضد العراق. وقال سامي مستنكرًا: وهل وافقت الأمم المتحدة؟! ثم أكمل: على العكس؛ رأت بالإجماع أن التعامل الدبلوماسي يؤتي ثماره، والدليل إعدام صواريخ

«صمود II». فقال بهجت ليظهر في صورة المثقف: مندوب التسويق توني بلير هو المؤيد الوحيد لأمريكا. ثم قال سامي منهيًا الحديث في السياسة: دعونا من هذا الحديث الآن ولننتقل إلى المرح مرة أخرى. ثم نظر إلى خالد وقال: الآن وجب عليك أن تُسمع الأستاذ عوض دعاء طالب اللغة العربية. فقال خالد وقد مد يده داعيًا: اللهم اجعلني فاعلًا للخير، مرفوعًا عن الشر، بعيدًا عن النصب، مضافًا لعبادك الصالحين، مجرورًا لتقواك، مبتدئًا بالسلام. وأعجب عوض بهذا الدعاء كثيرًا فقرر كتابته في ورقة أخرجها من جيبه ليريها لزملائه، ثم ظلوا لابثين في المقهى بين الجد ساعة والمرح ساعة حتى قضوا شطرًا كبيرًا من الليل، وعوض سعيد بهم وقد نسي آلامه وأحزانه، ثم نهضوا يتصافحون، وشد عوض على يد أنور بحرارة، وقال له أنور: تشرفني معرفتك. وأتمنى أن تشرف المنصورة بزيارتك، فقد وعدني عامر بذلك. فرد عوض: إن شاء الله. والشرف لنا. ثم انفض اللقاء على أمل التقابل من جديد في القريب وتصافحوا وعاد كل إلى دنياه.

31

فكرة شيطانية واتتها وهي في المطبخ، بالتأكيد ستكشف زيف الحب الذي يتظاهر به هذا الولد أمام أخيها، سيتعرى أمامه، ودفعت سهام بملء قبضتها من البطاطس إلى الزيت فشب وهج من النار فوق الطاسة ثم انطفأ. واختمرت الفكرة برأسها.. بل سيتعرى أمام الجميع، لن يستطيع التملص، وإن حاول فستكون العلاقة الزائفة بينه وبين أخيها قد حسمت. لن توجه الحديث لأخيها على انفراد، بل ستجعله أمام الجميع، وهي تضمن هذه المرة موافقة أخيها لأن النتيجة ستكون لصالحه، بل ستجعله هو الذي يسعى لطلبها وتنفيذها. وابتسمت لذلك. والآن ليس لديها مانع أن تعلم سحر، فمعرفتها المسبقة قد تنفعها. أليست هي الآن حبيبتها الوحيدة بعد أن تقلصت علاقتها بميرفت وشهيرة؟ بل هي واثقة أنها ستتهافت على تنفيذ هذه الفكرة، وستكون ممنونة لها بالتأكيد. وبعد أن تناولت الغداء اتصلت بسحر، وسألت عن سيد وقالت: والله أنا قلبي بقى متعلق بالولد الحليوة حبيب عمته، وملهوفة عليه. ثم راحت تقص عليها ما تنوي عمله، وأعجبت سحر بالفكرة أيما إعجاب. وسألتها سحر: متى ستأتين؟ فأجابت قائلة: لن أجعل الأمر يأخذ صورة النصيحة المباشرة فأنتِ تعرفين أخي. فردت سحر: وماذا ستفعلين إذًا؟ فأجابت: برأيي ألا نتعجل.. فعيد ميلاد هويدا بنت شاكر بعد أسبوع، يوم السبت 26 أكتوبر، وساعتها يكون الكلام على سبيل توارد الأفكار.

فقالت سحر بشغف: يا لها من فكرة.. بالتأكيد ستلقى استحسان عوض. وأنهت المكالمة.

وانقضى الأسبوع وجاء يوم السبت، وبدأ الإخوة يتوافدون إلى شقة شاكر، ومما أثار استغراب عوض إلحاح سحر وتعجلها في الذهاب، على عكس ما كان يحدث في السابق، وبعد العِشاء كان الجميع يلتفون حول «التورتة»، تتقدمهم هويدا التي أطفأت الشمع فارتفع صياح الأطفال والبنات، ثم حمل كل واحد طبقه وجلس يأكل في سعادة، غير أن النظرات المتكررة ذات المغزى لسحر وسهام بدت لافتة للنظر بالنسبة للجميع، ما عدا عوض؛ فهو يعرف ما طرأ على علاقتهما من تطور، وكثرة التزاور التي وصلت إلى حد إهماله في كثير من الأحيان. قالت شهيرة لميرفت توشوشها: سبحان مغيِّر الأحوال! وبدأ الحوار الجاد بعد ذلك حين سأل شاكر بأسى مشفقًا على عوض الذي بدا شاحبًا: ألم يخبرك الطبيب أنك بحاجة لنقل دم؟ فرد عوض قائلًا: المفروض أننا نتعاطى الحقن التي تحافظ على الدم، ولكن هذه الحقن شحيحة الآن. ووجدت سهام مدخلًا فقالت: أليس من الأفضل زرع كلى يا عوض؟! وأبدت سحر دهشة مفتعلة لما قالته سهام وقالت: صحيح يا عوض.. لماذا لم نفكر بهذا من قبل؟! فرد بإيجاز: بل فكرت. فقالت سحر: وما المانع؟ وردت سهام: عامر يحبك ولن يتأخر عنك إذا لَفَتْنا نظره. ثم قالت سحر مؤيدة: عامر ابن حلال وفعلًا لن يتأخر عنك. وتنبه عوض لما دبر من ورائه، وساءه أن تصبح سحر أرضًا خصبة لبذور سهام الشيطانية، التي لا تقصد خيرًا قط من وراء

الأفكار التي تطرحها، فقال لسهام وقد تظاهر بالهدوء ليرد إليها نفس السهم الذي أرادت به عامر لا أن تدفع شرًا عن أخيها: الحقيقة هم أخبروني أن خير تبرع هو تبرع الأهل لأن التوافق غالبًا ما يكون مضمونًا.. وبالفعل فكرت فيكِ أنتِ بالذات يا سهام، لأني أقدر حبك لي وأنتِ لن تبخلي على أخيكِ بشيء. فبهت الجميع وخيم صمت وحرج، وتبادلوا نظرات ذاهلة، وتغير لون سهام وتلعثمت ولم تستطع الرد، وقالت وهي لا تجرؤ على رفع وجهها لأخيها: لو كانت صحتي سليمة ما كنتُ لأتأخر عنك. فطاردها قائلًا: الأطباء هم الذين سيقررون. وضاق عليها الخناق وتصبب العرق من جبينها وقالت مجففة عرقها: أنا لست في حكم نفسي يا عوض. فابتسم عوض وقال لسحر ساخرًا: حاولي أنتِ.. اقنعي صاحبتك يا حبيبتي، وسوف أعوضها.. سأعطيها عشرين ألف جنيه. ثم قال ليحرجها أكثر: وأنا متأكد أن محمود لن يمانع. فقامت وقد شعرت بخزي وإهانة وتبعها محمود الذي لم ينبس ببنت شفة، واستوقفها عوض وقال: لحظة يا سهام.. أعرف أن مجيئك عندي سيعني أنك موافقة على عرضي.. وأنك لن تأتي في حال رفضك. فاندفعت خارجة وجذبت الباب بشدة.

الحقيقة أن عوض لم يكن يقصد ما عرضه عليها، وإنما أراد أن يغلق بابا قد يتسبب في شرخ العلاقة التي بينه وبين عامر، وهو الذي يرفض بكل قوة أن يتبرع له عامر حتى وإن داهمه الموت، أو كان عامر الرجل الوحيد الذي بيده أن يمنحه هذه الخدمة، وهو قد استؤمن عليه أمام الله فكيف يستغله بهذه الوضاعة التي

جاءت بها سهام؟! ومن أجل ذلك طلب منها عدم المجيء عنده، لإدراكه أنها لا تتورع عن التحدث إلى عامر في هذا الموضوع بكل صفاقة، أما إخوته فقد لاذوا بالصمت، وكثيرًا ما يكون الصمت أفضل من الكلام، حين يرمي الكلام بصاحبه إلى قاع الهاوية، الهاوية المعنوية إن رفضوا والهاوية الجسدية إن وافقوا، ولم يطمع عوض في يوم من الأيام من إخوته بمثل هذا العطاء، ولم يُمنِّ نفسه به لحظة واحدة، ولم ينقص ذلك من حبه لهم، فهو يقدر ضخامة هذا العطاء، أما سحر فقد أشفقت هي الأخرى على نفسها، فماذا لو طالبها بمثل ما طلب من أخته، وأدركت أنها أخطأت حين وافقت سهام علي هذه الخطة، فلا يجوز أن يطالب الإنسان غيره بما هو أحق بأدائه. وأراد عوض أن يلطف من الجو المكهرب بفعل ما أثارته سهام، فنادى هويدا وأخرج من جيبه الهدية التي أحضرها لها وقدمها لها، وكانت سلسلة ذهبية فرحت بها وقبلته. ثم عاد يوضح لأخوته بهدوء أنه بالفعل قد اتفق مع مستشفى الكلى بالمنصورة على زرع كلية له، وينتظر منذ فترة مخاطبتهم في حال وجود متبرع، وقد رصد بالفعل للمتبرع عشرين ألف جنيه، ثم راح يبرر ما فعله مع سهام، فهو قد ضاق ذرعًا بما تحيكه سهام باستمرار من حيل لخلق المشاكل مع هذين المسكينين اللذين أؤتمن عليهما أمام الله. وبعد أن ساد الهدوء نوعًا ما فتحوا التلفاز وكان ميعاد نشرة الأخبار. وبمجرد أن فتح التلفاز وطالعوا الأخبار عن اقتحام إسرائيل لجنين بأربعمائة دبابة وألف جندي واستدعاء عشرين ألفا آخرين من جنود الاحتياط.. بمجرد سماعهم ذلك نسوا ما حدث منذ قليل وقال حامد منفعلًا: تخيل هؤلاء المساكين وهم يواجهون جيشًا بهذا العتاد وهم لا

يملكون شيئًا. فقالت شهيرة: نحن هنا مشغولون بشراء لوازم رمضان الذي لم يبقَ علىَ مجيئه سوى عشرة أيام، وهم تهدم بيوتهم ويقتل أقرباؤهم ولا يجدون ما يقتاتون به. وقال شاكر: لم تجد إسرائيل ولا أمريكا من يردعهما.. أكتوبر الماضي أمريكا استعرضت قوتها في أفغانستان، وأكتوبر هذا العام إسرائيل تستعرض قوتها في جنين. فرد حامد: وهل اكتفت أمريكا بأفغانستان؟! إنها تريد ضرب العراق أيضًا. فقال عوض: قصدك مشروع القرار الذي تقدمت به لإجازة استعمال القوة ضد العراق؟ فقال حامد: نعم.. ألم يعنِ هذا أنها تبيت النية لضرب العراق؟! فرد عوض: لن يستطيعوا.. فالعراق ليست فريسة سهلة كأفغانستان، وأيضًا فرنسا وروسيا لوحتا باستعمال حق الفيتو ضد القرار. فقال شاكر: وهل سكتت أمريكا؟! لقد هددت فرنسا بإيقاف تسويق منتجاتها عندها؛ وبخاصة الخمور. وقال حامد: الغريب أن أمريكا تريد ضرب العراق بأيد عربية. فرد عوض: قرار جامعة الدول العربية كان واضحًا.. لن يشتركوا مع أمريكا في حال استعمال القوة ضد العراق. ونظر عوض إلى الساعة ونهض واقفًا، ثم قبل هويدا مرة أخرى قائلًا: كل سنة وأنتِ طيبة يا حبيبتي. وصافح حامد وشاكر وحرك يده لزوجتيهما قائلًا: سلام.

32

وجاء شهر رمضان بلا بهجة بسبب ما يجري وما يحاك للعرب والمسلمين، والشعوب تقوم بمظاهرات ترفض الحرب على العراق، ولكن ما من أحد يسمع أو يجيب. وبعد صلاة العشاء خرج عوض وعامر معًا، وقطعا طريق المغربلين ثم صعدا السلم الحديدي عند نهاية الغورية ليعبرا شارع الأزهر، وعندما استقرا أعلى الكوبري وقف عوض ليستريح، فأسند ساعديه على الدرابزين متطلعًا باتجاه جامع الأزهر الشريف، وقال وهو يلهث من التعب موجهًا حديثه لعامر الواقف بجواره: عندما كنتُ صغيرا في حوالي العاشرة من عمري أرسلني أبي لشراء علبة كبريت.. وذهبت على مضض وقتها لأنني كنت ألعب وعزَّ علي ترك اللعب.. فانتظرت بالباب هنيهة ثم عدتُ لأكذب عليه بأن دكان البقالة مغلق.

قال عوض ذلك ثم صمت فأطال الصمت، وكان عامر ينصت إليه بفضول لمعرفة النهاية، ثم استطرد عوض قائلًا: ويبدو أن الله قد شاء الآن أن يعاقبني على كذبتي هذه فجعلني أسمع كلامك وأقطع هذا المشوار مشيًا على الأقدام. فانفجر عامر ضاحكًا وقال: والله ظننتك تقول كلامًا جادًّا. ولما هدأ ضحكه قال: منذ زمن بعيد حين كنت كبيرًا قال لي والدي – رحمة الله عليه – إن أحببتَ أحدًا فاجعله يمشي كثيرًا فالمشي يفيد الجسم.

وهبطا الدرج بعد ذلك، وسارا خطوات داخلين في شارع المعز لدين الله مارين بمحلات العطور المزدحمة. ولأنهما كانا يسيران ببطء استطاع عوض التقاط بعض الكلمات، فقائل: جرامين أسانس سِكْرِيه مع الكحول اللازم يا أسطى. وقائل: ثلاثة جرامات أسانس بلو جينز مع الكحول يا أسطى. وكان الأسطى يلتقط زجاجة فارغة بحجم الكمية المطلوبة، ثم يضع الأسانس بها ويكملها بالكحول الأبيض ثم يضع السدادة ويرجها، ويتلقاها الزبون سعيدًا. وقال عوض مستغربًا وهو يرى ذلك لأول مرة: هل تعرف هذه العطور يا عامر؟ فرد عامر: أنا أشتري منها غالبًا فهي رخيصة. قال ذلك وابتسم ثم أردف: هي تعطي نفس رائحة العطر الأصلي، إلا أنها سريعة التلاشي وأيضًا تلسع الجلد. فسأله عوض وما الذي يجعل هناك فرقًا بينها وبين العطور الأصلية؟ فرد عامر: يقال - والله أعلم - إن الأصلية تعتق لأعوام كثيرة قبل أن تستعمل، أما هذه فلا نصبر عليها. وكانا قد عبرا شارع الموسكي وأصبحا مواجهين لمستشفى قلاوون للعيون والجامع الأثري الذي يحمل الاسم نفسه، واقتربا من السبيل الشهير وعلى جانبيه محلات بيع الشيشة وأواني الألمونيوم الذي تميز بها حيّ الجمالية، ثم دلفا يمينًا إلى شارع الدرب الأصفر بمبانيه الحجرية العتيقة ذات المشربيات البالغة الجمال، التي انتهت هيئة الآثار من ترميمها وإخراجها بشكل جميل، وبعد ذلك صعدا مبنى حديثًا نوعًا ما، يتكون من ثلاثة طوابق، والطابق عبارة عن شقة واحدة صغيرة، والسلم قائم كسلم المئذنة ولا يتسع إلا لفرد واحد.

استقبلهما سامي بحرارة. وما إن دخل عوض حجرة الجلوس حتى ألقى بنفسه على أقرب كرسي وراح يلتقط أنفاسه، كان عامر مشفقاً عليه وعلى نفسه، فهو الذي اقترح عليه فكرة المشي، والآن فقط أدرك أنه أخطأ التقدير لقدرات عوض الصحية، وقال لسامي مقرًّا بخطئه: أنا الذي عرضت عليه فكرة المشي وسأعاقب نفسي بالرجوع في تاكسي على حسابي. وقال سامي: معذرة يا أستاذ عوض أتعبناك اليوم. فقال عوض مبتسمًا: لا عليك.. ما ذنبك أنت؟! وعلى عامر تحمل المسؤولية كاملة، وسينفذ الحكم الذي ارتضاه لنفسه. وخرج سامي لإحضار بعض العصائر والماء. ثم جلس مع الضيف الذي يزوره لأول مرة، وسحب ورقة كانت ملقاة على الطاولة وناولها لعوض، كان بها دعاء طالب الهندسة، وكان قد أعده من أجله، وقرأه عوض ضاحكاً: اللهم اجعلني مستقيمًا في حياتي قائمًا للخير.. اللهم لا تجعلني منحرفاً واجعلني في زاوية عبادك الصالحين، وهو المطلوب يا رب العالمين، يا صاحب البرهان العظيم. ثم قرأ أسفله بيتا للشعر يقول:

جمع الأحبة عندي خير مسألة * فكيف أجبر عندي كسرك العادي

وقال سامي فجأة: هل علمتم أن العراق وافقت على التفتيش دون شروط؟ فقال عامر: الأمم المتحدة أصبحت أداة في يد أمريكا.. فكلمة «دون شروط» هذه يقصدون بها تفتيش القصور الملكية كما طلبت أمريكا. فرد سامي: وهل هناك إمعان في الذل أكثر من ذلك؟! فرد عوض: ألم يطلبوا أيضًا مائة عالم عراقي للتحقيق معهم هناك؟! وقال عوض: والأدهى قرار إنجلترا الذي تقدمت به، وكان من ست نقاط؛

أولاها ظهور صدام على شاشة التليفزيون واعترافه بامتلاك أسلحة دمار شامل وعزمه على التخلص منها. فرد عامر: كأن الكرة الأرضية أصبحت فجأة غابة لا تعرف الرحمة.

وانقضى رمضان والعيدان ولم تعرف السعادة طريقها إلى الكبار، فالكل يشعر أن الدائرة سوف تدور على بلده حتمًا.. ولكن كل بميعاد، ولم يطمئنوا حتى بعد أن رفضت روسيا وفرنسا قرار إنجلترا مما اضطرها إلى سحبه، فقد فاجأت أمريكا الجميع بأمرها لصدام بالتنحي عن الحكم، وقدمت قائمة بأسماء في مقدمتها الرئيس صدام كمطلوبين للمحاكمة، وفي الوقت ذاته باتت تحشد سفنها الحربية في الخليج العربي.

33

مضت الأيام بآلامها وآمالها، يعاني عوض من وطأة المرض المتزايدة، ولم تتحقق آماله بزرع كلى، وغدا تردده على مستشفى الكلى بالمنصورة متزايدًا، لا يوجد متبرعون تتوافق خلاياهم مع خلاياه، وكان يعجب من تسميتهم متبرعين، وكان الأولى أن يُقال أنهم بائعون، فالثمن وصل إلى أربعين وخمسين ألفًا.

وبدأ الاكتئاب يعرف طريقه إلى عوض، وزاد من وطأته هروب عامر منه في الأيام الأخيرة، إذ أصبح ينكر نفسه كثيرًا، فلا يرد على جرس الباب إلا بعد إلحاح، ويتعلل بكثرة المذاكرة، وأحيانًا يصادفه في الشارع فينظر إليه عوض بطرف عينه ولا يظهر رؤيته له، ليتحقق من ظنونه فيجده كما ظن يداري نفسه وراء المارة متأخرًا في السير حتى يمر. وأصبح تردده على سامي مبالغًا فيه، فأصبح يقضي معه الأوقات الطويلة بحجة أنهما في كلية واحدة، فسامي في السنة الرابعة هذا العام وهو في الثالثة، وقل ذهابه لعصام وقد عرف عوض ذلك من سؤال عصام عنه، وقال عوض لنفسه: ربما يكون قد حدث جفاء بينه وبين سهيلة. التي كان قد أفضى إليه مرة بإعجابه بها، ولكن ما ذنب عوض وماذا جنى ليجد منه هذا الإهمال القاسي، ووصل الأمر أنه كان يتعمد الذهاب إلى المطبعة للقيام بعمله بكتابة الكتب على جهاز الكمبيوتر في الأوقات التي يتأكد له فيها عدم وجود عوض، وهي أوقات جلسات الغسيل الدموي. ولم يجد عوض بعد تفكير مرير سببًا يجعل عامر يسلك

مثل هذا السلوك، وترك عقله مرتعًا للظنون، التي حدثتـه أن عـامر أدرك في الأيـام الأخيرة بحث عوض بصورة جدية عن متبرع ليعطيه كلى، وقد يكون هذا ما جعله يتجنب لقاءه مخافة أن يطلب منه هذا.

أما عامر فكان قد قابل هادي شاكر ذات يوم أمام باب عـوض واقـترب منـه يداعبه فقال له الطفل ببراءة: عمي عوض خاصم عمتي سهام بسببك. وحـين سـأله عامر عما حدث منها ليخاصمها عمه بسببه لم يجبه وجرى يلعب، ووقتهـا شـعر عامر بضيق شديد يجتاحه، فقد تكرر الخصام بين عوض وإخوته، وبخاصة سهام، بسببه، وهو يمقت أن يكون سببًا لفرقة الإخـوة بعـضهم عـن بعـض، ولهـذا قـرر تجنب الاحتكاك بعوض، لعل بعده يكون سـببًا للإصـلاح كمـا كـان قربـه سـببًا في الخصام، ومما ساعده على ذلك انشغاله بحالة والدته التي ازدادت سوءًا إلى الحـد الذي جعلها لا تغادر غرفتها إلا لقضاء الحاجة، وتردد في بادئ الأمـر علـى عـصام ليجد عنده متنفسًا، ولكنه لم يعثر عليه لكثـرة خروجـه إلى زمـلاء الكليـة، وكـان يقف نحو ساعة على السلم يتحـدث إلى سـهيلة الـتي أفـضت إليـه بمكنـون حبهـا وشوقها الذي تزايد بسبب قلة مرات حضوره ليأسه مـن وجـود عـصام، وقالـت لـه بصوت رقيق وتأثر وكأن الكلمات تخرج مـن قلبهـا مباشـرة: أريـد أن أراك فقط.. حتى وإن مررت بالشارع.. فلا تحرمني من رؤيتك. ورد عليها: أنتِ معي دائمًا لا تفارقيني لحظة لأنك مقيمة في قلبي. ثم أخبرها بأنه أخذ من عصام صـورة عائليـة ينظر إليها كلما اشتاق لرؤيتها، فقالت له بدلال: وماذا أفعل أنا إن اشـتقت إليـك؟

فأخبرها أنه سيعطيها صورة في المرة القادمة. وحول عامر بعد ذلك وجهته إلى سامي الذي ازداد تعرفًا به من خلال الكلية، وأصبح يقضي جل وقته عنده. يذاكر تارة ويتحدث تارة، ولم يكن هناك حرج من وجوده، فسامي ليس له أخوات، وكان يتذكر عوض ويشعر بالألم يعتصره وهو يتجنب لقاءه. وكان يقول لنفسه: أن أبدو له غير مبالٍ خير من التسبب له في القطيعة مع إخوته.

34

انصرم من شهر مارس عام **2003** م ثمانية عشر يومًا، ولم يدرِ عوض كيف ستجد السعادة طريقها لقلبه بعد ما شاهده في التلفاز بعيني رأسه في الأيام الخالية، وما إن وصل إلى المدرسة وأخذ مقعده بين زملائه حتى بدأ الحوار حول المجازر الأخيرة. قال الأستاذ نبيل: مظاهرات مستمرة في العالم كله، ولكن الحكومات أصابها الشلل التام. وأكمل سمير ما بدأه نبيل قائلًا: مذبحة حي الشجاعية ومذبحة بيت حانون الشهر الماضي، ومذبحة جنين هذا الشهر التي لا مثيل لها. فقال عوض مقاطعًا: خمسمائة شهيد في جنين، بخلاف المنازل التي جرفوها وأحالوا البلدة إلى خراب. فرد سمير قائلًا: لدرجة أن تيري رود لارسون مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة وصف المخيم كما لو كان بعد زلزال، وأن رائحة الجثث في كل مكان، وقال: ما رأيته لا يصدق، وأنه فصل حزين ومخجل في تاريخ إسرائيل. وقال نبيل: ومن فُجْر إسرائيل أنها لم تسمح لمجلس الأمن بإرسال فريق لتقصي الحقائق حسب القرار **1405**. فقال عوض وهو يتناول الشاي الذي جاء به عم منصور: المنظر الذي لن أنساه ما حييت هو قتل ناشطة السلام الأمريكية بالجرافة. وراح يصف ما شاهده كما رآه بدقة، وكأنه ما زال يحدث، قال: الجرافة تقدمت نحو بيت صغير في حي السلام في رفح لتهدمه على من فيه، وكان الأطفال يقفون أمامه، فأسرعت لتحمي الأطفال بصدرها، لكن الجرافة قتلتها بلا

مبالاة. وقال سمير: الذي أعجبني هو إصرار والدها على بقاء جثة ابنته في مستشفى أبو يوسف النجار في رفح لحين وصوله إلى قطاع غزة، وقال كلمة لن أنساها؛ قال: أنا فخور بما قامت به ابنتي. ثم أنهى عوض بعد ذلك بعض الأعمال وصلى الظهر واتصل من المدرسة بحامد أخيه وطلب منه الحضور مساء للذهاب معه لمصالحة سهام. وأحس بسعادة في نبرات صوت أخيه وهو يرد قائلًا: أحسن خبر أسمعه اليوم.

ثم ذهب عوض إلى مستشفى أحمد ماهر، فاليوم الثلاثاء موعد جلسة الغسيل الدموي، ومضت الأربع ساعات على خير ولم يحدث هبوط في ضغط الدم اليوم من حسن حظه، ثم رجع إلى البيت لينام ساعة استعدادًا للذهاب إلى أخته.

وفي المساء اشترى عوض هديتين؛ واحدة لمراد والأخرى لسها، وخرج برفقة زوجته دون مديحة التي ذهبت إلى أمها. ركبا سيارة حامد الذي حضر حسب ميعاده مع عوض، وانطلقوا إلى شارع القلعة ومرقوا من تحت كوبري السيدة عائشة إلى شارع صلاح سالم قاصدين المقطم؛ حيث تقيم سهام، وبانت السعادة في عين سهام وهي تستقبلهم رغم تظاهرها بالزعل. وداعبها عوض قائلًا: أنا وأنتِ سنظل هكذا كالقطط نتصارع.. لكن لا يستغني أحدنا عن الآخر. ثم قالت باكية: لا يا عوض، أنت استغنيت عن أختك الوحيدة.. ولم تعد تطيق كلمة مني. فقال لها: لازم تقدري ضيقي من المرض اللعين هذا يا سهام. ثم استطرد قائلًا: أنتِ تتعمدين إثارتي باستمرار. فقالت معاتبة: وهل أنا غلطت لما لفَتُّ نظرك لحاجة تهمك؟!

فقال: لا.. ولكن كلامك عن عامر باستمرار يضايقني. فقالت: أنا أقول ما أراه في مصلحتك، ولك أن تفكر وتختار دون غضب. فقال لها: منذ الآن لن أغضب وسأناقشك في ما تقولين. ثم قال لها وهو يبتسم: خلاص ابتسمي وافردي وجهك إذًا. فضحكت وقالت: أنت أخي حبيبي وخوفي عليك هو ما يدفعني للبحث عن مصلحتك. ثم انتهزتها فرصة للهجوم وكانت قد علمت بإهمال عامر لعوض وضيقه من ذلك فقالت: الحب أعمى يا عوض، والمحب لا يرى مساوئ حبيبه.. وأنت تحب عامر ولم ترَ عيوبه. وظهر الضيق على وجه حامد مخافة أن يثور عوض مرة أخرى، فلا داعي للخوض في هذا الكلام مرة ثانية، حيث لا جدوى من الكلام. ولكنها استطردت قائلة: أنا كالحكم في المباراة.. أقف خارجها وأحكم حكمًا صحيحًا.. ولهذا أطلب منك فقط من واقع خوفي عليك أن تلاحظ عامر هذا بحياد بعيدًا عن المشاعر، وستجد أن ما أقوله صحيح. فوعدها بذلك، وشعرت بحلاوة النصر لأول مرة مع عوض، وأسرعت تحضر البسبوسة والحجازية والمعمول وقدمتها سعيدة، وكان مراد وسها قد تناولا هديتيهما واندفعا إلى غرفتهما بسعادة بعد أن قبّلا خاليهما.

أما سحر فقد كانت مكالماتها مع سهام قد قلت منذ المشادة الأخيرة بينها وبين عوض، ولم يضايق سهام هذا فهي ذكية إلى حد إدراك علة كل رد فعل من كل فرد، فسحر إنما فعلت ذلك لئلا تثير حفيظة زوجها الذي يسألها من وقت لآخر عمن اتصل بها، أو إن كانت هي اتصلت بأحد من إخوته فتطمئنه، وهي لا تكذب

قط على عوض، ولهذا فضلت عدم الاتصال حتى لا تضع نفسها في حـرج. وتناولـت منها سيد وراحت تداعبه ملقية إياه لأعلى ثم تتلقاه وهو يـضحك والجميـع سـعيد بذلك، غير أن سحر بدا عليها الخوف وقالت لهـا: نـاوليني الولـد يـا سـهام، أنـا لست مستغنية عنه.

وبعد قليل حضر محمود وفي يده أكياس الفاكهة فوضعها على طاولة السفرة وعانق عوض بشدة، وهو يقول: أوحشتني جدًّا. ثم صافح حامد الذي مد يده دون أن ينظر إليه، وكان مشغولًا بنشرة الأخبار، ولم يشعر حامد إلا وقد هزه محمود بقوة في أثناء المصافحة، وقال حامد يعلل انشغاله: أمريكـا أعطـت صـدام مهلـة ثمانيـة وأربعين ساعة ليتم نفيه أو الضرب. وذهل الجميع من الخبر.

35

صحا عوض في نحو التاسعة من صباح اليوم الخميس، لا يوجد بالبيت من يقدم له شيئًا يقتات به، فسحر ذهبت مبكرًا إلى درب الأتراك بحي الأزهر، وكانت مديحة قد سبقتها إلى هناك منذ يومين، اليوم يوم مديحة الذي كانت تنتظره طوال حياتها، فليكن يومًا يليق بفرحتها وفرحتنا معها، وتذكر تعنت المعلم خضر حين جاءهم يطلب يدها، بدا أمامهم كمن يعقد صفقة؛ ألقى الشروط بوجه مقطب وتلقاها الحاج فتحي بوجه باسم، ناقشها معه وناصر وعوض يحاولان تقريب المسافة بين هذا وذاك، ولكن دون فائدة، فأدرك ناصر ما تنطوي عليه نية المعلم خضر، وأيضًا أدركها أبوه، غير أن عوض لم يكن لديه فكرة عما حدث من رفض المعلم خضر من قبل، وها هو ذا يبذل محاولة أخيرة لعله يستطيع أن يجعل الرفض يأتي من الطرف الآخر، ولولا علم الحاج فتحي وابنه ناصر عن تعلق مديحة بهذا الشاب وأيضًا تعلقه بها لكان لهما شأن آخر، ولهذا ضغطا على نفسيهما ووافقا على الشروط التي أملاها عليهما إملاءً، فالزواج ليس قبل عامين، والمؤخر ثلاثة آلاف جنيه، والشبكة هدية الزوج للزوجة ولا يجوز الاشتراط عليها، وعندما سأله الحاج فتحي هل فعل ذلك مع بناته فقال: كل حي وكل حين وله ظروفه. فأدركوا ما تنطوي عليه كلمته من إهانة لمديحة، ولكن لا مجال الآن للدخول في مشاحنات هو الرابح الوحيد من حدوثها، فقط كانت تلوح على وجوههم

سحابة من غضب سرعان ما يضبطونها بالصبر، حتى عرفة فقد هم في كل مرة بأن يقول شيئًا، لكن ناصر الذي يجلس بجواره كان ينبهه بضغطة على فخذه، وكان عرفة يسترجع في الحال نصيحة ناصر له من أن والده قد يحاول خلق مشكلة لإفشال الخطوبة فيدعي أننا من أفشلها. وطلب المعلم خضر أن يقام حفل الخطبة في نادٍ، وفي وجود فرقة كبيرة وطعام يشرفه أمام المدعوين، وكانت تكاليف حفل الخطبة على العروس، أما حفل الزفاف فقال: وقتها نتكلم. وكان أشد صعوبة في أثناء الاتفاق على العفش. ومر اليوم بسلام.

قام عوض وفتش في الثلاجة عن شيء يغير به ريقه، فعثر على قطعة جاتوه فتناولها وخرج إلى المستشفى، وهناك وجد زملاء المرض؛ وما إن جلس على مقعده الذي اعتاده حتى أخبروه بموت الطفل أبو سعدة في حادث سيارة، فبكى وحزن حزنًا عميقًا، وقال في نفسه: سبحان الله لم يمت بالمرض ومات بسبب آخر لم يكن في الحسبان. ثم قال يحدث نفسه: ربما أراد الله أن يرحمه من عذاب هذا المرض وينتله مباشرة من الشقاء إلى النعيم، فهو لم يزل طفلًا ولم يدنس بذنب. عزَّى نفسه في هذا الطفل بهذه الكلمات، ولم تشهد هذه الجلسة بين الوجوه الواجمة سوى الصمت والدموع، وكأن المرح قد لم أذياله ورحل. وغادر عوض المستشفى إلى البيت فعرَّج على شقة عامر وهو يعلم بعدم وجوده، فقد لمحه دون أن يراه الآخر وهو خارج وفي يده بعض الأوراق، وأعاد رن الجرس مرات فخرجت أم عامر تجرجر قدميها، وهاله أن يراها على هذا الحال فاعتذر لها عن إزعاجها

وسألها: ألا تتعاطين الدواء؟! فردت بل أواظب عليه. وسألها عن عامر قائلًا: كيف حال عامر؟ أنا مشغول هذه الأيام ولا أراه. فردت: الحمد لله بخير بوجودك. فقال لها: كيف حاله في المذاكرة؟ فقالت: والله يا ابني الشغل الجديد أخذه من المذاكرة كثيرًا. فقال: أي شغل؟! فردت: مكتب الكمبيوتر. فهز رأسه متذكرًا. وكان عوض يظن كما أفهمه عامر من قبل أنه يعمل به عملًا خفيفًا، فعدد مرات ذهابه قليلة لا تؤثر على المذاكرة. وسألها عوض: وأين ذهب الآن؟ فقالت: يسأل عن شقة المحافظة، فقد أخبروه الأسبوع الماضي أن ميعاد تسلمها قد قرب. وتركها عوض بعد أن أوصاها ألا تخبره بمجيئه. وشعر عوض بغثيان وضيق شديد، لم يكن يتصور أن ينشغل هذا الشاب عن أمه إلى حد أن أصبحت في مثل هذا الهزال والوهن، ويخرج ليبحث لنفسه عن شقة! وهز عوض كتفه ساخرًا وهو يقول لنفسه: أكلما حدث خلاف خرج يبحث عن شقة؟! وأقسم عوض على نفسه أن يتركه وشأنه وليرى ماذا يفعل حين يتسلم هذه الشقة. وأحس عوض بأن غشاوة قد أزيلت عن عينيه وصار يبصر الأمور على حقيقتها، ويبدو أن كلام سهام كان صحيحًا، وأن قصوره عن فهم عامر على حقيقته لم يكن إلا بسبب أنه لم يعطِ نفسه فرصة للتفكر في تصرفاته، فهو لم يكن يراه كما هو، بل كان يراه كما يحب أن يكون، وشتان ما بين الاثنين. فها هو يبدو أنانيًا إلى حد ترك والدته بمرضها وهزالها وخروجه للبحث عن أمور تخصه هو فقط، إن لم يكن هذا صحيحًا فلماذا يشغل نفسه بالعمل الكثير في مكتب الكمبيوتر وهو ليس في حاجة إلى مثل هذا

المال؟ فعوض هو الذي يحضر دواءها بانتظام، وقد عرف ما تحتاجه كل شهر من هذا الصنف أو ذاك، ربما يخطط فقط للمستقبل مع سهلية حبيبته، ولماذا أيضًا هرب منه وصار يتجنب لقاءه عندما علم أنه يبحث عن متبرع لإجراء عملية زرع كلي؟!

حاول عوض التخلص من أفكاره المؤلمة وهو يسير بسيارته إلى لاظوغلي ليتناول الغداء مع شاكر كما اتفق معه. وعند شاكر في الصالة جلسا يتحدثان، وأذهل شاكر أخاه عوض بخبر بدء حرب أمريكا وإنجلترا حليفتها على العراق في الساعة الرابعة والنصف من فجر اليوم، وشاهدا في التلفاز أخبار الحرب التي بدأت باستعراض أمريكا وإنجلترا قوتهما بإسقاط مئات الأطنان من المتفجرات على بغداد، كان لهيب المتفجرات يتصاعد إلى السماء وصوتها يصم الآذان. أغلق شاكر التلفاز وقد بدا التأثر الشديد على وجه عوض، ثم حاول تغيير موضوع الحديث فسأله عن طريقة يساعد بها مديحة، وقد قطع عليهما الحاج فتحي كل سبيل حين قال: هي عندي في مكانة سحر ابنتي، وأنا متكفل بها. وأراد الحاج أن يلفت أنظارهما إلى شيء شغل باله فقال لهما: ربما تكون مديحة فرصتي الأخيرة وربنا يعطيكما العمر فتتوليان مع ناصر أختها هدى وشيرين. فقالا في نفس واحد: في حياتك يا حاج إن شاء الله. وبينما هما يتحدثان أقبل هادي وفي يده كتاب العلوم وقال لعمه: مكتوب في كتابي أنهم اكتشفوا حجر المغناطيس منذ مائتين وخمسين عامًا، وأيضًا كان ذلك مكتوبًا في كتاب أختي هويدا القديم لما كانت في الصف

الخامس.. فلماذا لم يغيروا هذا التاريخ؟ فقهقه عوض ضاحكاً وفكر قليلًا ثم قال له: لو كان معك عشرون دستة من الأقلام وسألك أحد كم معك ستقول عشرون أليس كذلك؟ فرد الطفل: نعم. فقال عوض: ولو زادوا قلمًا آخر.. فكم دستة ستكون معك؟ فقال الطفل: عشرون دستة وقلم. فضحك عوض وقال: سأخبرهم بخطئهم يا هادي. ثم قبَّله بإعجاب.

وبعد العصر خرج عوض وتبعه شاكر بأسرته إلى نادي الخالدين بالدراسة فوجدا ناصر ووالده الحاج فتحي هناك، أما مديحة فقد كانت في «الكوافير» برفقة سحر ومروة زوجة أخيها وهدى أخت مديحة وعطيات، وبعد المغرب حضر حامد وأسرته وانضم إليهم، في حين انتظرت زوجته مع النساء، وبعد قليل دبت الحركة في النادي واشتد الزحام، وكان معظم المعلمين بسوق الخضار قد شرفوا بعائلاتهم، وامتلأ المكان بالضجيج والسعادة، والبنات يستعرضن بجمالهن وملابسهن الأنيقة، ويستعرض الشباب بأجسامهم وجرأتهم في التحدث إلى الكبار بثقة، ثم ساد الهدوء فجأة فالتفتوا فإذا بالعروس قد هلت كالبدر يتأبطها عرفة بذراع يحضن ساعدها إلى صدره، تتقدمهما الفرقة تعزف الموسيقى وتدق الطبول، فأسرعت النساء وأحطنهما وأقبل الأطفال حولهما يصفقون، حتى وصلا إلى «الكوشة»، وبدأت الفرقة تقدم عروضها الرائعة على صوت مطربها الرخيم الذي راح يتغنى ببعض الأغاني الشهيرة، ومديحة لا تكاد تصدق نفسها من فرط السعادة، فلم تكن تحلم قط بمثل هذه الليلة، أما أمها سعدية الخياطة فقد انتحت جانبًا وراحت تبكي، ثم جففت

دموعها وشقت طريقها إلى الحاج فتحي وانكبت على يده تقبلها وهو ينحي يده بعيدًا قائلًا: هذه ابنتي يا سعدية لا تقل معزة عن سحر. ثم ذهبت إلى حيث يجلس النساء فالتقت بسهير وتفيدة وسألت عن نيفين فقالت لها سهير: مع البنات. والحقيقة أنها كانت قد تركت الجميع على حين غفلة، وسارت تتمشى مع حبيب طال انتظاره، فثروت لا يقل عنها شوقًا وهيامًا، وبينما هما يسيران لمحتهما عطيات دون أن يفطنا إليها. وبعد أن نهلا من كأس الحب حتى ارتويا عادا إلى الحفل وكل منهما يتخيل نفسه في «الكوشة» مع الآخر. وجلس عرفة طوال الوقت مشغولا بمديحة، يميل إليها برأس ممطوطة وفمٍ لم ينقطع عن الوشوشة إلا حين انتهت الحفلة.

36

أنهى عامر عامه الدراسي الثالث بتقدير جيد جدًّا كالعامين السابقين، ولكن عوض لم يعره أي نوع من الاهتمام هذا العام، اللهم إلا تهنئة من وراء الباب لأمه في غيابه، وقد أخبرته مديحة بخروجه حيث رأته يسير متعجلًا متأبطًا حقيبة صغيرة، قال عوض لأم عامر التي ازداد جسمها نحولًا ووجهها شحوبًا عن ذي قبل: ألف مبروك لعامر. فردت بوجه لا تبين عليه علامات السعادة بالنجاح: الله يبارك فيك ويعطيك الصحة حتى ترى سيد مثله بل أحسن. وسألها وقد ساوره سؤال عن سبب حزنها في ظرف يستوجب السعادة: وأين هو؟ فقالت: راح إسكندرية في مشوار. فهز رأسه علامة على إدراكه سبب حزنها رغم نجاح ابنها، فها هو يتركها ويتسكع هنا وهناك بحثًا عن المتعة الخاصة متجاهلًا هذه المسكينة، وما أحلى الذهاب إلى الإسكندرية في شهر أغسطس حيث الحر الذي لا يطاق. ولاحظت أم عامر وقوف عوض ساهمًا فقالت: الله يعطيك العافية يا عامر يا ابني. ثم نظرت إلى عوض الذي انتبه لها وقد أردفت: تعب كثيرًا هذا العام. فهز رأسه بسخرية قائلًا: وماذا أتعبه؟ فقالت وقد بان عليها الإرهاق: شغل وسفر ومشاوير للمحافظة، وحاجات كثيرة يا أبو سيد.. ربنا يعطيك ويعطيه الصحة. وكتم عوض سخرية أخرى حين سمع كلمة مشاوير للمحافظة، فقد لاحظ عليها نظرة مستغربة من السخرية الأولى، كان يشعر بتقزز من التجاء عامر إلى المحافظة بحثًا عن شقة

كلما حدث خلاف، وشعر بشفقة الأم عليه فهي لا تريد إدانة ابنها رغم ما يفعله، بل تلتمس له العذر بتركها والذهاب إلى الإسكندرية بحثًا عن المتعة. وسألها عوض إن كان ينقصها شيء فقالت بامتنان: الله يسترك يا أستاذ.. مستورة بفضلة خيرك. وتركها شاعرًا بالإشفاق عليها وبالحنق على عامر.

وكان عامر في هذه الساعة راكبًا القطار في طريقه لعروس البحر المتوسط، برفقة بهجت وعصام اللذين ظل يفتقدهما طوال فترة الدراسة ولم يلاقِهما إلا عندما انتهت الدراسة. نظر عامر إلى عصام وسأله بإعجاب: من أين عرفت كل هذه المعلومات؟ فقال: من صديق لخالي بهاء صادفت لقاءه حين زرته منذ شهر تقريبًا. فرد عامر وسأله: تقصد أنك كنت في الإسكندرية من شهر؟ فقال: نعم. فرد عامر: إذًا أتعبتك معي. فقال عصام: بل أمتعتني معك. وعاد عامر فسأله: ما عمل هذا الرجل؟ فرد: صاحب محل العطارة الشهير «عطارة الشفاء». فهز عامر رأسه علامة المعرفة، وقد تذكر الإعلانات عنه في التلفاز، وانتبه بهجت حين سمع كلمة عطارة فقال دون أن يعلم مجرى الحوار: الآن الأدوية حلت محل العطارة والتخصص أفضل من المعلومات العامة. فضحك عصام وعامر في وقت واحد وكانا يرقبانه وهو يثبت عينيه تجاه فتاتين في المقعد المجاور، وكانت إحداهما تبادله نظرة بنظرة، والآن يريد استعراض معلوماته أمامها ويبين لها الكلية التي ينتمي إليها، فكلية الطب كما توقع ستضفي عليه جاذبية أكثر، فدخل في الحديث دون أن يقف على موضع الفكرة، ورد عامر يتجاهله موجهًا حديثه إلى عصام: أراك وقد أصحبتَ

تهتم بكل جوانب المعرفة؟ فقال عصام يشرح له: كل معلومة في أي مجال مهمة مهما خيل إلينا أنها تافهة، ولها وقت نحتاجها فيه.. وكما يقال المثقف هو الذي يعرف شيئًا عن كل شيء والمتخصص هو الذي يعرف كل شيء من عن شيء واحد.. فالمثقف كالواقف يرى الساحة من بعيد يعرف ما يحدث بها جميعا، وإن لم يقف على التفاصيل الدقيقة. ثم نظر إلى بهجت بطرف عينه واستطرد قائلًا بتقزز متكلف: ولكن المتخصص كالواقف في شق صغير بحجم هذا. ورسم خطًا بسبابته اليمنى على راحته اليسرى. ثم أردف: لا يرى من الساحة إلا الموضع الذي يقف فيه.. فالثقافة ضرورة للجميع؛ للطبيب والمدرس والمهندس والعامل على حد سواء، وإلا نكون قد فصلنا أنفسنا عن الواقع الذي نعيش فيه. ثم قام عصام ذاهبًا إلى دورة المياه لا لقضاء حاجة ولكن لشيء آخر أضمره في نفسه لغيظه من بهجت الذي تطورت نظراته إلى الفتاة فأصبحت ابتسامات، وما إن ذهب ناحية دورة المياه حتى عاد دون أن يدخل، وحين وصل ما بين مقعدهم ومقعد الفتاتين قال موجهًا حديثه لبهجت: أنا ما زلت غير راض عنك يا أسطى بهجت. فاتسعت عينا بهجت دهشة ولم يعرف كيف يرد، وقد هاله أن ينعته بكلمة أسطى، وقال عصام يستطرد: شوهت رأس أخي بالأمس، حتى إن أبي أمرنا من شدة الغيظ أن لا نحلق عندك مرة أخرى. وابتسم بهجت بغيظ وقد أدرك خبثه فقال مستنكرًا: أنا حلاق؟! فرد عامر وقد رسم على وجهه الغضب: أتتبرأ من مهنتك يا أسطى بهجت؟! فقال رجل عجوز كان يجلس أمام الفتاتين: يا ابني ليس عارًا أن تعمل حلاقًا أو حتى زبالًا ما

دام عملًا شريفًا فلا تخجل منه. وحبس عصام ضحكة وشماتة حين اشترك العجوز في الحوار، واستدارت الفتاتان ناحية شباك القطار وقد كتمتا ضحكتيهما بمنديل غطى الفم والأنف، أما عامر فقد جلس يهتز من عنف الضحكة المكتومة التي اجتاحته.

وترامى إلى أذنهم الحوار الساخن في المقعد الأمامي عن الحرب الدائرة في العراق. قال أحد الجالسين: يا سيدي عملية التفتيش عن أسلحة دمار شامل كانت خدعة حددوا فيها الأماكن الحيوية بعد أن خلصوا البلد حتى من الأسلحة العادية. وقال آخر: يا أخي الأمم المتحدة جهة مستقلة بذاتها وليست خاضعة لأمريكا.. ألم ترَ كيف كانت معارضة للحرب؟! ورد ثالث: أليس في لجنة التفتيش هذه أمريكان؟ واستطرد قائلًا: بالطبع نعم.. وهؤلاء يعملون جواسيس لبلدهم.. ومجرد تحديدهم للأماكن الحيوية بأي وسيلة يعتبر إنجازًا كافيًا. فرد آخر: لو كان الأمر كذلك لانتهت الحرب بعد يومين لا عشرين يومًا. فرد رابع بجوارهم: العجيب أن وزير الإعلام العراقي محمد الصحاف كان يكذّب الأخبار الأمريكية باستمرار على أرض الواقع. وقال الأول: والله ما أخشاه أنهم يكونون قد استعملوا اليورانيوم المشع كالحرب السابقة فيصاب آلاف من الأطفال بالسرطان. فرد آخر: يا سيدي توقع كل شيء.. أنا توقعت أن العراق قد انتهى من ألسنة النار المتصاعدة إلى السماء في كل مكان وما تتركه أطنان المتفجرات من حفر في الأرض تصل لعشرة أمتار. وقال الثاني: الأغرب هو انتهاء الحرب فجأة بعد صمود واحد وعشرين يومًا. فقال

الثالث: ربما يكون صدام كما قيل قد عقد صفقة مع أمريكا من خلال روسيا وفر إلى روسيا ناجيًا بنفسه. فرد الرابع: لا يا أخي لن يكون نذلًا إلى هذه الدرجة.. ربما يكون الجيش هو الذي خانه، خصوصًا أنه كان يحكم بالحديد والنار ولم يكن محبوبًا بل كان مهابًا. وقال الأول: وما ذنب قناة «الجزيرة» تطاردها أمريكا كما لو كانت جزءًا من الحرب؟! فرد آخر: في أفغانستان لم يصب أحد، ولكن هذه المرة استشهد طارق أيوب. فرد الثالث: الضرب في الحالتين مقصود، فأمريكا تنتقد قناة «الجزيرة»، وعلى لسان رئيسها شخصيًا، لأنها تفضح أفعالهم المخجلة من قتل الأبرياء والدمار الشامل الذي تخلفه. وقال الرابع: الشعب العراقي لم يعجبني حين ضربوا تمثال صدام بالأحذية عندما أسقطته أمريكا في وسط بغداد. فرد الأول: إسقاط التمثال لقطة تليفزيونية إعلامية.. وإلا لماذا اختاروا هذا التمثال بالذات ويوجد غيره الكثير؟ وصمت قليلًا ثم تابع: لأن هذا التمثال يقع أمام فندق فلسطين بوسط بغداد الذي يضم جميع مراسلي القنوات الذين سيصورون الخبر بالطبع. وقال آخر: أمريكا في العراق وإسرائيل في فلسطين والعرب يتفرجون. فرد الثاني متذكرًا: قصدك مذبحة حي الشجاعية التي مات فيها سبعة عشر شهيدًا منهم طفل رضيع وثلاثة أشقاء من عائلة أبو هين؟ فرد الآخر: والكثير غيرها. فقال الأول: أنا أتوقع انهيار الأمم المتحدة بعد هذه الحرب؛ لأن أمريكا تحدتها هي وإنجلترا وضربت بقراراتها عرض الحائط. فلا مصداقية لها بعد الآن. فرد الأول: لم تعد هناك قوة تسود العالم سوى أمريكا.

كان القطار قد اقترب من دمنهور، وتسلل النوم بسطوته التي تعادل سطوة أمريكا إلى كل المحيطين، حتى أولئك الذين كانوا منخرطين في الحوار الساخن، وأيضًا نام بهجت وعصام، وراح عامر ينظر إلى الحقول المترامية عبر زجاج النافذة العكر، وهو يبحث في ذهنه عن سبب يجعل عوض يأخذ منه مثل هذا الموقف الحاد، لم يفعل عامر شيئًا يستحق مثل هذا الرد، كل ما فعله هو تجنبه والتهرب منه لئلا يكون سببًا في مقاطعته إخوته، وكان يجب أن يدرك ذلك، ولكنه قد يكون أدركه وآثر السلامة محبذًا البعد، ولكن ما أرَّقه هو عدم رضا أمه وقلقها عليه، رغم أنه وضح لها الصورة كاملة وأنه لا داعي للقلق إطلاقًا، فالأمور ستسير على خير ولكن ينقصها رضاها.

ووصلوا إلى الإسكندرية فنزلوا عند بهاء خال عصام، وأحسوا بالحرج، فقد بدا الجو غير مناسب للاستضافة، حيث كان الطبيب عندهم يفحص فاطمة ابنة خال عصام، ولكن سرعان ما زال هذا الحرج حين حاول الطبيب مداعبة الطفل الصغير محمد، فحاول إخافته ناظرًا إليه وقد قلص عضلات وجهه وأوسع عينيه فرد الطفل ببراءة: أنا لا أخاف.. لا أخاف من شيء.. حتى الحمار لا أخاف منه. فاعتدل الدكتور واقفًا فجأة وقد صدمته الكلمة وقال: الله يكرمك يا ابني. وانفجر الجميع ضاحكين، ما عدا الأم التي نهرت الطفل والدكتور يقول لها: دعيه إنه طفل بريء. ولقوا ترحابًا جمًّا من الخال بهاء، وقضوا بالإسكندرية يومًا وليلة ثم عادوا سعداء راضين.

37

مد يده وتناول ثمرة موز وقشر جوانبها الثلاثة حتى المنتصف ثم راح يقضم منها في تلذذ، وقال وهو يبدو غير مبالٍ: نعم هذا قراري الأخير. فرد شاكر مندهشًا: لكنني ظننتك آخر من يقبل على مثل هذا العمل. فضحك وهو يقشر الجزء المتبقي من الموزة وقال: إذًا لم تصنفني بعد كرجل. فابتسم شاكر وقال: لا أخفي عليك أنني لم أتخيلك مجرد تخيل تمتلك مثل هذا القدر من الجرأة والشجاعة. فرد حامد قائلًا وهو يتلمظ: أفهم من ذلك أنك توافقني على هذا الأمر. فرد شاكر بسرعة: لا أوافقك ولا أعارضك.. أظن أنك لم تعد فردًا بل جزءًا من أسرة، والأسرة كلها لها حق التصويت بنعم أو لا. فقال حامد مقطبًا: لم أحدث أحدًا في هذا الأمر بعد؟ فقال شاكر: أعتقد أن زوجتك سترفض بحسم.. وأنا سأقدِّر موقفها الرافض حينئذ لأن هذا سيكون من حقها. فقال حامد بجدية: بل هذا الأمر يخصني أنا، وهي حرة في نفسها. فرد شاكر: هذا هو التفكير الخطأ.. فلا يجوز أن تعتبر نفسك فردًا حرًا.. أنتِ جزء من كل والكل هو الأسرة، وهذا الأمر يخص الأسرة كلها، لن يقف ضرره – إن كان هناك ضرر لا قدر الله – عليك وحدك، وإنما على الجميع. وقال شاكر له يسأله: وهل أخبرت عوض بذلك؟ فرد: لا.. بل سأجعلها مفاجأة له ليعرف أنني رجل. فضحك شاكر وقال: إذًا ستتغير رأيه فيك. فقال حامد: ألم ينعتني دائمًا أنني أنقاد وراء زوجتي؟! ثم استطرد قائلًا: بالتأكيد هو سيكون واثقًا

أن زوجتي ستكون رافضة لهذا الأمر.. وسيرى كيف أنني نفذت قراري بكل جرأة دون الاهتمام بمعارضة أحد حتى زوجتي. وضحك عاليًا ثم جاءت شهيرة تحمل صينية الشاي فصمتنا للحظة ثم حولا مجرى الحديث، فقال حامد بصوت أعلى من ذي قبل: قتلت أمريكا عُدي وقُصي ولدي صدام من قبل، والآن تضغط على الاتحاد الأوروبي لمقاطعة المقاومة الفلسطينية المتمثلة في «حماس» و«الجهاد الإسلامي» استجابة لكلام شارون الذي أعلنه حين قال يجب أن نجفف المستنقع ليختفي البعوض، يقصد منع التمويل للقضاء على مجاهدي حركتي الجهاد وحماس. فرد شاكر: وفي النهاية الاتحاد الأوروبي خضع للضغوط الأمريكية واجتمع يوم الرابع والخامس من سبتمبر لاتخاذ قرار وموقف منهما. فقال حامد ساخرًا: نحن نعيش في عصر يحكمه قانون الغاب فالبقاء للأقوى. وقال شاكر: لكن هناك مدبر أعلى للكون. فقال حامد: لن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأمريكا لم تجد من يعارضها بصورة جدية من العرب، ولهذا بدأت تلاعب سوريا لعبة القط والفأر؛ مرة تمتدحها ومرة تهددها. فقال شاكر: نعم.. ولهذا طالب جون كيري بإدراج سوريا ولبنان في قائمة ممولي الإرهاب. فرد حامد: عندهم المقاومة للاحتلال إرهاب، والاحتلال وما يفعله من قتل وتدمير حق!! وقال شاكر: لكن لا يفوتهم أن يخدروا العرب من فترة لأخرى بقرار لا ينفذ مثل إدانة بناء الجدار العازل على الأرض الفلسطينية. فقال حامد: وهل تركت أمريكا الأمم المتحدة حتى تتخذ هذا القرار؟! فرد شاكر: العصا السحرية في يدها وهي حق الفيتو؟!

تابعتهم شهيرة لفترة ثم قدمت نبذة مختصرة عن متطلبات رمضان التي بدأت روائحه العطرة تفوح، وقالت لحامد: قل لميرفت تختر موعدًا يناسبها وتتصل بي لنتسوق معًا. فهز رأسه موافقًا وقال: أوكي. وغادرت الصالة فمال حامد برأسه ناحية شاكر وقال مبتسمًا: هل سمعت عن أسماء البلح الأبريمي لهذا العام؟ فرد شاكر بوشوشة: لا. فقال حامد: هذا العام سمي بأسماء الممثلات.. فبلح يسرا باثني عشر جنيهًا، وبلح ليلى علوي بأحد عشر، وبلح معالي زايد بتسعة. فابتسم شاكر وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال حامد ضاحكًا: أنا يا عم أفضل بلح معالي زايد.. فهو بلح كله طاقة وحرارة.. وتمسك البلحة تبقى عاوز تاكلها. ثم انفجر ضاحكًا ولم يعقب شاكر. وأقبلت شهيرة بعد قليل وقالت: ما رأيك يا شاكر في البلح؟ ولم تنتظر رأيه بل أردفت مباشرة وقالت: أنا رأيي نشتري بلح ليلى علوي.. لأنه كما يقولون بلحته كبيرة وملآنة. فكتم حامد ضحكة وتظاهر بالقيام إلى الحمام وفجر الضحكة في صورة سعال، في حين قال شاكر بخجل وبلهجة سريعة وقد ساوره شك في سماع شهيرة الحوار: إن شاء الله.. إن شاء الله.

38

لمحه عامر مقبلًا من بعيد فاستأذن وتسلل تاركًا الشلة تنظر إليه في غرابة، واقترب عوض فزالت النظرة المستغربة عن عصام وبهجت ولكنها ازدادت على وجهي سامي وخالد، وهموا قائمين وتلاقت القلوب قبل أن تتلاقى الأجساد متعانقة، وأفسحوا له وكان الكرسي الذي تركه عامر ما زال خاليًا، جلسوا جميعًا بعد أن أجلسوه أولًا احترامًا وإشفاقًا على صحته الواهنة، ونادى خالد بمجرد الجلوس: يا سونة باشا. فرد سونة بصوته المنغم: أيْوَه جاي. واحتفلوا جميعًا بالأستاذ عوض الذي لم يحضر إلى المقهى منذ زمن، ولم يتطرق أحد إلى ذكر عامر حتى سألهم عوض قائلًا: وأين صاحبكم؟ فأدركوا مقصده فخشي عصام أن يتحدث أحد فيصف الطريقة التي ذهب بها عامر توًّا فقال على الفور: مشغول بعض الشيء. فقال عوض ساخرًا: وفيما انشغاله وقد انتهى الامتحان؟! فرد سامي باسمًا: بل انتهت سنوات الكلية بلا رجعة ولم يبقَ إلا انتظار النتيجة. فقال عصام ردًّا على سؤال عوض: الله أعلم. ثم استأذن واقفًا وتبعه بهجت وذهبا معًا تاركين سامي وخالد في دهشة، وقد أدركا أن هناك شيئًا ما قد شرخ العلاقة بين عامر وعوض، ولكنهما قررا عدم التدخل حتى يعرفا الأمر من عامر أولًا. فأداروا دفة الحديث، قال خالد: من يصدق أن دولة تستخدم قواتها العسكرية لقتل فرد واحد؟! فرد سامي: بل قل شيخًا كبيرًا كفيفًا مشلولًا. فقال عوض وهو يداري

تعجبه من ذهاب بهجت وعصام وعدم بقائهما: إسرائيل بررت فعلتها بأنه زعيم منظمة إرهابية، ألم يعتبروا حماس منظمة إرهابية؟! فرد خالد: وهل صدق العالم ذلك؟! فالاتحاد الأوروبي أدان قتل الرجل رغم اعتباره «حماس» منظمة إرهابية. فقال سامي: لكن روسيا رفضت اعتبار «حماس» منظمة إرهابية من الأصل. وقال خالد: هذا الرجل يحبه الله، فقد استشهد وهو خارج من صلاة الفجر. فقال عوض: أليست إسرائيل هي الدولة الإرهابية؟! ألم تزل تمارس القتل المنظم لقادة سياسيين كان آخرهم الدكتور عبد العزيز الرنتيسي؟! فقال سامي: أصبحوا يقتلون كل رئيس لحركة حماس، ولولا أن «حماس» تنبهت أخيرًا لذلك فلم تعد تعلن عن رئيس الحركة لاستمر تصيدهم. وقال خالد: لكن يبدو أنها راضية عن محمود عباس (أبو مازن). فقال خالد: كانت تريد أن تعطيه كل الصلاحيات لكن عرفات لم يرضَ بذلك. فقال عوض: أتريد إسرائيل التدخل حتى في السلطة الفلسطينية؟ فقال خالد: يبدو أنك لم تسمع شارون الذي قال: على عرفات أن يعطي كل الصلاحيات لـ«أبو مازن» رئيس الوزراء، وأن لا يدس أنفه إلا في منديل. وضحك عوض من الأسلوب.

وجاء سونة بالدفعة الثالثة من المشروبات، فتناول خالد رشفة من فنجان القهوة وقال لعوض: ألم تفكر في زرع كلى؟! وضحك عوض عاليًا وقال: وهل تظن أن فكرة كهذه لا تأتي في ذهن مريض الفشل الكلوي؟! فقال مردفًا: إذًا لماذا لا تسعى إلى ذلك؟! فقال وهو ما زال يبتسم: الحمد لله أخيرًا عثرت على متبرع متوافق ودعواتكما. فدعيا له قائلين: إن شاء الله تتم على خير. ثم نظر خالد إلى

أعلى وقال: يا رب وفقه وأرجعه بعد العملية سالمًا غانمًا. ولم يحدد لهما عوض موعد العملية واكتفى بأن قال: في القريب إن شاء الله.

وبإصرار دفع سامي الحساب وهو يقول لعوض: خيرك سابق. وأردف ضاحكًا وهو يعبث بياقته فخرًا: الحمد لله نحن الآن موظفون قد الدنيا.

والحقيقة أن خبر عثور عوض على متبرع متوافق لم يقابله هو ولا إخوته بالفرحة اللائقة، فهو كان يسعى من قبل وهو يعتبر العثور على متبرع يتوافق معه منتهى أمله وغاية سعادته، ولكنه عندما أصبح أمرًا واقعًا ذهبت السعادة وحل محلها رهبة شديدة ورعب سيطر على كل مشاعره، كان يحس أنه ساعة يذهب لإجراء هذه العملية فإنه سيذهب بلا رجعة، وبخاصة بعد أن سمع عن حالات مات فيها المريض بل والمتبرع أيضًا، ومما أثار دهشته أن المتبرع لم يكشف عن نفسه، وقالوا له فاعل خير، حتى إنه رفض تقبل المال الذي عرضه عوض بسخاء. أما إخوته فكانوا أكثر منه قلقًا وتوترًا، وثارت الشكوك حول حامد الذي لم يأبه باعتراض زوجته على هذا السفر الذي قرره أخيرًا قائلًا: الآن حان الوقت. وهو الذي لم يرضَ بالبعد من قبل من أجل هذه الترقية، وهو الذي آثر حياته التي تسير على هذا النحو من الهدوء والدعة ورضي بها كل الرضا، فكيف يقبل فجأة بفكرة التشكيلات ويتحمل البعد عن أسرته لثلاثة أشهر متواصلة، غير آبهٍ بحدة الخلاف التي تصاعدت بينه وبين ميرفت حتى بلغت درجة الخطر، وعندها لزم كل منهما الصمت اتقاء لما لا يحمد عقباه. وسافر غير مبالٍ بمن تركهم وراءه. ولكن

قلب ميرفت لم يدعها تستريح لحظة فراحت تتصل به على الموبايل تعتذر له وتطمئن عليه، وكانت سهام أكثر الجميع شكاً، وجعلت تسترجع ما قاله حامد لها من قبل، قال مرة بتأثر: عوض مسكين. وقال: أنا أشفق على عوض إلى أبعد حد. وبكى مرة قائلاً: عوض صبر ولم يبقَ إلا الجزاء الحسن إن شاء الله. وكان شاكر أثبتهم إذ قال: قدر الله وما شاء سيكون.

39

الجميع موجودون بمستشفى الكلى بالمنصورة، الأيادي على القلوب من شدة القلق، والدموع تترقرق بالأعين، والقلوب تبتهل إلى الله داعية بالنجاح، وعوض ممدد داخل غرفة العمليات يحيطه طاقم متكامل من الأطباء والمرضات، وبذل شاكر بعض المحاولات بعد دخول عوض غرفة العمليات لمعرفة المتبرع لكنه لم يستطع، قال له المدير حاسمًا: إذا كان المتبرع قد رفض تعاطي مقابل فليس أقل من أن نحترم رغبته وننفذها. وكانت ميرفت تبدو أكثر شحوبًا وقلقًا من الجميع، فهي لم تشترك في بعض الحوارات المقتضبة التي دارت بين الحاضرين، بل لزمت الصمت لائذة بركن ناءٍ من الاستراحة، وهي تخرج تليفونها المحمول من وقت لآخر وتحاول الاتصال بحامد، لكن الرد كان دائمًا «لا يمكن الاتصال به الآن». كانت قد أخبرت حامد زوجها من قبل أن عوض أخاه وجد متبرعًا يتوافق معه، ولكن لم يتسنَ لها إخباره بموعد العملية، فالتليفون كان دائمًا خارج نطاق الخدمة وما زال، مما جعل عقلها مرتعًا للظنون، ربما يكون زوجها هو المتبرع، وليس بمستغرب أن يكون هو المجهول الذي أصر على إخفاء نفسه، ولم يقبل المال المعروض، وكاد رأسها ينفجر من التفكير.

كانت سهام تبكي تارة وتصب جام غضبها تارة أخرى على هذا الذي يسمى عامر، وساءها أن يدخل عوض غرفة العمليات وهو غاضب كل هذا الغضب حين

قال: أهان عليه أن لا يسأل عني حتى في مثل هذه اللحظات العصيبة؟! ألم يكن بيننا عيش وملح؟! فقالت له ساعتها: طول عمري أقول إنه قليل الأصل ولم يصدقني أحد. ثم التفتت حولها وقالت لمن حولها: المفروض لما عوض يرجع البيت بالسلامة يرمي عامر وأمه في الشارع الذي كان أولى بهما منذ البداية. فقال شاكر بغضب: ليس هذا وقت الحساب، ادعوا لأخيكم بالسلامة ونجاح العملية بدلًا من هذا الكلام، وأنا متأكد أن عوض بعدما يقوم بالسلامة سيطرد هذا الولد بنفسه. وكانت سحر تنتحب بشدة وتقول: كان يعامله كأنه ابنه، لكنه خذله، كان يظنه سيكون مثل أبيه. فقالت سهام: وماذا فعل أبوه حتى تطلعوا به السماء هكذا؟! فقالت سحر معقبة وهي تمسح دموعها: أبوه كان عنده إخلاص يا سهام. ثم أردفت: أما هذا.. وسكتت هنيهة ثم قالت: تلاقيه الآن مشغولًا بشقة المحافظة التي تسلمها من أسبوع. وأقبل باتجاه شاكر ثلاثة شباب يعرف اثنين منهما، فقد حضرا عقيقة سيد ابن عوض أخيه، صافحوه جميعًا وقدم عصام وبهجت نفسيهما كصديقين لعوض وقدم الثالث نفسه قائلًا: أنا أنور عبد الوهاب من المنصورة، تحت أمركم في أي وقت وأي طلب. فمالت سهام على شهيرة التي لم تتفوه بكلمة منذ مجيئها وقالت: هل ترين أولاد الأصول؟ لم يفعل معهم شيئًا مثلما فعل مع النذل وجاءوا ليطمئنوا عليه. فقالت سحر: أرجوكِ يا سهام لا تحرقي دمي أكثر من ذلك.. وكل واحدة تعمل خيرًا وتقرأ في المصحف وتدعو له. وذهب الثلاثة في الحال خارجين وقد بانت على وجوههم آثار الدموع. وقالت شهيرة في نفسها: هؤلاء

الذين وصفتهم سهام ذات يوم بالمتسكعين تصفهم الآن بأولاد الأصول! ثم خرج ناصر الذي كان يجلس مع والده العجوز الذي أصر على المجيء فاشترى خمسة عشر رغيفًا من الفينو وعلبتين من جبن «النستو» وثُمن كيلو من الجبن الرومي وربع كيلو من الجبن الأبيض في كيس ناوله لزوجته مروة، وقال لها: خليهم يأكلوا لقمة، لم يذوقوا شيئًا منذ الصباح. وذهب إلى والده فصحبه مع شاكر إلى المسجد لصلاة الظهر ودعوا جميعًا لعوض كثيرًا في أثناء السجود.

تمت الجراحة على خير، ولو أنها كانت جراحة عادية لخرج الطبيب وقال نجحت العملية، ولكن هذه الجراحة لا تحسم بمجرد الخروج من غرفة العمليات، فهناك مدة يقضيها المريض في الرعاية المركزة تحسبًا لمفاجآت أو مضاعفات قد تحدث، وبعدها يستطيع الطبيب طمأنة الأهل.. هكذا قالوا لشاكر. ولما سألهم عن المتبرع طمأنه عليه قائلاً: بخير والحمد لله. فرد قائلًا: الحمد لله رب العالمين. وطمأن النساء الجالسات على جمر الانتظار فهشت وجوههم، واطمأنت ميرفت عندما قال إنه سأل عن صحة المتبرع وأخبروه أنه بخير، وقضوا أيامًا من القلق والإجهاد، يروحون في المساء إلى بيوتهم كل يوم فيضيفون إلى تعبهم النفسي تعبًا جسديًا آخر من طول السفر، فلا يكادون يصلون إلى بيوتهم حتى يلقوا بأنفسهم على الفُرُش منهكين فيتلقاهم النوم في الحال، ولا يستيقظون إلا ليذهبوا من جديد. ومديحة تجلس في البيت ترعى جميع الأولاد بمساعدة الحاجة فكرية، وكانت الحاجة فكرية قد نظمت الأولاد حولها في دائرة كبيرة وطلبت منهم أن يرددوا

وراءها الدعاء: يا رب يقومك يا عوض بالسلامة أنت ومن مثلـك.. يـا رب لا يـأتي رمضان إلا وهو بخير وصحة وعافية يا رب. وكان الأطفال يرددون بأصواتهم الحادة وتؤمِّن معهم مديحة بدموعها.

40

عاد عوض من المستشفى سالمًا غانماً، واكتملت سعادته حين أخبره الطبيب أن صحة المتبرع بحالة جيدة، ووعده المدير بالإفصاح عنه في وقت ما، وأقبل المهنئون من الأقرباء وأقارب الأقرباء ومن الأصحاب والأحباب والجيران والمعارف، الكل جاءوا يسألون عنه ويدعون له بتمام العافية، ثم جاء زملاء المدرسة سعداء متهللين يشدون على يديه بحرارة، وظل مشغولًا باستقبال المهنئين لمدة أسبوع متواصل، وبدت سحر ومديحة وشيرين كأنهن في عرس، تفيض عيونهن بالفرحة وهن يقدمن الحلوى والفاكهة والمشروبات للمهنئين.

الجميع حضروا إلا اثنين؛ أخوه حامد وكانوا قد أخبروه أنه ذهب في تشكيلات إلى سيناء تمهيدًا للترقية، كما أخبروه أنهم لم يتمكنوا من إبلاغه عن العملية التي أجراها، ولكن الشك قد ساوره حين طالع في عيونهم تلك النظرات التي كانوا يتبادلونها كلما ورد اسم حامد، ففطن لما انطوت عليه هذه النظرات، وتساءل في نفسه: هل من الممكن أن يكون حامد هو المتبرع الذي لم يشأ أن يذكر اسمه؟! ولم يستبعد هذا الخاطر وإلا لماذا لم يتمكن من المجيء أو حتى الاتصال هاتفيًّا بأخيه شاكر أو حتى زوجته، أما الآخر الذي لم يحضر فهو عامر، ذلك الولد الذي أثار حفيظته وجعل الدم يغلي في عروقه، وبخاصة بعدما سمع عن تسيبه وإهماله خلال فترة غيابه، فقد أخبره خيري مشرف المطبعة أنه اضطر إلى كتابة الكتب في مكاتب

الكمبيوتر المختلفة بعدما اعتذر عامر لانشغاله، وبينما كانت مديحة تقدم النسكافيه سألها عوض: هل رأيت الولد عامر؟ فأخبرته أنها رأته ثلاث مرات خلال الأسبوع الماضي يخرج في الصباح الباكر، ولا تراه حين يعود. فكظم عوض غيظه عدة أيام أخرى، ثم قرر مواجهته، وخرج وقد شعر بالتحسن إلى باب الشقة، وظل يدق جرس الباب حتى خرجت أم عامر شاحبة نحيلة كمومياء، وهمت بالجلوس على الأرض بعد أن فتحت الباب من شدة الوهن وهي تقول: اسمح لي يا أستاذ. فأسرع ومد يده وأسندها حتى وقفت ثم ساعدها وأدخلها إلى غرفتها، وأجلسها برفق فوق السرير وهي تلهث، يعلو صدرها ويهبط، وشعر بدوار فاتكأ بيده على حافة السرير، وأدرك أن السرير قد استبدل، فالسرير المنصوب هو سريره هو وليس ذاك الذي أحضرته أم عامر معها وأصرت على وضعه في حجرتها اعتزازًا به، فلماذا فكت سريرها وربطته هكذا وجعلته بجوار الحائط، ربما استعدادًا للرحيل، فقد علم بتسلم عامر شقة المحافظة، وجاءه صوت أم عامر كأنة توجُّعٍ: ربنا يتمم شفاك أنت وأمثالك. لم يأبه لدعائها وسألها مباشرة عن عامر: أين عامر؟ أريد التحدث إليه. فقالت وهي ترتب فراشها من حولها: ربنا يعطيه ويعطيك الصحة. ثم ترقرقت الدموع في عينيها، ورأى دموعها أبلغ ما يكون من أي رد على سؤاله، وأبلغ ما يكون من شكوى أم من ابنها، أإلى هذا الحد تصل به القسوة؟! إن كان قد قرر مغادرة البيت لأنه امتلك شقة فلا يكون ذلك قبل أن يلقنه درسًا لن ينساه في حياته ثم يغور في ستين داهية. وربَّت على كتف المرأة المسكينة

وغادر الشقة حزينًا. ومرت الأيام وهو يترقب مجيئـه لكـن دون جـدوى، وقـال في نفسه: ربما لا يعود إلا بعد منتصف الليل.

ثم انشغل عوض بعد ذلك في زواج مديحة، وكان والـد عرفـة وأخواتـه قـد حضروا مهنئين بالسلامة، وأخبروه عن رغبتهم في إتمام الزواج خلال هذا الأسبوع لتصبح الفرحة، كما قالوا، فرحتين؛ فرحة الشفاء وفرحة الزواج، كما أخـبروه أن الحاج فتحي قد وافق، فكلف سحر شراء ما ينقص مديحـة واتـصل بأخيـه شـاكر وأخبره، وكانت مديحة قد نالت في الآونة الأخيرة رضا الجميع، حتى سهام، بما قدمته من رعاية واهتمام بأبنائهم في أثناء انشغالهم مع عوض في المنصورة؛ كانـت تعد الطعام وتقدمه للكبار منهم، ثم تطعم بيدها الصغار وهي تداعبهم بابتـسامتها الجميلة، وكانت الحاجة فكرية تراقبهم وهي سعيدة.

وأقبل يوم الخميس يمـلأ الـدنيا بهجـة وسـرورًا، الأضـواء تـتلألأ بنـادي الخالدين وتنبعث منبئة ببداية حيـاة أسـرية سـعيدة، مبنيـة علـى دعـائم الحـب والإخلاص، والمهنئون يتوافدون والسعادة تكلل وجـوههم بهالـة مـن نـور، وأقبـل شاكر وأسرته، حتى سهام التي لم يتوقع عوض مجيئهـا أقبلـت وفي يـدها هديـة، قدمتها للعروس وقبَّلتها ثم صـافحت العـريس، ووقفـت جانبهـا لالتقـاط صـورة، وعوض ذاهل هناك، ينظر إلى أخته بعينين مفتوحتين عن آخرهما، وسحت الدموع من عيني سحر كما سحت من عيني سعدية الخياطة والـدة مديحـة، وكانـت ليلـة فاقت الأولى حضورًا وضجيجًا وسعادة، وفجأة انتبه عوض ناظرًا صوب «الكوشـة»،

ثم تقدم بخطوات مسرعة وكانت تراقبه سهام، ولحق بالشاب قبل أن يصل إلى «الكوشة»، فاضطرب الشاب وكادت تسقط الهدية من يده، فقال له عوض بحدة: إلى أين أنت ذاهب؟ فرد الشاب باستغراب: أقدم هذه الهدية للعروس. فسحبه بهدوء من ذراعه حتى إذا ابتعد عن أعين الجميع إلا عين سهام قال له مشيرًا إلى الهدية: خذها واذهب في الحال ولا أراك إلا غدًا لوضع النقاط على الحروف. ومال رأس عامر لأسفل وانهمرت من عينيه الدموع، وخرج يجر قدميه مذهولاً لا يدري أين وكيف يسير، وتقاذفته أمواج الأطفال اللاهين وسقطت الهدية على الأرض لتطأها الأرجل وهو يسير منكس الرأس ترقبه سهام بسعادة وحبور.

41

في اليوم التالي استيقظ عوض قرب أذان الظهر، وهبط السلم في بطء، وكانت شيرين تجلس على كرسي الأنتريه وسط الرسيبشن تنظر إلى الأرض بشرود، وكانت تشعر بالوحشة بعد أن غادرت منزلها وأسرتها الصغيرة، ولكن الوالدة هي التي أرسلتها بعد الاتفاق مع مدام سحر، ولما ترامى إلى أذنها وقع أقدام الأستاذ عوض همَّتْ واقفة، وتسمرت في مكانها، وما إن جلس حتى سألته والاضطراب يبدو على قسمات وجهها كأنها في اختبار شفهي لم تستعد له، وقالت بسرعة: ماذا أحضر لك يا أستاذ؟ فابتسم لها عوض ولم يرد لهنيهة، وتداركتها سحر فأنقذتها من الحرج، ونادتها وكانت تهبط الدرج في ثوب جديد كعهدها الجديد بعد أن زال كابوس المرض عن زوجها وحبيبها عوض، واصطحبتها إلى المطبخ بوجه أعاد لها شيئًا من الاطمئنان.

وخرج عوض بعد أن تناول فطوره قاصدًا الشقة الملحقة بالفيللا، ووجد عامر هناك في انتظاره، واستقبله عامر بوجه شاحب لم يدرِ عوض إن كان من خوف مواجهته أم من التسكع والسهر إلى ما بعد منتصف الليل. ولكن ما أزعجه نظرته التي تحمل شيئًا من جسارة لم يتوقعها، وتطرق إلى ذهنه أنه الآن أمام خصم لم يعد في قلبه قيمة ولا مبدأ، وأهَّلَ نفسه لسماع كل شيء من تبجح وصفاقة وربما سخرية، فها هو قد أصبح مهندسًا ولم يعد في حاجة إليه، وبخاصة بعد حصوله

على شقة المحافظة، فهو يمتلك الآن السلاح المناسب، ويبدو أنه استعد جيدًا لهذا اللقاء، وقد ظن أنه نجح في تعبئة نفسه منذ الأمس، ولكن كل هذا لا يعني عوض في شيء وقد امتلك الحجة والحق، فبادره عوض قائلًا: أنت كما تبين لي إنسان قليل الأصل، ولم ترث من أبيك شيئًا من أخلاقه العالية رحمة الله عليه، ووصلت بك النذالة إلى إهمال أمك المريضة. وهنا قالت أم عامر لعوض والدموع تنهمر من عينيها: وهل شكوت لك منه يا أستاذ؟! فتعجب عوض من ردها وتأسى لهذا الخوف الذي أصابها فراحت تنفي أن تكون قد اشتكت من ابنها من قبل، فواصل كلامه: رحت تتسكع هنا وهناك في الشوارع كالكلاب الضالة من محافظة إلى محافظة. وكانت الأم تشير بكفيها الاثنتين تجاه عوض تطلب منه الكف عن هذا الكلام قائلة: حرام عليك يا عوض لا تظلمه. فقال لها بحدة: أما زلتِ تدافعين عن هذا المستهتر؟! وازدادت حدة عوض وعلا صوته: لا يشرفني أن أراك هنا مرة ثانية، اترك أمك وارحل في ستين داهية. فصاحت الأم بصوتها الواهن على قدر استطاعتها: وهل تظنني أترك ابني؟! ثم بكت بغزارة وهي تقول: ماذا حدث لتفعل كل هذا يا أستاذ؟! لم يرد عوض وخرج منفعلًا، والعجيب أن عامر كان يقف منكس الرأس ولم ينطق سوى كلمة واحدة قال: دعني وحالي.. كفاية.. كفاية.

ذهب عوض إلى المطبعة وكان ما زال يبدو مقطبًا، فسأله خيري منزعجًا عما حدث، وقص عليه عوض بهدوء ما فعله مع عامر، وقد هدأت نفسه كثيرًا بإفراغ ما بصدره من سخط على هذا اللامبالي، وأيده خيري قائلًا: رغم أن عامر يبدو حسن

العشرة وسهلًا، فإنه بدا غريبًا في الأيام الأخيرة، وكان في حاجة إلى من يجعله يفيق إلى نفسه، وأظن أن هذا الدرس كان كافيًا. واسترجع عوض صورته الشاحبة ووجهه الذي بدا له جسورًا، لكنه اكتشف أنه كالفأر الضعيف، إلا أن عدم رده كخصم ترك غصة في صدر عوض لم يحكِ عنها لخيري. وعندما عاد للبيت استحسنت زوجته ما فعله، وقالت: كان يجب أن يحدث هذا منذ زمن. وأخبرته أنه أخذ هلاهيله والسرير الخردة ورحل في عربة نصف نقل، كما أخبرته بسعادة سهام التي اتصلت بها منذ قليل حين علمت بخبر مغادرته الشقة، وأضمر عوض في نفسه تلك الغصة التي أفسدت عليه لذة النصر، وتمنى لو أن عامر تجاسر عليه قبل أن يغادر.

وفي المساء هطل عليهم خبر عودة حامد هطول المطر، وكانت سهام السحابة التي حملت الخبر إليهم، لأول مرة يسمعون خبرًا سعيدًا عن طريق سهام منذ زمن بعيد، وفي الحال اتصل عوض بشاكر ليزف إليه الخبر، لكن سهام كانت قد سبقته، وكان شاكر قد استعد بالفعل للنزول هو وأسرته، وقال عوض له والسعادة تبدو في نبرات صوته: إذًا نتقابل هناك. وانطلقوا جميعًا إلى أخيهم الذي طالت غيبته إلى حد لم يحدث من قبل، وكانوا جميعًا يشعرون بالفخر والامتنان ناحيته، وهو الذي قد أقدم على عمل لا يقدم عليه إلا إنسان يحمل بين جنبيه من النبل ما يجعل الكل ينحني أمامه احترامًا وتقديرًا، وكانت سهام السابقة إليه وتقابل عوض وشاكر عند مدخل العمارة وصعدا إليه معًا، ودخلا عليه فاتحين أذرعهما عن

آخرها معانقين بحرارة، الواحد تلو الآخر، ولاحظا وجهه الذي اكتسب سوادًا ونحولًا ملحوظين، وقال له عوض وهو يعانقه وفمه قريب من أذنه: حمدًا لله على سلامتك يا بطل! فكست حمرة من الخجل وجه حامد وقد أدرك ما يرمي إليه عوض من كلمة «بطل»، وكانت زوجته قد تحدثت إليه عن العملية الجراحية التي أجريت لعوض وعن ترجيحهم له كمتبرع حين أخفى الأطباء عنهم بيانات المتبرع، ونهض محمود على مهل وصافح عوض وشاكر ببرود لم يعهدانه عليه من قبل، وقبعت سهام في المطبخ مع ميرفت التي بدت في كامل أناقتها وسعادتها، ولم تخرج سهام لاستقبال عوض وشاكر والأولاد رغم سماعها أصواتهم تضج بها الصالة، بينما خرجت ميرفت ترحب بالجميع تحيطها هالة من السرور والضحكات.

وجلس الجميع يتناولون الجاتوه والمشروبات الباردة، والفواكه المكومة هنا وهناك على الطاولات بإغداق، ودار الحوار، وكانت الصدمة التي فاجأت عوض، فقد عرف أن حامد ليس هو المتبرع، وصدمه حامد قائلًا: يا جماعة أنا في جيش ولست حر نفسي، ومنذ أن ذهبتُ حتى أفرجوا عني لم أرِ بشرًا غير الجنود والضباط الذين كانوا معي في التشكيل. ثم أضاف قائلًا: كنا في صحراء سيناء ولم تكن هناك شبكة تليفونات حتى أتصل على الأقل بزوجتي، ولو كان هذا متيسرًا لكنت عملت المستحيل حتى أحضر إلى عوض يوم العملية فأكون بجواره. وصمت قليلًا ولم يعقب أحد ثم قال: كان التليفون دائمًا خارج نطاق الشبكة. واستطاعت ميرفت أن تنقذ الموقف بترحيبها وقولها: الآن على كل حال نحن سعداء مرتين؛ مرة لسلامة

عوض من المرض ومرة لسلامة وصول حامد. وبقي المتبرع سرًّا غامضًا لا يجدون إشارة تدل عليه حتى قال محمود: هناك أناس تحب فعل الخير دون أن يعرف أحد بذلك. وقال شاكر: فعلًا الدنيا ما زالت بخير، وأبناء الحلال كثر. وانقضت ساعتان لم تظهر خلالهما سهام ولو مرة، وقد ادعت لميرفت التي أبلغتهم بدورها، أنها منهكة طوال اليوم، ولهذا نامت بمجرد أن وضعت رأسها على السرير.

وعاد عوض وسحر صامتين، واتصل عوض بمدير المستشفى الذي كان قد وعده بالإفصاح عن بيانات المتبرع، ولكنه فوجئ برفضه القاطع قائلًا: احمد الله واحترم رغبة من قدم لك خدمة ولا تحاول مرة ثانية السؤال عنه.

42

مضت شهور وأقبل رمضان يحمل في جعبته حادثة أفجعت الجميع، فقد توفي الرئيس ياسر عرفات في مستشفى بفرنسا، بعد نقله إثر ظهور أعراض مفاجئة عليه، تضاربت بصددها الأقوال والتحليلات، فقيل إنها أعراض تسمم، وقيل إن إسرائيل هي التي دست له هذا السم لعدم استجابته للضغوط التي مارستها عليه، واستدلوا على رأيهم هذا بما فعلته إسرائيل حين سارعت وأذاعت بأن أيام ياسر عرفات أصبحت معدودة، وبأنه يتوجب على الفلسطينيين ترتيب أمورهم على اعتبار أن عرفات قد مات، ورأى آخرون أن موت عرفات موت طبيعي ناتج عن المرض الذي ظل يعاني منه لسنوات طويلة، ولم يبقَ إلا انتظار تقرير المستشفى، فهو الذي سيحسم الأمور، وجاء التقرير بلا إجابة شافية، فلم يجزم إن كان سبب الوفاة ناتجاً عن تسمم أم لا، وأعلن صائب عريقات بأن ياسر عرفات قد مات، لكن القضية الفلسطينية تبقى حية، وأدى فتوح اليمين الدستورية ليصبح رئيسًا مؤقتًا لمدة ستين يومًا لحين اختيار الرئيس الجديد، وشيعت الجنازة العسكرية في مصر ودفن في قبر متنقل برام الله لحين دفنه بصورة نهائية حسب وصيته في القدس، وارتد بعض الساخطين على عرفات والمشككين في إخلاصه من الشباب الثائر عن مزاعمهم، فقد أراد الله لهذا المجاهد الخير بعد رحلة جهاد طويلة فأماته شهيدًا، واختارت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أبو مازن رئيسًا لها تمهيدًا

لاختياره رئيسًا لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقال شارون ساخرًا من العرب: «إذا كان العرب يملكون النفط فنحن نملك عود الثقاب».

عاد عوض قرب العصر بصحبة سحر يحملان أكياس الملابس الجديدة، وعند باب الفيللا وجدا شابًا ذا عينين خضراوين ووجه أبيض وطويل بيِّن الطول يقف بانتظارهما، عرفه عوض في الحال وتذكرته سحر، إنه الشاب الذي جاء ليطمئن على عوض يوم إجراء العملية في المنصورة مع اثنين آخرين تعرفهما من يوم «العقيقة»، وتوجه إليه عوض وعانقه مرحبًا، وقدمه لسحر: أنور عبد الوهاب، مهندس من المنصورة. فقالت مرحبة: أهلًا وسهلًا نورت القاهرة. فرد باحترام جم: الشرف بمعرفتكم يا فندم. ثم بادر الشاب عوض سائلًا: هل عامر صحيح غادر السكن لمكان آخر؟ فقال عوض وقد قطب جبينه: إنه تسلم شقة في القطامية، لكني لا أعرف مكانها بالتحديد. ثم قال له: تفضل أولًا واسترح قليلًا ثم نتحدث بعد ذلك فيما تريد.. تفضل. وسحبه من يده ودخل الفيللا، وجلست سحر بجانب زوجها وهي تمسك طبق الفاكهة الذي أحضرته شيرين بين يديها وانتقت منه واحدة وقدمتها للضيف وقالت: تفضل. ثم قالت تسأله: بما أنك من المنصورة لنا خدمة عندك. فقال في التو: تأمرونني. فقالت: بالتأكيد ستجد أحد المعارف في مستشفى الكلى حيث أجريت لعوض العملية. فقال: بل كثير من المعارف والأقرباء. فقالت: إذًا باستطاعتك معرفة الذي تبرع لعوض بالكلى. فنظر إليهما بذهول وقال مستنكرًا: ألم تعرفا حتى الآن؟! فردت سحر: لا والله. فقال باستغراب: يا أستاذ

عوض كيف لا تعرف المتبرع وهو يسكن معك في نفس البيت؟! فنظر الاثنان إلى بعضهما البعض مشدوهين من هول الصدمة وسألاه في وقت واحد: تقصد من؟! فقال باستهزاء: أقصد من؟! عامر طبعًا. كانت صدمة مذهلة لم يحتملاها، فأطبق كل منهما براحتيه على وجهه فغطيا وجهيهما، وظلا كذلك لفترة لم يدركا إن كانت قد طالت أم قصرت، وهو ينظر إليهما باستغراب.. الآن الأمور تتضح شيئًا فشيئًا والغشاوة تزال عن وجهيهما مع سقوط ذراعيهما، تركه العمل في المطبعة وعدم حضوره في أثناء الجراحة، والشحوب الذي بدا عليه حين واجهه.. يا الله.. كيف لم يلتفت عوض إلى ذلك؟! وكيف يخفي هو عنه هذا المعروف الثقيل ثقل الجبل؟! ربما كان متأكدًا أن عوض سيرفض ولهذا أخفى عليه الأمر، ما أقسى ما جنى عامر، وكان الأولى أن يكافأ.

وانتحب عوض ودفنت سحر وجهها في منديل وراحت تبكي بتشنج، وقال عوض لسحر: وبخته وطردته يا سحر ولم يرد علي.. هل يمكنني أن أكون قاسيًا لهذه الدرجة؟! وأمه لماذا لم تنطق بما فعل عامر وهي تسمع ابنها يهان. ما أقسى أن يتذكر قولها حين طالبه بمغادرة البيت ويتركها إذ قالت: وهل تظنني أترك ابني؟! أو قولها: حرام عليك يا عوض لا تظلمه. وانتفض فجأة ومعه سحر وركب معهما أنور وانطلق عوض باتجاه درب اللبانة بالقلعة وصعد السلم الضيق ونادى على عصام فخرج عصام صامتًا وقد ألجمته الدهشة من طريقة عوض الآمرة حين قال: ارتدِ ملابسك ونحن في انتظارك تحت. ولم يستجب لدعوته بالدخول،

فارتدى ملابس الخروج، ثم نزل في الحال وهو يرفع حاجبيه دهشة، ووجدهم بانتظاره فقصوا عليه ما حدث، ولم يلاحظوا عليه دهشة أو اهتمام، بل قال مستنكرًا: حتى الآن لم تعرفا؟! وقال متأثرًا: عامر هذا جبل من النبل والأخلاق لم أرَ مثله في حياتي. ثم نظر إلى عوض وقال: كان بين نارين أمه المريضة التي أخبره الطبيب أنها في مرحلة متأخرة من المرض، وبين الذهاب للتبرع لك بالكلى، فأوصانا على أمه وكان قبل الذهاب للتبرع لك بالكلى يجوب المحافظات بحثًا عن علاج لأمه، حتى إنني أخذته إلى الإسكندرية عند خالي لمقابلة العطار الشهير محمد منصور، وكان قد تردد اسمه في برامج متعددة في التلفاز وعرف عنه أنه يعالج مثل هذه الحالات بعد أن آيسه الأطباء من شفائها. فجفف عوض دموعه وهو يقول: وأنا الذي كنت أظنه يتسكع ويهمل أمه. وقالت سحر فجأة وهي تبكي: هو الغلطان يا عوض، لماذا يخفي عنا كل ذلك؟! وجعلت تنتحب بشدة وأنور يمسح عينيه من دموع التأثر.

وما إن وصلوا إلى القطامية وانفتح باب الشقة حتى تسمر عوض وسحر مكانهما، وجمدت الكلمات في فم عوض وحل محلها البكاء المتواصل ووقف عامر هنيهة ينظر إليه، ثم ألقى بنفسه في حضنه الذي طالما ظمأ إليه، ومكث بين ذراعيه ينتحب حتى قال عوض بعد أن تمالك نفسه قليلًا: لماذا تركتني أظلمك هكذا؟ فرد عامر وهو يزدرد ريقه: أنت أبي، وحبي لك أكبر من أي شيء. وقال عوض وهو يضمه أكثر إلى صدره: لماذا إذًا أخفيت عني تبرعك لي؟ فقال عامر: لأنني كنت

متأكدًا أنك سترفض. ثم أردف عامر: الكلى عندي لها بديل ولو احتجتَ إلى قلبي الذي ليس له بديل لما تأخرت عليك به. ولماذا كنت تتجنبني في الشهور الماضية يا عامر؟ فقال: لأنني أحسست أنني أصبحت مصدرًا للخلافات بينك وبين إخوتك وكرهتُ ذلك فانسحبت لعل هذه الخلاف تزول. ثم جلس عوض وسحر على كنبة من دون تنجيد والدموع ما زالت تترقرق في عيونهما، وجلس أنور وعصام القرفصاء على الأرض المفروشة بحصيرة بلاستيكية، وخرج عامر يعدو ثم عاد بكيس به خمس زجاجات من «البيبسي»، وقال عوض وهو يتناول زجاجته: أحضر سيارة لتأتي معي أنت والحاجة فورًا. فرد عامر بأنه رغم حبه له الذي لا يعدله حب لبشر فإنه يود البقاء هنا، لأنه يريد أن يبدأ حياة جديدة، ووعد عوض بمواصلة الود قائلًا: الابن حتما ينفصل عن والده. فقاطعه عوض: لكن ليس الآن.. ليس الآن يا عامر. فقال: الفطام صعب علي، لكن يجب أن تساعدني عليه ليشتد عودي في هذه الدنيا.

43

تجمعت الشلة كلها في مقهى الحلمية، والضحكات تملأ المكان، ثم توجهوا ناحية التلفاز الذي أمر المعلم قرني بفتحه لمعرفة الأخبار، وكان خبر القبض على صدام حسين في مخبأ بتكريت عمقه سبعة أمتار لا يسع إلا لفرد واحد، وبدا صدام أشعث ذا لحية كثة، وقال أحد الزبائن: يبدو كأنه فائق لتوه من حقنة مخدر! وأوضح أحد المحللين السياسيين من العراق أن القبض عليه تم منذ شهور وليس الآن، كما أعلنت أمريكا، وكان دليله على ذلك لا يترك مجالًا للشك، فقد بدا النخيل في الفيديو مثمرًا على عكس ما هو واقع الآن، وقال أحد الزبائن: يبدو أن بوش أخذه أولًا إلى أمريكا ليشمت فيه ويسخر منه ثم أعاده. ولما تكرر عرض اللقطة التي كان يفتح صدام فيها فمه ويفحصه أحد الأطباء مسلطًا الكشاف داخل فمه سأل المعلم قرني: لماذا يفتحون فمه هكذا؟! فرد خالد وقد بدت صلعته لامعة كمرآة: ربما يبحثون فيه عن أسلحة دمار شامل! فقهقه المعلم ضاحكًا وتصاعدت الضحكات منتشرة بين الزبائن شيئًا فشيئًا بصورة هستيرية.

– تمت –

المؤلف:

الاسم: جمال محمود محمد دغيدى .

اسم الشهرة : جمال دغيدى .

ولد عام 1960 في ساقية المنقدي – أشمون – منوفية.

التحق بكلية الألسن عام 1979م , ولكنه أعاد الثانوية العامة , والتحق بكلية الطب جامعة الإسكندرية عام 1980م وتخرج بعد أن حصل على بكالوريوس الطب والجراحة عام 1987 م.

يعمل بمصر طبيبا بقسم الأمراض الباطنية والقلب بمستشفى أشمون العام .

فاز في مجال الشعر في مسابقة سيناء الأدبية 1982, وهيئة الفنون والآداب بالإسكندرية 1984 , والمجلس الأعلى للشباب والرياضة 1985, وجمعية الخدمات الأدبية بالقاهرة 1986, ومسابقة المجلس الأعلى للشباب والرياضة 1990. كما فاز في بعض مسابقات الزجل والقصة القصيرة.

يكتب إلى جانب الرواية – القصة القصيرة والشعر والمقالة الطبية والزجل

نشر بعض قصائده ومقالاته في مجلات : إبداع , والحرس الوطني , والمنتدى , والفيصل , وغيرها.

دواوينه الشعرية المنشورة : صمت وشيء ما 1999.

أعمال لم تنشر : مجموعة قصصية (عفوا يا أبى) ، رواية (الحافلـة) ، رواية (الجرح والضماد) ، ديوان شعر (فلك النجاة) .

عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب .

من الشعراء المدونة أسماؤهم بمعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين

Email: gd1232003@yahoo.com



د. جمال دغيدي



انتبهوا.. العود يحترق

الأيام كائنات حية مثل البشر، تحمل في قلبها الحزن أو الفرح، ومنها ما تميل إليها النفس وتأنس إليها، ومنها ما تنفر منها النفس وتتمنى زوالها، وهذه الأيام التي أقبلت منذ الأمس، الثلاثاء، كانت من ذي قبل أحب الأيام إلى قلبه، وكان يطير فرحًا عندما يعلن عن ظهور هلالها، وهل من أحد إلا ويشتاق إلى رمضان.. شهر الخيرات؟! شهر الود والصفاء؟! غير أنه جاء هذه المرة بغير ما تعود أن يجيء به، جاء يحمل الشجن على كفيه، ففاضت بمجيئه الدموع على ضفتي عينيه، وجفت أنهار البهجة والسعادة، وخيم على الشقة صمت حزين..

